نافذة على الغرب
(٢)

د. عبد الرحمن بدوى

دفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم

ضد المنتقصين من قدره



ترجمة
كمال جاد الله

الدار العالمية للكتب والنشر

دفاع عن محمد ﷺ
ضد المنتقصين من قدره

تأليف

د/ عبد الرحمن بدوي

ترجمة

كمال جاد الله

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

مدخل

« نادراً ما يصدق الناس الحقائق لا سيما إذا تعارضت مع مصالحهم » .

وهذا يفسر ذلك المعدل الرهيب من الأكاذيب التى ساقها الكتاب البيزنطيون والأوربيون منذ اثنى عشر قرنا فى موضوع النبى محمد الذى أصبح أكبر أعداء الأوربيين كما كان الهجوم عليه هدفاً للامبراطورية البيزنطية وأوربا سواءً على الصعيد الأيديولوچى أو الصعيد الدعائى من جانب المؤرخين الأوربين المدعومين بعلماء الدين المسيحيين فى البلاد الخاضعة لسيطرة المسلمين أمثال (يوحنا الدمشقى وتيودور أبو قرة وإلياس ، وعبد المسيح الكندى وغيرهم) وقد تبعهم فى نفس المنهج قساوسة أوربيون بدءاً من القرن الثانى عشر الميلادى وحتى يومنا هذا .

وكانت هذه الدعاية قائمة على أساطير وأكاذيب جديدة لكتاب لم يعدموا الجهل بالأحداث التاريخية كما لم يحرموا موهبة تلفيق الأكاذيب . وكانت ثمرة هذه الدعاية هى ما اصطلح على تسميته منذ ثلاثة قرون فى أوربا باسم « أسطورة محمد » وقد رسمنا لوحة فى المقدمة عن هذه « الأسطورة » فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا تعد تمهيداً للموضوع الأصلى لهذا الكتاب وهو « المناقشة النقدية المتعمقة للدراسات المسماه « بالعلمية » والمخصصة لحياة النبى محمد ﷺ والتى قام بها « علماء » مستشرقون بدءاً من الثلث الثانى للقرن التاسع عشر وحتى السنوات التالية من عصرنا وذلك حسب الموضوعات المعالجة وليس حسب الترتيب التاريخى للكتاب والأعمال المختلفة التى ستتم مناقشتها . ونحن لم نناقش سوى الأعمال التى تكتسب صفة العلمية أو هكذا قدمها كُتابها .

وهذا يفسر أننا تغاضينا كليةً عن الأعمال التى كتبت لأهداف دفاعية خاصة بإثبات عقائد النصارى مثل أعمال (السيرموير ، والأب لامانس) أو الخاصة بالإيديولوچية الماركسية مثل أعمال (بارتهولد ، بلاييف ، بيرتلز) أو أعمال الموتورين (مثل الأب الدومينكانى ثيرى الذى يكتب باسم مستعار هو حنا زكريا) .

وسوف يجد القارىء عن طريق مناقشتي لهذه الأعمال ذات الطابع العلمي أن هؤلاء الكتاب رغم مظهريتهم العلمية والموضوعية كانوا أكثر تشبعاً بالأحكام المسبقه دينياً كانت أو قومية . إن مسؤليتهم فى هذا الصدد لأثقل ألف مرة من مسئولية أسلافهم فى القرون الخوالى فى أوربا والذين لم يتوفر لديهم أى مرجع أصلى ومؤكد بينما كان فى متناول أيدى هؤلاء تقريباً كل المصادر القادرة على إرشادهم كما أن جانبا كبيرا من تلك المراجع قد نشره أقرانهم الأوربيون بكثير من العناية ومنهم (فوستنفيلد وفلهوزن) . فى الواقع إن دعوى الموضوعية عندهم تبدو فى أبهى صورها جزئية ومنهجهم الذى يسمونه نقدياً علميا يتكشف عن سراب خادع .

ولذلك فقد حاولنا هنا أن نكشف أخطاءهم وأن ندحض أكاذيبهم وأن نقوم أحكامهم التى تقوم غالباً على أحداث مغلوطه أو ناقصة وكل ذلك بهدف توصيل القارئ غير المسلم إلى أن يكون لديه عن الإسلام وشخصية مؤسسه مفهوم دقيق وعادل .

د. عبد الرحمن بدوى

المقدمة

أسطورة محمد فى أوروبا
عشرة قرون من الادعاء الباطل والافتراء

خلال تتبعي للمفاهيم التى تبناها الأوربيون حول نبى الإسلام محمد انتابنى الذهول من جـهلهم المطبق وعدوانيتهم الواضحــة وأحكامهم المسبقة المتأصلة وتحـز بهم الطاغي ضد خصومهم . وهذا لا ينطبق فحسب على الشعب الجاهل والساذج ولكنه ينطبق أيضا على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين والمؤرخين حتى أنه خلال القرون التى شهدت انطلاق الفكر الأوربى من القرن الثانى عشر وحتى القرن السابع عشر لم يكن لدى أي من هؤلاء المفكرين الشجاعة في تحري المعرفة الحقة والموضوعية عن الإسلام ومؤسسه . فلا البرت الكبير ولا توماس الأكوينى ولا روجر بيكون فى القرن الثالث عشر ولا فرنسيس بيكون ولا بسكال ولا اسبينوزا فى القرن السابع عشر لم يحاول أي من هؤلاء أن يبذل جهداً لفهم الإسلام مع أنهم كانوا يعرفون بشكل أو بآخر الفلاسفة والعلماء العرب ولم يدخروا وسعاً فى مهاجمة أرائهم ودينهم .

وقد شهد رينان على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على محمد ، يقول رينان « لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد . . . إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له ، لقد ادعوا بأن محمداً كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له ، ولقد وصمه دانتى بالإلحاد فى رواية الجحيم ، وأصبح اسم محمد عنده ، وعند غيره مرادفاً لكلمة كافرا أو زنديق ، ولقد كان محمد في نظر كتاب العصور الوسطى تارة ساحراً وتارة أخرى فاجراً شنيعاً ولصاً يسرق الإبل، وكاردينالاً لم يفلح فى أن يصبح بابا فاخترع ديناً جديداً أسماه الإسلام لينتقم به

من أعدائه ، وصارت سيرته رمزاً لكل الموبقات وموضوعاً لكل الحكايات الفظيعة» (١) .

١ - لقد بدأ دراسته بذكر ما قاله المؤرخ البيزنطى (ثيوفان) (٧٥١ - ٨١٨) فى كتابه الأحداث التاريخية حيث يحكى أن موت محمد كان بفعل عشرة من اليهود الذين تآمروا عليه بعد ما رأوا فيه المسيح حيث كانوا يرونه يأكل لحم الإبل (وهو شيء محرم فى الديانة اليهودية) ومع ذلك فقد ظلوا حوله من أجل الإضرار بالمسيحية . ثم يرسم تيوفان ملامح حياة محمد قائلاً أنه ذهب إلى فلسطين وتحدث مع اليهود والنصارى وتعلم منهم ما تحتويه الكتب المقدسة » (٢).

ونجد فى الملامح التى رسمها ثيوفان أسماء كثيرة منها : أنستاس (المتوفى قبل ٨٨٦م) وقنسطنطين بورفيروجينيتا (٩٠٥ - ٩٥٩م) وسدرينو توفى (١٠٥٧م) ولكنه لم يحدد اليهود العشرة المسئولين عن موت محمد .

٢ - كما تأخذ الأسطورة منحنى آخر عند الراهب جيوبرت رئيس دير نوجينت (١٠٥٢ - ١١٢٤م) ، فظهرت أسطورة جديدة تقول بأن بطريرك الاسكندرية حين مات أراد راهب أن يخلفه في وظيفته لكنه طرد من الكنيسة ، فوسوس له الشيطان بأن يعلن بأنه المسيح ، ولقد قام هذا الراهب واسمه (ماثوموس) وهي التسمية التي صار يكتب بها اسم محمد ، بالزواج من أرملة غنية اسمها خديجة وأشاع أنه نبى بين حشد من الناس ، ولقد جاء (ماثوموس) ببقرة ووضع بين قرنيها كتاباً صغيراً وأخفى هذه البقرة عن أتباعه ، وفى أحد الأيام أخرج هذه البقرة أمام العامة وجعلهم يقرأون الكتاب الصغير الذى كان بين قرنيها ، وقد وجدوا فى هذا الكتاب جملاً تحلل لهم لكل أنواع الفساد الأخلاقى ، وتبيح لهم أكل كل اللحوم المحرم أكلها على الناس ، ويتضح جلياً أن هذه الأسطورة المضللة قد بنى واضعها قصتها على أمرين ، أحدهما : قصة الراهب (بحيرى) التى وردت في كتب السيرة ، واسم (سورة البقرة) السورة الثانية الواردة فى القرآن ، ومن خلال هذين الأمرين نسج خيال كُتاب أوربا فى العصور الوسطى هذه الأسطورة المفرضة فى الحماقة والغباء .

٣ - وبالنسبة للدور المكذوب للراهب (بحيرى) فى حياة الرسول ، استنتج

---

(١) إرنست رينان : دراسات فى التاريخ الدينى - باريس (١٨٥٩) .

(٢) ثيوفان - الأحداث التاريخية - (ص ٥١١) - ط بون (١٨٣٩) .

مسيحيّو العصور الوسطى أن الإسلام ليس إلا هرطقة مسيحية ، وأن محمداً ما هو إلا منشق عن الكنيسة المسيحية ، وحتى يدعم هذا الافتراض قال بييردى كلونى (المتوفى ١١٥٦ م) أن الاسم الحقيقى للراهب (بحيرى) هو (سيرجيوس) ، وأن سيرجيوس كان من الهراطقة النساطرة ، وأنه ارتحل إلى الجزيرة العربية وهنالك التقى بمحمد ، ولقنه بكل ما كان ينقصه من معرفة عن تعاليم كتابى العهد القديم والجديد ، على التفسير النسطورى الذى لا يعترف بألوهية المسيح ، إضافة إلى بعض الخرافات الواردة فى الأناجيل المزيفة .

٤ - وسار « جاك دى فيترى » على درب من سبقوه فى الادعاءات المضللة عن نبى الإسلام ، بقوله إن محمداً كان قسيساً يدعى سوسيو ، وقد أدانه بابا روما بتهمة الهرطقة فنفى إلى الجزيرة العربية ، وهنالك انتقم من أعدائه بادعائه النبوة ، وأنه استقى تعاليمه من كتابى العهد ، وأضاف إليهما ما وسوس له به الشيطان .

٥ - كما وصف « مارتين بولونكو » محمداً بأنه ساحر ومدعٍ للنبوة ورئيس لقاطعى الطرق ، وأنه أخذ تعاليمه على يد راهب يدعى (سيرچيوس) وكان الشيطان هو الذى نقل إلى محمد شريعته بمساعدة الراهب الزنديق (سيرچيوس)، كما أن شريعة محمد انتشرت بالسيف .

٦ - ولقد قال المؤرخ « فانسان دى بوفيه » (١١٩٠ - ١٢٦٤) وهو الكاتب المشهور للموسوعة المسماه « المرأة » وتقع فى أربعة أجزاء : المرأة الطبيعية ، المرأة المذهبية ، المرأة الأخلاقية ، المرأة التاريخية . والجزء الأخير هذا هو قصة العالم منذ بدء الخليقة وحتى عام (١٢٤٤م) ثم أكملها فانسان نفسه إلى عام ١٢٥٣ ثم استكملت على يد كتاب آخرين فيما بعد . وكان فانسان كما يحكى من الأخوة المبشرين فى دير دى بوفيه وكان على علاقة حميمة بلويس القديس (لويس التاسع) الذى قاد الحملة الصليبية السادسة فى (١٢٤٩ -١٢٥٠) وكان فانسان يتمتع بثقة هذا الملك كما كان فى نفس الوقت قارئه وأمين مكتبته ومربى أولاده . وهذا يفسر اهتمامه بالإسلام الذى تحدث عنه طويلاً وناقشه فى المرآه التاريخية (٢٣ أجزاء ٣٩ - ٦١) . ويعتمد فى حكايته عن الإسلام على ثلاثة مصادر : (١) La Cronaco لأوجوفلود ياسيس . (٢) Libellus وهو كتاب لماشومى تالاسيس وهو كتاب حول أكاذيب محمد فى بلاد ما وراء البحر . (٣) مجادلة يهودية عربية حول الإسلام والمسيحية فى الجزيرة العربية .

Disputatio CuijusdamSarraceni

وقد اقتبس من المصدر الأول حكاية فن تحضير الأرواح عند محمد ونوبات الصرع المتتابعة عند محمد وقد استلهم من المصدر الثانى حكاية البقرة وأوعية اللبن والعسل واليمامة المروضه على أن تهدل فى أذن محمد وكذلك اتصاله بالروح القدس وهذه أول مرة نجد تلك القصة فى (أسطورة محمد فى الغرب) وقد أخذ من المصدر الثالث قصة (سيرچيوس) وكيف أن هذا الراهب قد فسق بشكل رهيب فى ديره مما أدى إلى حرمانه وطرده ولجوئه إلى منطقة فى الجزيرة العربية فسماها (كوهين) حيث كان يعيش هناك شعبان شعب يعبد الأصنام وشعب اليهود .

وهناك تقابل (سيرچيوس) هذا مع محمد الذى يعبد الأصنام وأراد هذا الراهب بدافع من محاولة إرضاء الرهبان الذين طردوه من الكنيسة ، حتى يصطلح معهم فإنه دفع محمد إلى ترك عبادة الأصنام وتحويله إلى مسيحى نسطورى . ومن هنا أصبح محمد أحد تلاميذه بعد ما أقنعه بالمسيحية وقد تلقب باسم ماهوميت النسطورى حيث تعلم من (سيرجيوس) تعاليم العهدين القديم والجديد وألف القرآن حيث أدخل على تعاليم العهدين القديم والجديد بعض الأساطير والأكاذيب الأخرى . ولكن اليهود حين رأوا أن محمداً يمكن أن يصل إلى المسيحية الحقيقية فدسوا على محمد أتباعاً آخرين وحاولوا أن يعلموهم المذهب الجديد (الإسلام) حيث أضاف اليهود إلى القرآن تعديلات معينة وحذفوا منه بعض المقطوعات !!!

إن فانسان دى بوفيه يمثل قمة الكتاب الذين لم يسبروا أغوار المراجع العربية المباشرة .

٧ - كان على ما يبدو أول من استفاد من المراجع العربية المباشرة هو « جايوم الطرابلسى (طرابلس لبنان) فى سنة ١٢٧١ حيث أقام فى دير قريب من طرابلس وكتب كراسة يوميات حول رحلاته إلى سوريا وأهداها إلى تيدالد عام (١٢٧٣). وفى حكايته عن حياة محمد يؤكد على دور بحيرى الراهب الذى كان يعيش فى دير على الطريق الذى يسلكه العربى من مكة إلى سيناء . وقد ألهم بحيرى أنه يوماً ما سيمر بهذا المكانة شخص ما تهتم به الكنيسة ، ولما جاء هذا اليوم تعرف بحيرى على هذا الشخص بوحى إلهى حيث أعلم بأن طفلاً يتيماً معتلاً فقيراً

---

(١) مارتين بولو - الأحداث التاريخية (ص ٢٧٣) .

(٢) محاورة بين مسلم ومسيحى من الجزيرة العربية حول عقيدة المسلمين وعقيدة المسيحين .

وحارس إبل هو الشخص المطلوب . وقد حكى المسلمون كما يقول جيوم الطرابلسى أن باب الدير الذى دخل منه محمد ارتفع لحظة دخوله وبدا كأنه توس قصر امبراطورى وقد استقبل الطفل بشكل حار من قبل بحيرى الذى منحه الطعام والملبس واعتبره كما لو كان ابناً بالتبنى . وقد علمه أن يحتقر عباده الأصنام ويبتهل بقلبه إلى يسوع بن مريم . وبعد وقت ترك الطفل الدير لأنه كان فى خدمة تاجر غنى . ولكنه وعد أن يعود حين يكبر . وقد مارس الطفل التجارة بنجاح وكان يتردد كثيراً على بحيرى الراهب . وقد مات سيده فى هذه الأثناء فتزوج من أرملته وظل يداوم على زيارة الراهب مما أسخط عشرة من صحابته ففكروا فى قتل بحيرى ولكنهم خافوا من غضب محمد ومع ذلك فقد ضاقوا ذرعاً ذات ليلة من حديث بحيرى مع محمد فقتلوا بحيرى بسيف محمد وقد اعتذروا لمحمد قائلين : أنهم شربوا حتى الثمالة مما جعلهم تحت تأثير الخمر يطعنون بحيرى بالسيف - ولأن محمداً صدق ذلك الخبر الكاذب فأدان الخمر وحرم الشراب على أتباعه . وحين مات بحيرى أفلت أتباع محمد من عقالهم فراحوا يسلبون البلاد ويقتلون العباد وظلوا على هذا الحال حتى وفاة محمد .

ويعرض جيوم الطرابلسى الدين الإسلامى بالتفصيل حسب مفهومه الشخصى وينتهى بالتأكيد على أن المسلمين لم يكونوا بعيدين عن حقيقة العقيدة المسيحية .

إذاً فرواية جيوم الطرابلسى أقرب إلى الحقيقة التاريخية من كل قصص أسلافه الأوربيين (١)

٨ - وهناك كاتب آخر أخذ من المصادر العربية المباشرة وهو (بيير باسكاسيو) (١٢٢٨ - ١٣٠٠م) وكان مطران غرناطة قد كتب مقاله طويلة حول شريعة المحمدين . وقد صب جام هجومه على بحيرى الذي وصفه « بالراهب المنحرف»، وعن هذا الراهب المنحرف يحكى القصة بشكل مبالغ حيث يقول : لقد كان بحيرى راهباً واسع العلم ولكنه انغمس فى الفنون المتحررة وكان يطمح فى المراتب العليا ، لكنه لم يحظ بالمجد فجاء إلى روما ولم يحصل على أى

---

(١) نشرت كراسة جيوم الطرابلسى لأول مرة على يد هانز فرانتس فى ديوانه تاريخ ثقافة قريش مع دراسة حول « مفاهيم العصور الوسطى حول محمد ومذهبه ، انظر (ص ٢٣٧) .

شيء مما كان يطمح فيه فاشتد حنقه على الامبراطورية الرومانية وأراد أن يثأر لنفسه ببذر بذور الشقاق بين المسيحيين .

ولأنه كان يقرأ فى سفر باروخ (العهد القديم) أن ذرية هاجر (أم إسماعيل ابن إبراهيم) أى العرب سيكونون تافهين وشهوانين وليست لهم أى قوة مادية فإنه سافر إلى الجزيرة العربية حيث توجد ذرية هاجر . وقد وجد بين العرب شعباً حديث الدخول فى المسيحية فنزل بينهم وعاش فاسقا فى مكان منعزل وقد قابل الشاب محمد الذى كان يحرس الإبل وحينما رآه قوى البنية ذكيا علمه كثيراً من الأشياء وحين تأكد أن محمداً قد بهر به وعده أن يكون سيداً لمدينة تحتل مكاناً مرموقاً وطلب منه أن يطيعه فى كل شيء . ولما رضى الراهب عن محمد علمه وجعله خبيراً فى علم تحضير الأرواح وفى التنجيم كما علمه اللغات وبعد وقت قليل مات ملك تلك المنطقة دون أن يترك من يرث الملك فاشتد النزاع بين الشعب وكان الشباب يشكون من قوة القانون بينما رجع الشيوخ إلى الراهب ليحل لهم هذا الخلاف فأجابهم بأنهم يجب أن يعود إليه بعد ثمانية أيام ريثما يجد حلاً لهم وفى هذا الوقت اتفق مع محمد ورتب معه حيله اليمامة والثور الأبيض وعندما رجع الناس إلى بحيرى اقترح عليهم أن يختاروا للملك شخصاً يكون قادراً على إيقاف الثور الذى يجوب الجبال . وقد روض محمد الثور وكان الوحيد الذى استطاع ذلك ثم كشف للجمع المتعب الظمآن نتيجة مطاردة الثور عن عين ماء صاف وضعه فى القرب وأخفاه بعناية . وهكذا اختار هؤلاء الناس محمداً ليكون ملكاً عليهم ولما أصبح محمد ملكاً فرض على الناس قانونه وشريعته التى هى فى خدمة الله والشهوة حقاً وألف القرآن بمساعدة الراهب حيث كان مكتوباً على قرن الثور بينما كانت اليمامة التى روضها محمد قد جعل الناس يعتقدون أنها ملك يبدو أنه يكلمه فى أذنه .

فى هذه القصة لم يحدد (بيير باسكاسيو) اسم هذا الراهب ولكنه يذهب أبعد من ذلك حيث يقول : أنه اسم سرجيوس مذكوراً فى كتب المسلمين باعتباره مسيحياً وأحد صحابة محمد ولكنه لم يصفه بحدة الذكاء ولا بالمذهب الدينى ولكن فقط مدحه بالنزوع إلى قطع الطريق . وكان (سيرجيوس) هذا يعرف كل دروب الصحراء وعندما كان قطاعى الطرق يخرجون لطلعاتهم كانوا يلجأون إلى

حيلة حيث يخفى لهم فى الرمال بيض نعام مليئاً بالماء ويعطيه لهم ولإبلهم ليشربوا حين يظمأون .

وكان الناس الذين ينهبهم هؤلاء القطاع لا يتبعونهم على أمل أن يموتوا عطشاً فى قلب الصحراء ولكنهم حين يرون قطاع الطرق وقد عادوا سالمين غانمين يعتقدون أن فى الأمر معجزة مما زاد من صيت محمد ومذهب سلامة الروح والجسد الذى يدعو إليه . إذاً فحسب رأى باسكاسيو فإن سيرجيوس الذى يمكن أن يكون هو بحيرى لم يكن راهباً ولا ناسكاً ولكنه مخادع يقود عصابة من قطاع الطرق .

باختصار ، لقد ألف (بيير باسكاسيو) رواية استعار تفاصيلها من الأساطير السابقة التى ألفها الكتاب الأوربيون. وبرغم ادعائه أنه رجع إلى المصادر الإسلامية إلا أنه لا شىء يدل على أنه رجع إلى أى من تلك المصادر . وروايته تكشف عن خيال مضطرب مع أنه كان يعيش بين المسلمين وفى قلب مملكة غرناطة التى ظلت إسلامية حتى نهاية حكم المسلمين فى أسبانيا عام (١٤٩٢) . إنه لم يستفد إذاً من حياته فى بلد إسلامى ومعايشته لأيام المسلمين ووجود كل ألوان الكتب فى متناول يده وكذلك الوثائق كما كانت لديه الفرصة لمناقشة فقهاء المسلمين ليعرف الإسلام حق المعرفة أو حتى ليكون لديه فكرة عادلة إلى حد ما بدلاً من أن يحبس نفسه فى قلق من الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة عن الآخرين . وحتى فى أيامنا هذه لاحظت أنه ما تزال عند القساوسة فى بلاد الإسلام نفس آراء (بيير باسكاسيو) إبان القرن الثالث عشر .

والجديد فى تلك الأسطورة كما حكاها (بيير باسكاسيو) هى وصول سيرجيوس إلى روما وطموحاته فى تقلد منصب رفيع وهو أن يصبح مطرانا أو بابا. إذن فبحيرى (سيرجيوس لم يكن راهباً مسيحياً يعيش فى دير على الطريق من مكة إلى تيماء أو إلى سيناء ولكنه قسيس ذهب إلى روما ليتقلد منصباً كنسياً رفيعاً . ولما قوبل بالصدود وأحبط لأنه لم يحصل على شىء ثأر لنفسه برسم خطة لبذر الشقاق بين المسيحية .

٩ - ونفس الفكرة أعادها « تاما سوتو سكا » الذى كتب فى (١٤٨٨م) قصة يزعم أنه اقتبسها من كتاب وجده فى سكر ستيا (كنيسة فى بولونيا شمال إيطاليا).

ولا تختلف قصته عن قصة (بيير باسكاسيو) إلا حول بعض النقاط التفصيلية وبعض التفصيلات غير المهمة .

١٠ - ومنذ تلك اللحظة تعلقت الأسطورة بالراهب الذي جاء إلى روما ليتقلد منصباً دينياً رفيعاً ولما أخفق أصبح محرضاً على الانشقاق الذى قد يكون الإسلام. إذاً فالأسطورة تأخذ شكلاً جديداً حين جعلت من ذلك الراهب معلم محمد أو سيده ولكن محمداً بشخصه ليس مذكوراً فى تلك الأسطورة الجديدة ولكنه مذكور تحت اسم نيقولا المتحرر [١] . حيث نقرأ أن نيقولا ، الذى هو محمد ، كان واحداً من سبعة من شمامسة كاردينالا ، الكنيسة الرومانية ، وقد ألم بعلوم كثيرة ، وكان عارفاً لكل اللغات القديمة ، وكان البابا آنذاك هو الكاردينال لورنز ، وكان عجوزاً قد قارب على الموت فأرسل الكرادلة إلى نيقولا يطلبون منه القدوم إلى روما لتعيينه بابا بسبب قرب موت البابا الحالى ، ولما جاء نيقولا إلى روما ومثل أمام البابا دون إبداء الاحترام والتبجيل الواجب نحوه ، عند ذلك غضب عليه البابا وحدد إقامته ، ولكن نيقولا غضب وارتحل إلى جزيرة العرب وصمم على الانتقام من البابا والكنيسة بتأليف عقيدة جديدة يخرب بها المسيحية ويبشر بها بين العرب .

وأضاف مؤلف كتاب نيقولا بأن نيقولا (محمد) قتل على يد رجل يهودى يدعى (مرزوق) ، كان محمد يعشق زوجته التى كانت تدعى (كاروفا » وأن أتباع محمد قتلوا مرزوقاً وكاروفا انتقاماً منهما لقتلهما محمد .

ولقد أورد (بيير باسكاسيو) هذه القصة حين روى أن محمداً كان قد وقع فى حب امرأة يهودية واستطاعت هى وأهل ملتها من اليهود أن يقتلوه بعد أن دعته المرأة في ليلة إلى مخدعها ، وقامت هى وأهلها بقتله وبتر يده اليسرى والاحتفاظ بها وترك بقية جثته وليمة للخنازير .

انظر بأى هوس صاغ الكتاب الأوربيون فى القرن الثالث عشر هذه القصة الخيالية معتمدين على واقعة بسيطة مذكورة فى سيرة ابن هشام وهى أن يهودية

---

(١) مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس الوثائق اللاتينية ، تحت رقم (١٤٥٠٣) مكتوب فى القرن الرابع الميلادى .

تسمى زينب بنت الحارث زوج سالم بن مشكم من زعماء اليهود قد دست السم لمحمد حيث قدمت له كتف شاة مشوية حشتها بالسم القاتل الزعاف (انظر التفاصيل فى (ص١٣٥) وانظر ابن هشام ص ٧٦٤ ، ٧٦ ط . فستنفيلد): وهكذا أصبحت زينب « قاروفا » وأصبح سالم بن مشكم « مرزوق » : وبدلاً من ذكر محاولة سم محمد فى كتف شاة محشوة بالسم لم يظهر أثرها إلا بعد أربع سنوات تتحدث تلك الأسطورة عن اغتيال من قبل مجموعة من اليهود ثم تردفها بنهاية سافرة على طريقة الأساطير .

وهذا مثال طبق الأصل لعقلية الكتاب الأوربيين من مؤرخين وقساوسة وعلماء دين وشعراء !

هذه الأسطورة المتعلقة بالبابوية التى وعد بها ولم تتحقق ذكرها داكونيا (ص ٢٥٠) مع بعض التعديلات فى التفاصيل فمرة يذكرها مع اسم نيقولا ومرة بدونه ومرة يكون المطران الرسول مجرد ملهم لمحمد ومره أخرى يكون هو نفسه محمد وهذا سبب غموضاً كبيراً بين جموع الشعب فى أوربا . ويحدد داكونيا مثالين مأخوذين عن قصيدتين الأول عن « نيقولودو كاسولا » Nicolo de casola فى قصيدته Amla نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وكاتب القصيدة الشعبية «دوناتس » التى نظمت حوالى منتصف القرن الخامس عشر .

١١ - أمام هذه البلبلة من الأساطير حول محمد أحس « چاكون دوفاراجم » (١٢٣٠ - ١٢٨٧) بالتشويش فى كتابه « الأسطورة المقدسة » وقد اختار ثلاثة مواضع من التى كرسناها ليعلق عليها . ولكنه يحكى حادثه تسمم محمد بشكل أكثر دقه وتطابقا مع التاريخ لأنه يقول أن النبى مات من أثر سم كان قد وضع له فى لحم خروف منذ سنوات .

١٢ - وقد وصلنا الآن إلى كاتب آخر وهو برغم ما كان تحت تصرفه من وسائل المعرفة لم يخرج من نفس الأحكام العشوائية ومن نفس الأساطير ألا وهو «ريكادرو مونتكروس » وهو راهب دومانيكى مدافع عن المسيحية ورحالة كبير فى بلاد الإسلام ولد فى فلورنسا حوالى (١٢٤٣) ومات فى ٣١ أكتوبر (١٣٢٠) ، وقد أصبح مهتما بالدين منذ عام ١٢٦٧ وتعلم خلال عدة سنوات الفنون المتحررة فى بيزا من (١٢٨٧ - ١٢٧٢) ثم فى براتو (٨٩ - ١٢٨٧) ثم حل بفلورنسا . فى عهد البابا نيقولا الرابع بدأ رحلته إلى الشرق حيث جاب فلسطين (ومنها

أخذ اسمه دومونتكروس . ثم أرمينيا الصغرى فتركيا ثم إيران والعراق حيث حاول في الموصل أن يجمع بين اليعاقبة ثم في بغداد حاول أن يجمع النساطرة .

ثم قام بحوار مع المسلمين ، وبعد سقوط عكا آخر المدن التي كانت تحت سيطرة الصليبيين في ١٨ مايو (١٢٩١) هرب إلى بغداد ، وبعد عشر سنوات ذهب إلى فلورنسا في أكتوبر (١٣١٠) ، وقد حكى قصته في كتاب سماه « سفر الترحال»[١] ولكن الذي يهمنا هنا بشكل أكبر هو كتابه (نقد القرآن) الذي ألفه في فلورنسا (١٣٤٠) وهي السنة التي توفي فيها وقد ترجم هذا الكتاب إلى اليونانية ترجمة « سيدون » حوالي (١٣٦٠) ثم أعيدت ترجمته مرة ثانية إلى اللاتينية عن طريق « Picerno » (روما ١٥٠٦) وبرغم أن الأصل كان مكتوبا باللاتينية وأن هذه الترجمة المعادة ظهرت لها طبعات مختلفة منها طبعة « مؤلفات أباء الكنيسة اليونانية » حيث نجد الترجمة اليونانينة

بجوار الترجمة اللاتينية المعادة . وفي هذا الكتاب يزعم « ريكالدو » أن الملهم الحقيقي لمحمد هو الشيطان الذي نتيجة لحقده على انتصارات هيركليس البيزنطي على الفرس أعطى محمداً بعض اليهود وبعض النصارى الهراطقة ليعلموه حيث كان أميا ويحدد من بينهم أسماء محرفه مثل بحيرى الذي يذكر أن محمداً قتله فيما بعد وعبد الله بن سلام وبعض النساطرة الذين يعتقدون أن يسوع كان بشراً ولم يكن إلها وأنه ولد لمريم العذراء ، كما يحرف ريكالدو الحديث الوارد عن النبي ﷺ والذي يقول فيه أن القرآن نزل على سبعة أحرف إلى « نزل القرآن من سبعة رجال وأن هؤلاء الرجال هم ، نفل ، يُمن ، عمره ، اليسار ، أسير ابن سيثير ، وابن عمر وهذا تحريف لحديث القراءات السبعة .

١٣ - وهناك رواية أخرى لتلك الأسطورة عند « يعقوب الأكويني ت ١٣٣٧ وهو صاحب كتاب « صورة العالم » حيث يزعم أن كل عقيدة محمد مقتبسة من النصارى قائلاً : « كان هناك رجل دين مسيحي يدعى نيقولا ، أهين بشكل

---

(١) طبعة س . م لوان ضمن « رحلات العصور الوسطى » ليبزج ١٨٦١ ص « ١٠١ - ٤١ » انظر حول ريكالدو : محمد مانوومس « ريكالدو » حاج في الأرض المقدسة ورسول في الشرق » في المجله التوراتية (٢ - ١٨٩٣ ص ٤٤ - ٦١ ، ١٨٢ ، ٢٢٢ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧).

مشين من قبل كنيسة روما وتركها يائسا وصبأ عن المسيحية وذهب إلى ما وراء البحار ولأنه رجل حاذق وماكر فقد فكر فى أنه يمكن أن يحيا حياة جديرة بالاحترام .

فى الواقع أن نيقولا كان رجلاً مثقفاً وفصيحاً وبشوشاً وذا أخلاق دمثه ، وقد وصل إلى فارس وأخفى عن الناس قداسته وامتناعه عن كل الشهوات وعفته. وكان يسكن هذه المناطق مسيحيون ووثنيون . وكان الأولون متخلفون لأنهم لم يكن عندهم مبشرون بالمسيحية ولأنهم قد خرج من بينهم كثير من الهراطقة المرتدين . وقد وجد نيقولا المعونة من صاحبه الذى استطاع أن يسخره له الشيطان وهو تاجر وقائد إبل يسمى محمد كان يستطيع محادثة العالم كله من نصارى ويهود ووثنيين لأن مهمته تتطلب ذلك . وكان ذا ذكاء حاد وكان متعلماً ويعرف عادات أهل تلك المناطـق . وقد تحالف نيقولا رجل الدين مع محمد ثم تحالفا مع رجل آخر يدعى « سيرجيوس » الذى كان راهبا مسيحياً وقد توصلوا إلى تأليف شريعة جديدة مضادة للمسيحية حيث نعموا بحياة بهيجه ودعوا أولاً الغجر وأهالى الجبال المتخلفين قائلين لهم : « لا نريد أن يقال عنكم أنكم غجر أى أولاد الجارية » هاجر ، ولكن سارين أبناء سارة . ولأن محمداً كان ذا هيبة مما حدا بصاحبيه أن يسمياه « نبى الله ، وهكذا دعاه البدو ساكنى الجبال . ولذلك اخترع خدعة اليمامة . ولقد حاول محمد التودد إلى اليهود والنصارى حين مدح شريعتهم ووضعها على قدم المساواة مع شريعته . وينهى يعقوب الأكوينى حكايته حين يقص كيف مات محمد مسموماً وكيف حمل على سفينة معلقه فى الهواء[1] .

وقد انتشرت تلك الأسطورة الأخيرة بشكل واسع بين الأوربين حتى القرن الثامن عشر . ويقول « بايل » فى كتابه « القاموس التاريخى والنقدى » مقال : «محمد » مج ٣ ص ١٨٦١ ، سوتردام - ١٧٢٠ ، يقول عن هذا الموضوع : «إن هناك عدداً لا يحصى من الناس يعتقدون أن نعش محمد كان من حديد وأن هذا أحدث معجزة كبرى فى نفوس أتباعه ، فإن هذه الأسطورة أضحكتهم عندما علموا أن النصارى يحكونها على أنها حدث مؤكد » .

---

(١) أحداث وحوليات صورة العالم ، نشر فى : مونوم هست . مج ٣ ص ١٤٥٨ ، وقد ترجمنا الملخص الذى نشره أكونيا ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

بعد هذا العرض التاريخى ، يلخص داكونا هذا الخلط الكبير الذى وقع فيه الأوربيون لمدة أكثر من أربعة قرون حيث يقول : « فى الواقع إن السيد محمد ومستشاره يأخذ أحياناً شخصية بحيرى ومرة أخرى شخصية ورقة بن نوفل فى الأسطورة الإسلامية ومرة يبدو مؤمناً مدافعاً عن المسيحية ومرة أخرى هرطقى أريانى أو يعقوبى أو نسطورى حسب الرواية ، وهو يعمل ليستجدى عطف أتباعه الذين أبعدوه ، وحسب رواية أخرى يعمل على الثأر لنفسه ، كما أنه دائماً راهب، أو بطريرك أو كاردينال : أما اسمه فهو بحيرى أو سيرجيوس . كما أن محمداً نفسه يقدم لنا مرة على أنه وثن ومرة أخرى على أنه مسيحى يدعى أوكين، أو بلاجيوس أو نيقولا . وهو ساحر ، وأمى وعالم فى بولونيا : وقد جاء من القسطنطينية ، أو من أنطاكية أو من أزمير ، أو من مناطق وثنية أخرى أو مناطق مسيحية ، وهو مرة عربى، ومرة أسبانى ، ومرة أخرى رومانى من عائلة كولونا، ومرة يختلط اسمه باسم معلمه ، ومرة يكون هو الراهب أو المطران الذى كان على وشك أن يصبح بابا عند آخر الكتاب الذين ذكرناهم (يعقوب الأكوينى) والذى يبدو أنه

يريد أن يتعامل مع القضية بشكل اكليروس . وقد ناقشنا هذا الثالوث نيقولا ، وسيرجيوس ، ومحمد ، وقد يأتون أحيانا أربعة، وسنرى أيضاً بعض الاختلافات وبعض الخلط وبعض التداخلات لمختلف الأساطير فى بعضها البعض . ومن أسطورة لأخرى تتغير الأسماء والأحداث : ويظهر الفن الشعبى والتقاليد الشفوية بقوة فى الروايات مما يعكس الاضطراب فى العقليات ، وفى خضم هذا التنوع فإن ما يبدو ثابتاً ومؤكداً هو : أن محمداً هو إما مسيحى أو متعلم على يد مسيحى وأن الإسلام ما هو إلا تشعب هرطيقى عن المسيحية (١) .

ويلاحظ داكونا أخيراً أن هذه الأسماء الثلاثة : سرجيوس ونيقولا وبلاجوس هى الأسماء الحقيقية لأشخاص ثلاثة هراطقة والذين تنطبق سلوكياتهم على التمرد والإنشقاق : سيرجيوس على وجه الخصوص كان زعيم الموحدين ومنتحل يثير الإعجاب (عام ٦٣٢) . وكان يعيش فى زمن محمد بشكل جعل كتب

---

(١) اليساندرا داكونا « أسطورة محمد فى الغرب ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ فى « الجريدة التاريخية للأدب الإيطالى » مج ١٣ (١٨٨٩) .

التاريخ وذاكرة البشر تجمع بين كل منهما وتتشكك من منهما أضر بالامبراطور البيزنطى ومن أعطى نصائح خاطئة لمحمد . ومن هنا حدث الخلط بين بطريرك القسطنطينيه المسمى سيرجيوس والراهب الغامض بحيرى .

أما عن نيقولا ، فإنه نيقولا الإنطاكى المذكور فى « وقائع الحواريين » فى (العهد الجديد ٦ ، ٥) الذى انتخب واحداً ضمن السبعة نواب للكنيسة الأم والذى من اسمه اشتقت كلمة الهرطقة النقولاية التى تعتمد على نوع من الطمأنينة والتى بواسطتها يمكن إعادة نوع من الشفاء الحر لعواطف الحواس . ويشرح رينان فى تنقيحه لمقال داكونا هكذا عن اختيار نيقولا بقوله : « لا شىء يثيب أن نيقولاسيو سفر الرؤيا عند يوحنا كان لهم أب هو النائب نيقولاس المذكور فى وقائع الحواريين بل إن كل شىء يحمل على الاعتقاد بعكس ذلك وهو أن نيقولاسيو سفر الرؤيا هم تلامذة المغرى المسمى « بعلام » و (نيقولا هو الترجمة الإغريقية لكلمة بعلام) ويعتبرهم اليهودى المتطرف كاتب سفر الرؤيا تلاميذ القديس بولس والذين علمهم معلمهم بعلام الجديد « أن ينتهكوا قوانين الله ، ومهما يكن من أمر فإن أسطورة نيقولا والنيقولين أصحبت منذ القديس أربينا إحدى أسس اللغة الكنسيه . حيث كان نيقولا وهو أكبر الهراطقة وأبا الهرطقة وهو فى النهاية الاسم الدقيق الذى يدل على الانفصال الذى قسم العالم إلى عدوين مسلحين وكذلك كان نيقولاس كنية تدل على مؤسس العقيدة الإسلامية . كما استخدمت ضد محمد وأصحابه ترسانة من الشتائم فقدت معناها مع سخريتها اللاذعة .

أما الاسم الثالث وهو « بلاجوس » ، فإن داكونا يعترف بأنه لم يتمكن من الكشف عن أصله ولا قضية هذا التحول الخطير من بلاجوس إلى محمد .

وفى ختام مقاله ، يقرر داكونا أن الشكل الأول هو الشكل البدائى للأسطورة الغربية والمسيحية عن محمد والتى يجب أن تبحث فى إطار رواية السير العربية وخاصة محمد النبى الشاب (محمد) محمد بحيرى وكذلك فى السير الخاصة بورقة بن نوفل ودوره فى الإصلاح الدينى الذى قاده محمد . وقد انتشرت تلك الأسطورة التى تميز فيها الراهب المسيحى نصير الهرطقة النسطورية شيئاً فشيئاً فى الشام وفى أسيا الصغرى وفى الامبراطورية البيزنطية حتى دخلت المناطق الغربية

حيث أكدها كتاب Disputatio وهى أسطورة ذات أصل إسلامى وقد رويت عن مصادر متعددة وبطرق مختلفة ولذلك فإن المسيحيين الذين يعتقدون أن لديهم وحدهم العقيدة الصحيحة والذين كان يحكى لهم أن هذا الراهب الهرطقى قد ساهم فى ميلاد الإسلام بحيث كان لا بد أن يعتبروا الإسلام ليس كدين جديد ولكن كانشقاق جديد عن المسيحية وأن يطلقوا عليه أنه إغراءات شيطانية وبواعث بشرية لأطماع نهمة وغرور لا حدود له. ولكن التغير الأكثر اعتباراً والأكثر غرابة هو الانتقال من دير شرقى حيث يتصارع الرهبان ذوى الحذق الدينى وحيث طرد ذلك الراهب الذى سيكون مستشار محمد ، للأنتقال من ذلك الدير إلى روما فى قلب المسيحية حيث الصراع بين كل ألوان الفطرة وفى نفس الوقت كل ألوان البؤس البشرى . وقد تحول ذلك الراهب الذى ظهر فى بعض الروايات كمطالب ببطريركية القدس أو الاسكندرية إلى مطران كنسى يطمع فيما هو أعلى من ذلك يطمع فى النيافة السامية ويكون على وشك الوصول إليها . وهكذا لم يعد الإسلام قد ظهر نتيجة صراع بين الرهبان فى أديرة الشام ولكن فى عقر دار المسيحية فى روما ، نتيجة لما قام به ذلك الطموح الذى كان يريد أن يكون مرشد وبابا المؤمنين بيسوع المسيح وربما كان فى هذا الأصل الرومانى والبابوى للإسلام بعض رائحة المكر السياسى والدينى وربما يكون الأمر أبعد من ذلك فشكل هذه الأسطورة يرجع إلى وقت مجد وهيمنة الشرق وكنائس أورشليم وإنطاكية والاسكندرية سواء على المستوى الروحى أو الزمنى . . ولم يكن هناك حدث مهم فى تاريخ المسيحية أو العالم يمكن أن يتصور عدم مشاركة روما فيه ، ونتيجة لذلك كانت روما هى فى الشكل الرئيسى للأسطورة الوطن الفاعل والمتبنى لمحمد وكانت الامبراطورية الرومانية إلى حد ما هى مهد الهرطقة الجديدة (١) .

ومع داكونا وصلنا إلى القرن الرابع عشر لنواصل بحثنا إذاً حول أسطورة محمد فى أوربا .

١٤ - لا نجد فى القرن الخامس عشر شيئاً جديداً فيما يتعلق بتلك الأسطورة .

---

(١) اليساندرو داكونا - أسطورة محمد فى الغرب ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

وقد تعرض كتاب « نيقولا دى كوزا ت ١٤٦٤ (غربلة القرآن) [(١)] لتفنيد بعض قضايا القرآن حيث ادعى أنه وجد بعض المتناقضات ، ولكنه لم يقل شيئاً عن حياة محمد بشكل مباشر .

١٥ - وفى القرن السادس عشر ، نجد بداية نشرة صغيرة طبعت حوالى (١٥١٥) حسب تخمين س ، ف بركنهام [(٢)] الذى عرضه حسب النسخة الموجودة فى المكتبه البريطانية . وهذه النشرة بدون عنوان وهى مكونة من ست صفحات نقرأ فى أولها « ابدأ هذه المقالة عن شريعة الأتراك المسماة القرآن ، ثم تكلم عن محمد مناجى الأرواح ، ويغطى النص حوالى خمس صفحات حيث يقول (وهكذا فإن القرآن الذى هو شريعة الأتراك قد ألفه محمد الكاذب مناجى الأرواح ، وطبع فى لندن حسب نصيحة السماء . . .) وفى الواقع ليس هذا تلخيصا للقرآن ولكنه نشره ضد الإسلام وحياة محمد ، لنرى معاً ترجمة ما يقوله عن حياة محمد .

« لقد ولد محمد هذا فى الجزيرة العربية ، وكان فى البداية لصاً وقائد إبل فى بلاد الامبراطورية وسافر كثيراً بعد ذلك ووصل إلى مصر بصحبة تاجر مسيحى وقد كانت مصر مسيحية فى ذلك الوقت وكانت هناك كنيسة صغيرة في الجزيرة العربية حيث يعيش راهب واحد ، وعندما دخل محمد الدير الذى لم يكن سوى منزل صغير ذا باب منخفض وعندئذ بدأ الباب يتسع وأصبح أكبر من باب القصر وعندئذ قال المسلمون أن هذه كانت أول معجزة لمحمد فى شبابه . وبعد ذلك أصبح محمد ساحراً حقيقياً فيما بعد وكان منجماً عظيماً وكان يقول أنه حارس ذهب أمراء قريظه ، وكان يحرسه بعناية وعندما مات أمير قريظه تزوج محمد أرملته والتى كانت تسمى خديجة . وقد أصبح هذا الكاذب محمد مريضا بالصرع وذلك لأن الملك جبريل كلمه ولذلك خر مغشياً عليه نتيجة لنور جبريل الرهيب .

---

(١) نيقولاس ، وكويس ، الأعمال الكاملة ، ط بال ١٥٦٥ بعناية هذى برتى (ص ٨٧٩) إلى (٩٣٢) .

(٢) انظر : مقاله « سوء فهم الإسلام ضمن مجلد مخصص للمقارنة بين الإسلام والمسيحية ، فاروريوم ، برنتس ، لندن ١٩٨٣ ، والنسخة الأصلية الموجودة بالمتحف البريطانى وتحمل رقم (٢٥١٣) مج ٦ بدون ترقيم .

وقد حكم هذا التاجر الجزيرة العربية فى عام ٦٢٠ من ميلاد السيد المسيح وكان من ذرية إسماعيل الذى كان بدوره ابنا لإبراهيم من جاريته هاجر .

ولذلك فإن العرب يسمون أنفسهم الاسماعيليين وأبناء هاجر ، وكان بعضهم يسمى المؤابين والبعض الآخر يسمى العمونين نسبة لابن لوط . وقد تحالف هذا الكاذب محمد مع رجل تقى كان يعيش راهبا فى دير على بعد ميل من طور سيناء . ولأن الناس كان من عادتهم أن يذهبوا من الجزيرة العربية إلى كالداس Caldas وكانت الرحلة تستغرق يوماً بمحاذاة البحر حين كان التجار يصلون من البندقية وقد جاء محمد أحيانا إلى تلك الصومعة مما أثار حفيظة أصحابه واستفزهم ، لأنه كان يطرب لسماع هذا الراهب الداعية تاركاً قومه يمشون طوال الليل ، ولذلك أراد قومه أن يموت هذا الراهب . وقد حدث ذات ليلة أن شرب محمد كثيراً وغط فى نوم عميق فأخذ أصحابه سيفه من جرابه بينما كان يغط هو فى نوم عميق وقتلوا الراهب بذلك انسيف ثم أعادوا السيف مخضباً بالدماء إلى جرابه . وفى الصباح حين اكتشف محمد موت الراهب غضب وكان على وشك قتل رجاله . ولكنهم كانوا قد اتفقوا على أن محمداً هو نفسه الذى قتل الراهب بينما كان ثملاً . ثم توسلوا إلى محمد أن ينظر إلى سيفه الذى كان مخضباً بالدم. وحينما رأى محمد السيف تأكد من صدق قولهم . وكانت هذه ثانى معجزة يفعلها محمد ، وقد لعن الخمر ومن يشربونها . وهذا يفسر أن المسلمين لا يجرؤن على معاقره الخمر ولكن ابعض منهم يشربها خلسه كما أنهم يتعاطون أشربة جيدة ومغذية مصنوعة من الأعشاب ، والسكر . وقد حدث أن أصبح بعض المسيحيين مسلمين إما بسبب الفقر أو نتيجة لضلالهم وعندما كانوا يتنكرون لعقيدة المسيحية كان المسلمون يعلمونهم عقائدهم الفاسدة ويأمرونهم عندما يستقبلونهم أن يقولوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » (١) .

هذه الوثيقة تردد إذاً ما كان يقوله « جيوم الطرابلسى » فيما يتعلق بالعلاقة بين محمد وبحيرى الراهب ولكنها تضيف قضية ذهب أمراء قريظة .

---

(١) انظر : أصل هذا النص فى مقال س . ف ، باكنجهام ص (٨ ٢ ، ٩ ٢) من المقال المنشور للمرة الأولى فى جريدة الجمعية الملكية للفنون (١٢٤) سبتمبر (١٩٧٦) ، وهذا مقال موضوعى فى مجمله عدا ما يقوله وليم موير

١٦ - تيودور ببلياندر (١٥٠٤ أو ١٥٠٩ - ١٥٦٤) وهو مستشرق سويسرى كان يعرف العبرية والسريانية والعربية وقد نشر الترجمة اللاتينية للقرآن المكتوبة فى ١١٤٣ بأمر بير رئيس المحفل الماسونى وأضاف إليها ثلاثة كتيبات أحدها بعنوان Praemonidio وكان مكتوبا بخط « مالنشتون » تلميذ « مارتن لوثر » ولكنه أحيانا ينسب للوثر نفسه وكان عنوان طبعه بلياندر هو :

« المحمديون - المسلمون - خلفاء محمد ، مذهبه ، القرآن . . . وهكذا » وقد نشر هذا الكتاب فى عام (١٥٤٣) وتوجد منه نسخة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 0291 : 10 وثلاثة نسخ بالمتحف البريطانى . وقد ظهرت منه طبعة ثانية في بازل سنة (١٥٥٠) ويوجد منها ٤ نسخ فى المكتبة الوطنية بباريس، حفظ (١٦٥ ، ١٦٥٨ 29 O 101 ، وحفظ 29 O ٤٩٤ وكذلك نسخة بالمتحف البريطانى برقم (٦٩٦ ، ١ ، ١٠) .

وقد كان ببلياندر عالم دين بروتستانت . وكان خليفة « تسفنجلى » المصلح الدينى السويسرى الكبير حيث عمل أستاذاً لتدريس العهد القديم فى زيورخ . وكان نشره لترجمة القرآن التى ذكرناها آنفاً قد سبب له بعض المتاعب من جانب المجلس البلدى فى بازل . ولكن « لوثر » وعلماء اللاهوت فى زيورخ وشترا سبورج ساندوه فى هذا الصراع . وقد دعا لأمراء الألمان والإنجليز إلى طرد المسيح الدجال من روما ويقصد به البابا ، كما دعا إلى حياديه الدعاية لهذا البابا أى بمعنى إرسال دعاة كالفانيين إلى اليهود والمسلمين . وبعد وقت قصير نوى هو بنفسه أن يسافر كمبشر ولكن « بالنجر نجح فى إثنائه عن عزمه - وكانت أفكاره عن الدعاية البروتستانتية لدى غير المسيحيين قد تبلورت فى مقاله الافتتاحى (١٥٣٢). Oratio Ad Enarrationem Esajaec وفيه يشرح رأيه من خلال ملاحظاته عن الإسلام وحياة محمد فى ذلك الجزء الذى ذكرناه والذى يحتوى على ترجمة القرآن إلى اللاتينية . ولأنه كان على أى حال عالماً جاداً يعرف العربية ولو بدون إتقان كما لاحظ « يوهان فك » فإن بلياندر لم يسقط فى الأساطير المضحكه التى اخترعها أسلافه الأوربيون .

١٧ - ونصل الآن إلى القرن السابع عشر .

ونبدأ بإلقاء الضوء على فرية مضحكة مخترعة : وعلى الأقل مكررة من قبل

«فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦)، وهو داعية المذهب التجريبى الشهير . وهو يحكى فى أحد مقالاته والمسمى « الخدعة » يحكى مثلاً أن محمداً قال للعرب ذات يوم أنه يستطيع أن ينادى الجبل ليأتى إليه . وقد كان الجبل بعيداً ، ولكن بعد أن ناده محمداً لم يأت ولم يتحرك وهنا قال محمد لهم : « إذا كان الجبل لم يأت إلى محمد فإن محمد سيذهب إلى الجبل » وإننى أتساءل كيف يمكن لرجل يدعى أنه يقيم أسس المنهج التجريبى وقواعده أن يعتقد فى حقيقة تلك الفرية المختلقة! وللأسف فإن بعض السفهاء يرددون تلك الأسطورة حتى يومنا هذا.

١٨ - هوجو دوجروت (وهو باللاتينية ادوجروتيوس) وهو الكاتب الشهير للرسالة المسماة (قانون الحرب والسلام) ، امستردام (١٦٣٠) ، وقد كتب أيضاً « رسالة عن حقيقة الدين المسيحى » باللاتينية وقد ظهرت عام (١٦٢٧) ، وقد حاول فى الكتاب السابع أن يدحض الإسلام ويثبت « تميز الدين المسيحى على دين محمد » على حد قوله . وما يهمنا هنا هو التصور الخاطىء الذى يبدو لديه عن الإسلام وعن محمد ، وهذا أهم ما قاله فى هذا الصدد :

١ - يزعم أن محمداً قال . « أنه جاء ليتبعه الناس ليس بسلطان معجزاته ولكن بقوة جحافله [(١)] (ص ٢٩٦) .

٢ - من بين المعجزات التى يلحقها أتباع محمد به ، يزعم أن محمداً روض حمامة لتطير إلى أذنه (السابق) كما يقول جروت أيضاً « وقد روى أنه كان على اتصال دائم ببعير فى الليل » ومعجزه أخرى ، يقول أتباعه : أن جزءاً من القمر خسف بشكل معجز ، ثم أعاده محمد إلى استدارته الكاملة (السابق) .

٣ - إذا كان محمد قد حاز الشهرة فإنه ، كما يقول جروت - قد اشتهر بسرقاته واغتصاباته وفواحشه (ص ٢٩٥) .

٤ - يزعم أن محمداً يقول أن « امرأة حبتها الطبيعة بميزات تسمع - نشيداً رائعاً يعلمها سراً معجزاً عن الصعود إلى السماء والنزول منها ، وأن هذه المرأة

---

(١) رسالة عن حقيقة الدين المسيحى مترجمة عن اللاتينية ، تأليف جروفيوس ، مع تعليقات ، الترجمة الفرنسية - باريس (١٧٢٤) ، وهذه هى الطبعة التى أشرنا إليها ، وقد ترجم الكتاب إلى ثلاث عشرة لغة ومنها ترجمة إلى العربية ترجمها « بوكوك »

حين سمعت كلمات هذا النشيد أرادت أن تبوح بما تعلمته فطارت رأسها إلى السماء وأوقفها الله وحولها إلى نجم وأنها هى نفسها « فينوس » ربة الجمال ، كما يزعم جروت أيضاً أن محمداً يقول : « أن فأراً ولد فى سفينة نوح من أنثى الفيل وأن هراً ولد من نفحة أسد » (ص ٣٠٥) .

٥ - كما يزعم أن القرآن يقول : « أن الموت سيتحول إلى حمل سيختار مكان إقامته بين السماء والأرض (ص ٢٣٠٩) .

٦ - كما يصف دين محمد هكذا « إن هذا الدين لم يأت إلا ليخضب الأرض بدماء مخالفيه ، وأنه دين خارجى ، قائم على عدد كبير من الطقوس ، كما أنه يفرض على الناس إتباعه ، كما يجب الخضوع له بطاعة عمياء ودون مناقشة . وأن الكتب التى تحتوى على الإسلام هى كتب مقدسة . وقراءتها محرمة على الشعب ، وهذا التحريم ليس عادلاً كما أنه يصيب بالشك المبرر فى أنه يخفى نظاماً متعسفاً يمكن أن تكشفه القراءة فى كتبه » (ص ٢٨٩) .

وهذه هى بعض الأكاذيب المضحكة التى ساقها هذا الرجل الذى يعد من أعظم العقليات فى أوربا وقد مدحه « ليبنى » فى كتابه « المذهب الذى لا يقارن » ، وكذلك « ببير بايل » فى كتابه « القاموس التاريخى والنقدى » وقد رأى فيه واحداً من أعظم الرجال فى أوربا » كما مدح آخرون أعماله القانونية التى غيرت لفترة طويلة القانون الدولى كما يقولون : لنفند بدورنا هذا الإدعاء « بتفنيد ودحض الإسلام » :

أولاً - فى أى قرآن قرأ هرجو جروت أن الموت سيتحول إلى حمل يختار مكانه بين السماء والأرض ، مع أن القرآن كان قد ترجم إلى اللاتينية منذ القرن الثانى عشر ولا يوجد شىء من ذلك فى الترجمة اللاتينية . إذاً لقد كان جروت كاذباً كبيراً ورجلاً مجرداً من أى ضمير علمى .

ثانياً - بأى هلوسة يلوم جروت على الإسلام ما هو لوم على المسيحية الكاثوليكية ، وهو أن قراءة القرآن محرمة على المسلمين ، (ألا يعلم أن قراءة القرآن وحتى حفظه عن ظهر قلب مفروضة على كل مسلم ومسلمة) .

ثالثاً - إنه يردد آليا أسطورة اليمامة التى روضها محمد لتهدل عن أذنه حال الصرع .

رابعاً – أنه يرث أكاذيب أسلافه حين يخترع أساطير أخرى : مثل أسطورة البعير الذى كان محمد معتاداً على محادثته ، والقمر الذى سقط جزء منه فى يد محمد ثم أرسله محمد « ليعيد القمر إلى استدارته » ونخص بالذكر أسطورة المرأة التى انتقلت إلى السماء ثم أوقفها الله لتصير نجماً هو فينوس .

أما عن القول بأن « هوجو دوجروت » هو أحد أعظم الناس فى أوربا » فهو أعظم من وصل إلى الغباء المطلق أو الخيانة العلمية المطلقة ، ولذلك يجب أن تقلب الأحكام التقريظية الصادرة فى حقه إلى النقيض . وإذا بحث أحد له عن عذر قائلاً أن المعرفة بالإسلام لم تكن مجال دراسته فإننى سأرد عليه بقولى : «لماذا إذن يهاجم الإسلام إذا كان لا يعلم عنه شيئاً » ؟

لأنه لا يمكن لأى شخص أن يدحض شيئاً وهو يجهله تماماً .

١٩ – وندخل مع « يوهان هنريكوس » إلى حقبة جديدة فى الروايات المخصصة لمحمد والإسلام حيث سيكون اللجوء غالباً إلى المصادر الإسلامية ، وستكون وجهات نظر الكتاب أكثر مطابقة للأحداث التاريخية مع السماح بإتمام سباب محمد ودينه فى الموضوع .

وقد ألف « هوتنجر » كتاباً بعنوان « تاريخ الشرقيين والآثار الشرقية » (زيورخ، ١٦٥١ ، ٣٧٣ صفحة + إشارات فى ٢٦ صفحة) وهذا الكتاب يحتوى على ٦ فصول .

– **الفصل الأول** : عن دين محمد ومحمد ؛ أسلافه ، آبائه ، وطنه ، مسقط رأسه ، تربيته ، ما قبل بعثته ، أعدائه ، عقائده ، هجرته ، معاركه ، خلفاؤه ، موته .

– **الفصل الثانى** : السارينية ، أو دين العرب القدماء .

– **الفصل الثالث** : الكلدانية ، أو انحراف النبطيين ، والكلدانيين والحرانيين . الخ .

– **الفصل الرابع** : حالة النصارى واليهود فى زمن ومكان ظهور الإسلام .

– **الفصل الخامس** : الفرق الإسلامية المتعددة والمذاهب المختلفة بين المسلمين حسب العقائد الدينية وأنظمة الحكم .

- **الفصل السادس** : تاريخ البشرية من خلال الأعمال العربية ، سير وقصص حياة الأنبياء والبطارقة والرسل ومملكة فارس وأحداث أخرى من لدن آدم وحتى محمد .

وكما لاحظ « سنوك هورجنروج » فإن « هوتنجر » لم يعتقد أنه يمكنه نشر عرض للدين المحمدى دون أن يستعرض طويلاً فى مقدمته الظروف المخففة . وقد عد نفسه محظوظاً إذا استطاع أن يذكر الشخصيات المشهورة التى لم تكن تقصر فى إلقاء نظرة سريعة على موضوع كهذا . كما أنه أظهر الحاجة إلى تبرير أفعاله حين نسب نفسه إلى علماء عصره الذين شجعوه فى مشروعه . كما أن هوتنجر ذكر خطاباً آخر « ل - س - لامبريير » ، الأستاذ بجامعة ليدن وفيه وصف «برتنيجر» بأنه « أفسد دين المسيح » حين ساعد الشباب على التأمل فى دراساته حول دين المحمديين الذى كان حتى ذلك الحين يتم تناوله بشكل أخر . وكان لامبريير يأمل بصفة خاصة أن يستخلص من تلك الدراسات مهارة الكتابات المسيحية بفضل المعرفة الواسعة لعادات وتصرفات الشرق . كما كان « هو تنجر » نفسه قد حقق ليس فقط نجاحات تأويلية ولكن أيضا دفاعية وكذلك خاصة بالتاريخ العام . وقد تابع فى كتابه « تاريخ الشرق » غايتين أخرين وهما تاريخ الكاثوليك الرومان وصراعهم ضد البروتستانت محاولاً أحياناً التشكيك فى مذهب الإصلاح (البروتستانت) وذلك بمقارنته بمذهب المسلمين ، فكان يلوم البروتستانت واصفا إياهم بأن مذهبهم « مستعار من الإسلام » وذلك برد الحجة من باب الثأر للكاثوليك كما أنه كرس فصلاً كاملاً لتوضيح كيف أن الحج التى ساقها « بلا مان » للدفاع عن مذهب الكنيسة كانت صورة من المنظومة العقائدية الإسلامية ، وعلى صعيد آخر وبسبب علامات الزمن فإنه لم يرد أن يزيد مما قاله القدماء وقد ساهم « بيلياندر » بكتابه « دحض القرآن » فى مهاجمة « محمد الكاذب وحكم الأتراك » وقد كان اسم الترك فى ذلك الوقت فى أوربا يثير الرعب - وقد كانوا يعلمون ما يمثله الدين في الحفاظ على قوة الأتراك فى ذلك الوقت : وقد احتل الجانب السياسى اهتماماً كبيراً حيث كان محور الدائرة فى أعمال هوتنجر فجذب كثيراً من القراء . وعلى كل فإننا لا نجد فى ذلك العمل ولا حتى فى روايته عن محمد الخطوط العريضة لما يمكن أن نقول عنه ما قال عالم من أنه يعرض بجدية لمجال من الدراسة يعتبره أغلبية أقرانه عديم الفائدة أو ملىء

بالعبث . وفى كل مرة يتكلم فيها خاصة حين يجد نفسه مضطراً أن يقول كلاماً طيباً فى حق محمد وأتباعه فإن « هوتنجر » كان يحمى نفسه ضد العقبات التى يمكن أن تنتهى به إلى سلسلة من المضايقات والإهانات ولذلك فإنه لم يذكر اسم (النبى الكاذب) دون أن يضيف إليه سيلاً من التعبيرات اللاذعة . ويحدد «هوتنجر » أسماء بعض الذين سبقوه فى هذا المجال ومنهم :

- فى سويسرا : بالنجر ، وأو بورنيوس ، وجاست .
- فى ألمانيا : لوثر ، ميلانشتون شتيمنيوس ، وبوسر .
- فى بلچيكا : چيب ، فومتيوس ، أدبنيوس ، ولودفيكوس دوديو

ولكنه لم يذكر عنهم سوى أسمائهم بينما تحدث باستفاضة عن « هنيريكوس بالنجر » (١٥٠٤ - ١٥٧٥) الذى كتب كتاباً صغيراً عن دين الأتراك » و « أوز والد ميكونيوس » و « تيودور ببليباندر » و « جوالتروس » و « هوسبيننا نيوس » و« كلاوزروس » كما حدد من بين المعاصرين أسماء « هنيريكوس ألتنج» و « ليد» و « فريدريكوس سبانهمل » وقسطنطية الامبراطور .

الكتاب الأول

وفى الكتاب الأول يناقش « هوتنجر » فى الفصل الأول ما يلى .

أسماء المسلمين (وفيه يتحدث عن المؤمنين والمسلمين أهل القبلة وأهل السنة وأهل الكتاب وأمة محمد ثم الشرقيين والمهاجرين وأمة إسماعيل ، وكان يكتب هذه الأسماء بالعربية ولكن بسمات عبرية كما سيكون دأبه دائماً فى هذا الكتاب فى كل مرة يكتب فيها نصاً عربياً (انظر ص ١٩) .

٢ - ثم يتناول « أصل ومرادف اسم محمد وأحمد (ص ١٢٥) .

٣ - شجرة عائلة محمد ، وهذا فصل طويل من (ص ١٢) إلى (١٣٣)

٤ - آباء محمد (ص ١٣٤ - ١٣٧)

٥ - وطن محمد (ص ١٣٨ - ١٤٤) .

٦ - مسقط رأس محمد (١٤٥ - ١٥١) .

٧ - دين القرشيين والعرب القدامى قبل الإسلام (١٥١ - ١٦٢) .

٨ - دين الصابئة والبيزنطيين والعرب القدامى الآخرين (١٦٢ - ٢٠٣)

الكتاب الثانى

وها هى الفصول التى يحتويها هذا الكتاب :

١ - تربية محمد : ورحلته إلى الشام ، وظهور دعوته ، زواجه ، كتابه (ص ٢٠٤ - ٢١١) .

٢ - حالة النصارى واليهود فى جزيرة العرب زمن محمد (ص ٢١٢- ٢٣٨).

٣ - نبوة محمد المستعارة ، البداية ، المنهج ، المعتقدات ، الصحابة الأول ، الأعداء (ص ٢٣٩ - ٢٦٠) .

٤ - الهجرة (ص ٢٦٠ - ٢٧٣) .

٥ - أسباب بقاء الإسلام (ص ٢٧٤ - ٣٣٩) .

٦ - الآراء المختلفة ، والشعائر المنشقة والهرطقة عند المسلمين (ص ٣٤٠- ٣٧٣).

ويعتمد هوتنجر على المصادر العربية الآتية :

(أ) البيضاوى - تفسير القرآن .

(ب) الزمخشرى - تفسير القرآن .

(جـ) محمد بن أبى بكر - الأربعين حديثا النووية .

(د) كتاب الرسالة .

(هـ) أبى النصر بن عبد الرحمن .

(و) أحمد بن إدريس القرافى الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة .

(ز) ابن خلكان - وفيات الأعيان (ذكره ص ٣٤٢ - ٣ : ٣٥٢ ، ٣ (*)).

(ح) الميمونى - دلالات الحائرين (ذكر ص ٣٢٤ - ٦ : ٣٤٨ - ٩) .

(ط) أحمد بن عرب شاه : چاب المقدور فى تاريخ تيمور (ذكر ص ٣٥١).

(ى) محمد ابن إسحاق (ابن النديم) الفهرست ذكر (ص ٣٦١ ، ٣٦٣) .

(ك) القسعى (ص ٢٦٣) .

ولكن مرجعه الأصلى هو : كتاب المجموع المبارك « لمؤلفه » جرجس بن أبى اليسير ابن أبى المكارم المكين ابن العميد (ولد فى القاهرة ٦٠٢ هـ ١٢٠٥م) وتوفى فى دمشق (١٧٢ هـ - ١٢٧٣ .) وهو قبطى مصرى . وكتابه هذا تاريخ عالمى فى جزئين :

الأول - منذ بدء الخليقة وحتى عام (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م) . وقد نشر منه «هوتنجر» مقتطفات من الجزء الأول فى Smega Orientalis وقد ترجمه إلى اللاتينية ونشره « توماس اربنيوس » تحت عنوان « تاريخ العرب »

وقد ترجم :

- إلى الانجليزية ، ترجمه س بورتشاس Purchas لندن (١٦٢٦) .

- وترجمة إلى الفرنسية ، بير فاتيه Vattier تحت عنوان (التاريخ المحمدى أو تسع وأربعون سنة من الخلافة فى المدينة) باريس (١٦٥٧) .

ومع ذلك فإن « هوتنجر » يذكر النص العربى مباشرة (ولكن بسمات عبرية دائما) وقد يذكر أحيانا ترجمة « أربنيوس » اللاتينية وكما حدث مثلاً ص ٢٥).

ولم يستفد « هوتنجر » من كتاب جرجس المكين إلا فى الجزء التاريخى ولكنه استفاد أيضا فى الفصل الذى كرسه لما أسماه « الأراء المختلفة والملل والنحل عند المسلمين » (ص ٣٤٠ - ٣٧٣) .

ويذكر « هوتنجر » القرآن مشفوعاً بتفسير البيضاوى كثيراً وأحيانا مشفوعاً بتفسير الزمخشرى وذلك بصورة متكررة وبعد كل استشهاد يذكر الترجمة اللاتينية وهى صحيحة فى مجملها وبدافع من توفره على المصادر العربية فإن « هوتنجر » لمس للمرة الأولى حياة محمد وأعماله بروح جديدة .

١ - فقد تراجعت بشكل ملحوظ أسطورة محمد التي تكونت فى أوربا على مدار سبعة قرون ليحل محلها مفهوم أكثر تطابقاً مع الوقائع التاريخية .

٢ - مثلاً ، يكفى أن نذكر اللقاء بين بحيرى ومحمد حسبما يذكر أحمد بن إدريس حيث يورد « هوتنجر » كلامه بالعربية ويتبعه بترجمة لاتينية دون أدنى تعليق . ويذكر ما أورده أربينوس باللغة العربية (ص ٤٥) وهو أن محمداً لم يذهب مطلقاً إلى الشام وهذا عكس ما أثبته الكتاب الأوربيون وذلك يعنى أن

(*) انظر حول هذا الكتاب بروكلمان (١ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦) : جوردان : السيرة العالمية (١٣ ، ٤٢ ،) فستفيلد : التاريخ .. (ص ٣٥١) ، ويوجد من هذا الكتاب حوالى عشرة مخطوطات بالعربية أشار إليها بروكلمان (ص ٤٢٦) وسوبل (ص ٥٩٠) والصفحات مجرد مثال فقط .

هوتنجر لم يعر اهتماماً كبيراً لواقعة اللقاء بين بحيرى ومحمد والتى اتخذ منها الكتاب الأوربيون قاعدة لتلفيق كثير من الأساطير .

٣ - كما ناقش بالتفصيل المعجزات المسندة إلى محمد (ص ٢٩١ ، ٣٠٣) ولكنه قال فى نهاية هذا القسم أنه بالنسبة لمحمد ليس هناك معجزة سوى القرآن وهنا ساق من سورة الرعد قوله تعالى : ﴿ **قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً** ﴾ الرعد آيات ٣٠ - ٣١) ثم يسوق تفسير البيضاوى مصدراً به الآية . ويريد « هوتنجر » بذلك تحييد دور المعجزات المسندة إلى محمد من قبل الكتاب المسلمين . ويذكر من بينهم على الأخص « أحمد بن إدريس القرافى » (توفى فى جمادى الآخرة ٦٨٤ أغسطس ١٢٨٥) وهو صاحب كتاب شهير تحت عنوان « كتاب الأجوبة الفاخرة فى الرد على الأسئلة الفاجرة) وهو رد على كتاب بولس الراهب الذى كان مطراناً لكنيسة صيدا (لبنان) كتب فريتسن بعنوان (الإسلام والمسيحية فى الميزان (ص ٢٠ - ٢١) يصف كتاب القرافى بأنه «أفضل دفاع عن الإسلام وأنه يمتاز بوفرة مادته العلمية وآرائه النبيلة وعرضه الدقيق» (١) .

٤ - يبدو « هوتنجر » ذا نظرة علمية فيما يتعلق بالإسلام من منظور المسيحية واليهودية بالأخص . ومع ذلك . فإنه لم يستفد من تلك النظرة العلمية فى البحث فى الدعاوى التى يسوقها محمد ضد هذين الدينين كما سيفعله كتاب أوربيون آخرون فى القرن التاسع عشر .

٥ - والفصل الخامس من الكتاب الثانى (ص ٢٧٤ - ٣٣٩) فصل مثير للفضول ويستحق التحليل والدراسة العميقة المتخصصة . وعنوانه له « الأسباب التى أدت إلى بقاء الإسلام) وهو فى نفس الوقت دحض للأعمال الجدلية للكاردينال « بلامان » (١٥٤٢ - ١٦٢٢) ، وكان مطراناً وأحد أعظم علماء اللاهوت المدافعين عن المسيحية وباعتباره محاوراً فقد كان أحد العلماء المهرة المدافعين عن الكنيسة الرومانية وذلك فى كتابه (معجم أصول الدين الكاثوليكية)

---

(١) طبع على هامش كتاب « الفارق بين المخلوق والخالق » لسليم باشا غازاده ، القاهرة (١٣٢٢) انظر : بروكلمان . وذلك بالنسبة للمخطوطات المتعددة بمكتبات أوربا .

٢ ، ٥٦٠ ، وقد ألقى محاضرات بالمدرسة الرومانية من (١٥٧٦ إلى ١٥٨٨) ظهرت فى ٣ مجلدات أول مرة فى انجلوشتات (١٥٨٦ ، ١٥٩٣) ، ثم فى ثلاثة مجلدات فى (البندقية) ، وهو يدافع فى المجلد الأول عن القضايا الخطيرة التى كانت قضايا الساعة وقتها من سلطة البابا إلى الجانب الروحى والزمنى كما دخل فى كثير من المحاورات مع زعماء الإصلاح البروتستانت .

وكما فعل « بلامان » فإن « هوتنجر » أورد فى الفصل الخامس (الكتاب الثانى) مشيراً إلى أن الحجج التى ساقها « بلامان » ليدعم السلطة الزمنية كانت هى إن لم نقل أنها منتحلة من تلك التى ساقها المسلمون . وهو يعتمد بالأخص على الكتاب الذى ذكره « بلامان » المحاورة ، الكتاب الرابع ، الفصل الرابع ، وهذه هى أوجه الشبه التى كشف عنها بين البابا من جهة والإسلام من جهة ثانية:

١ - سلطة البابا شبيهة بسلطة الخلفاء المسلمين (أمراء المسلمين) .

٢ - البابا يعتمد على الآثار البابوية ليدعم مطالبته بالسلطة الزمنية ، ولكن كما يرد « هوتنجر » فإن المسلمين يستطيعون أن ينتصروا ليس فقط بالموروث ولكن أيضا بامتدادهم العظيم فى المعمورة .

٣ - والحجة الثالثة التى ساقها « بلامان » هى الاستمرارية غير المنقطعة «للبابويه». ويقول « هوتنجر » : إن الإسلام يمكن أن ينتصر أيضاً على هذه الحجة. لأنه يستمر دئماً وبلا انقطاع منذ ألف سنة .

٤ - والحجة الرابعة عند « بلامان » هى تعدد وتنوع المؤمنين ويرد « هوتنجر » أن للإسلام فى هذا الصدد رأى أكثر تقدماً من الكنيسة الكاثوليكية . وقد أسهب فى رأيه فى هذا الصدد . وهذه عينة من دحض المزاعم البابوية التى دافع عنها «بلارمان » وهو دحض قائم على مثال الإسلام . وهكذا ظهر الإسلام على يد بروتستانتى هو « هوتنجر » ليدين الكاثوليكية التى دافع عنها الكاردينال «بلارمان»، وهكذا يهدف « هوتنجر » إلى دحض الاتهامات التى ساقها الكاثوليك ضد البروتستانت وهى أن الإصلاح الذى قام به « مارتن لوثر » وأعوانه قد تأثر بالإسلام إن لم يكن هرطقه إسلامية داخل المسيحية نفسها [١] .

---

(١) ولد فى (١٦٤٨) فى بادستو، ضاحية كروموبل (فى انجلترا) وكان أستاذاً للعبرية =

٦ - وقد خصص الفصل السادس من الكتاب الثانى (ص ٣٤٠ - ٣٧٣) لدراسة :

(أ) المدارس الفقهية الخمسة - الأحناف - المالكية - الشافعية - الحنابلة والشمراخية والتى لم يذكر منها سوى اسمها .

وقد اقتبس معلوماته هنا من : ١ - المكين . ٢ - ابن خلكان .

(ب) الانشقاق بين العلماء الأتراك .

(جـ) الخلاف بين الفرس وبقية المسلمين . وهذا قسم كبير منصب على مذهب الشيعة (ص ٣٦٦ - ٣٧٣) .

(د) فيما يخص القسم المخصص للمذاهب الفقهية ، يعتمد اعتماداً أساسياً على كتاب موسى الميمونى « دلالات الحائرين » (الجزء الأول ، الفصل ٧١) وتاريخ المكين .

ويكفى هنا الحديث عن كتاب « هوتنجر » وقد بوأناه مكانا علميا يليق به لأنه يمثل تحولاً جذرياً فى الدراسات الأوربية عن محمد والإسلام بصفة عامة . ومنذ ظهور هذا الكتاب .

والكتاب الجادين عن الإسلام سيجدون من واجبهم الاطلاع على المصادر العربية إن أرادوا أن يظهروا أقل تطرفاً فى أحكامهم وسيفكرون قليلاً قبل أن يسوقوا الأساطير والأكاذيب التى لفقها أسلافهم البيزنطيون والأوربيون .

٢٠ - وأول الكتاب الذين ينبغى متابعة أعمالهم ولا سيما أنه يتبع المنهج الذى كان « هوتنجر » باكورته هو : « هامفرى بريدو » فى كتابه بعنوان (حسب الترجمة الفرنسية » « حياة محمد المخادع » وفيه جَمع كتابا عرباً وفرساً وعبريين وكاثوليك ويونانين ولاتين مع ملخص تاريخى يوضح العصر الذى ولدوا فيه وعاشوا وأصل وسمات كتاباتهم (باريس ١٦٩٩) ويصف المترجم الفرنسى (الذى لم يذكر اسمه لا فى صفحة العنوان ولا حتى فى نهاية المقدمة) الكاتب وهدفه بأنه « الدكتور بريدو ، العالم الكبير فى اللغات الشرقية وهو معروف سلفاً بطبعه

= فى الكنيسة المسيحية بأكسفورد ، توفى عام (١٧٢٤) ، وظهر كتابه « حياة محمد » أول الأمر بالانجليزية عام (١٦٩٧) .

المذكرات الغربية . وكان يهدف إلى هدفين مختلفين من وراء تأليف هذا العمل الأول هو القيام بعمل تاريخى دقيق للإسلام والطريقة التى تأسس بها فى العالم دون أن يخلط بهذا التأريخ أياً من الأشياء العاطفية أو الأحكام المسبقة التى انتشرت من قبل المشككين فى هذا المنهج . والثانى هو الاستفادة من ذلك بالوصول إلى غاية عاقلة ومسيحية وذلك بعرض قصة حياة ذلك الكاذب المسمى محمد بما يفيد ذلك الهدف الثانى وهو الحالة التى كان يوجد عليها الدين المسيحى فى انجلترا حيث التعددية الكريهة للآلهة والتى انتشرت لوقت طويل ولذلك كتب بنفس الاندفاع الذى كان عند كل من « سلز » و « بروفير » و « هيروكليس» وچوليان » والذين كانوا يعملون بترخيص من الأباطرة الوثنيين وتحت إمرتهم (ص ١ - ٣) .

ويقول المترجم أيضاً : « إن بريدو قد كتب حياة محمد بكثير من الدقة لم يسبقه إليها أحد فلقد ذكر كل الظروف التى تكتنف سلطة الكتاب من جميع الأمم وقد ذكر هذه الظروف على الهامش واعترف أن هذه الطريقة فى كتابة التاريخ لم تكن معروفة لدى الأغلبية الساحقة من القدماء ولكنها أضحت ضرورية فى هذا العصر حيث جهل وانعدام أمانة كثير من المؤرخين قد خدعت دوى النيات الحسنة من القراء الذين يمكن أن يطلبوا اليوم عن طيب خاطر ضماناً برجوازياً من أولئك الذين يدعون أنهم مؤرخون . ولم يحيد بريدو دقته على هذين الصعيدين فقط بل أنه أراد أن يمدها ويوسعها من أجل أولئك الذين سيقرأون كتابه حتى أنه عرفهم على عبقرية وشخصية المؤلفين الذين استفاد منهم فى حكايته وذلك بإعطائنا رسماً توضيحياً مختصراً عن كتاباتهم مع حكمة الشخص فى تصنيف ما يجب تصنيفه (ص ٦ - ٨) .

وهذه قائمة بكتاب العرب المذكورين عند بريدو

١- أبو فرج بن العبرى : تاريخ مختصر الدول - صدر فى إكسفورد (١٦٦٣) مع ط لاتينيه ألفها بوكوك .

٢ - أبو الفداء : مختصر تاريخ الأمم .

٣ - أبو نصر بن عبد الرحمن وقد ذكره هوتنجر كثيراً وقد كان أحد مؤلفى الأساطير عند العرب

٤ - أحمد بن إدريس القرافى : الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة .

٥ - أحمد بن يوسف ، مؤرخ من عصر الاضمحلال أنهى كتابة تاريخه عام (١٥٩٩) .

٦ - أحمد بن زين العابدين الأصفهانى ، وقد كتب يهاجم الدين المسيحى بهدف الدفاع عن الإسلام واحداً من كتبه الروحانية والدقيقة التى لم يكتب أحد بمثل طريقتها ، وقد كلفت أبرشية الدعاية الإيمانية فى روما بداية بونافتير البولندى وهو راهب فرنسيسكانى بكتابة رد على كتاب أحمد بن زين العابدين وقد كتب هذا الرد ونشره فى عام (١٦٢٨) ولكن لأن هذا الرد لم يكن كافياً فإن نفس الجمعية كلفت فليب جواد جنل (Guadagnol) وهو فرنسيسكانى أيضا بكتابة رد آخر فكتب كتابا بعنوان تقريظ الديانة المسيحية ظهر أولاً فى روما عام (١٦٣١) ثم ظهر بالعربية عام (١٦٣٧) وقد كانت معظم الحجج التى ساقها جواد جنل قائمة على سلطة البابوات والقناصل وهى سلطة لم يكن المسلمون يعرفونها وحتى « بريدو » يقول : ألم يكن من المخيف أن هذا العمل الجيد فى حد ذاته لم يلق النجاح الذى كان يؤمل من ورائه (انظر السابق ص ٢٧٣) .

٧ - البخارى : الصحيح ، وهو أقدم الكتب وأصح الكتب لدى المسلمين بعد القرآن » (ص ٢٧٣) جـ٤ .

٨ - الفرغانى ، عالم الفلك : كتاب « عناصر الفلك » وقد طبع مرات عديدة فى أوربا فى كل من نورمبرج عام (١٥٣٧) وفى باريس عام (١٥٤٦) وطبع فى فرنكفورت عام (١٥٩٠) مع ملاحظات « مكرست منس » وأخيراً فى ليدن عام (١٦٦٩) وبالعربية و اللاتينية طبعة جوليس ، انظر السابق (ص٢٧٥) .

٩ - أبو حامد الغزالى الطوسى : تهافت الفلاسفة .

١٠ - أبو محمد مصطفى بن السيد حسان الجنابى وقد امتد تاريخه إلى عام (١٥٨٨) .

١١ - الفيروزابادى : القاموس المحيط .

١٢ - القضاعى (أبو عبد الله محمد بن سلمة بن جعفر القضاعى) : مؤرخ .

١٣ - المسعودى : مروج الذهب .

١٤ - الإبشيهى : المستطرف (ويقول « بريدو » أن هذا اسم كتاب عربى ألفه كاتب يبدو أن هذا اسمه) .

١٥ - المطرزى : المغرب .

١٦ - الشمائل « وهو كتاب كان كل من « جان أندريه » « وجواد جنل » يذكرونه كثيراً » (ص ٢٨٢) .

١٧ - البيضاوى : تفسير القرآن (وأكثر ما هو جيد من تفسير فى هذا الكتاب مأخوذ عن الزمخشرى .

١٨ - القزوينى .

١٩ - « الحوار بين محمد وعبد الله بن سلام وقد كتب بالعربية ويحتوى على جانب كبير من المبالغات عن عقيدته فى شكل حوار بينه وبين هذا اليهودى وهوالوزير الأساسى لمحمد والمستشار له مع أكاذيبه وكان « هرمانوس دالاماتا » هو أول من ترجمه إلى اللاتينية وتبعه بطبعه القرآن باللاتينية كان ببلياندر كان قد نشرها فى القرن الماضى (انظر السابق ٢٨٣ - ٤) .

٢٠ - المكنين ، جرجيوس بن العميد : المجموع المبارك .

٢١ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد) : تاريخ (وتاريخه يبدأ من بدأ الخليقة وينتهى عام (١٢٣٠) .

٢٢ - ابن القسيع وهو مؤلف كتاب بعنوان تعريفات وهو مدونة لكثير من المصطلحات العربية التى تهم الفلاسفة والفقهاء وعلماء أصول الدين وكل العلماء العرب بصفة عامة (٢٨٦) .

ولكن كتاب التعريفات ليس لابن القسيع ولكنه لمحمد بن على الجرجانى .

٢٣ - ابن فارس وقد توفى عام (١٠٠٠) .

٢٤ - يوطشيوس : وهو مسيحى من الملكانيين كان يسمى فى لغته سعيد بن البطريق وقد أخذ أسم يوطشيوس حين أصبح بطريك للأسكندرية عام ٩٣٣ «وكانت حولياته عن كنيسة الأسكندرية قد نشرت فى إكسفورد عام (١٦٥٦) بالعربية واللاتينية تحت رعاية د/ بوكوك .

٢٥ - « الكتاب العربى الذى يتناول ميلاد ونشأة محمد وهو كتاب ساخر وعديم القيمة ومع ذلك فقد ترجم إلى اللاتينية من جانب هرمانوس دالاماتا وطبع مصحوباً بترجمة القرآن باللاتينية لبيلياندر » (ص ٢٩٠) .

٢٦ - « الكتاب المسمى الجغرافيا النوبية وهذا الكتاب يحمل اسم سبونيتا

وهسرونيتا اللذين نشراه باللاتينية مع ملحق جغرافى عام (١٦١٦) ولكن هذا العمل ليس إلا مختصراً من عمل كبير ورائع ألفه الشريف الإدريسى بناء على أمر روجر الثانى ملك صقلية ليساعد فى معرفة الخريطة التى كان هذا الأمير قد وضعها من الفضة وقد أنهى الكاتب هذا العمل عام (١١٥٣) وأسماه كتاب روجر (ص٢٩١) .

٢٧ - جرجس الراهب وكان آباً فى دير سان سيمون وقد كتب كتاباً يدافع فيه عن الدين المسيحى ضد المسلمين واستغل لنشره فرصة صراع مع ثلاثة من المسلمين كان أبرز محاوريه هو أبو سلامة بن سعد الموصلى .

٢٨ - الجوهرى : « وهو تركى المولد وهو مؤلف القاموس العربى الشهير المسمى الصحاح .

٢٩ - الجلالين : جلال الدين محمد بن أحمد المحلى (توفى ١٤٦٦) وجلال الدين عبد الرحمن السيوطى . ويرتكب « بريدو» هنا خطأ شنعياً حين يقول : «هذا الأخير هو أيضاً مؤلف تاريخ معروف بعنوان مزهر (ص ٢٩٣) ، لأن المزهر هو كتاب فى قواعد اللغة العربية وليس كتاب تاريخ ، ولكن للسيوطى كتاب فى التاريخ: هو حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - وتاريخ الخلفاء

٣٠ - الشهرستانى ، وهو كاتب مدرسى مسلم الديانة ولد فى شهرستان فى عام (١٠٧٤) وتوفى عام (١١٥٤) .

٣١ - صفى الدين : « وهو كاتب معجم جغرافى كتب بالعربية » .

٣٢ - الزمخشرى : الكشاف .

ولكن يجب أن نلاحظ أن « بريدو » لم يطلع بالضرورة على كل هذه الكتب فقد نجده فى مواضع أخرى يشعرنا - أنه لا يعرف بعض هذه الكتب أو المؤلفين إلا من خلال استشهادات يرويها عن كتاب آخرين حيث يقول مثلاً عند هوتنجر وهو ما يستخدمه كثيراً أو عند بوكوك : نموذج التاريخ العربى وهكذا .

أما عن الكتاب اليونانين فيذكر :

١ - بارتلوماش إديسنى Bartholomaci Edesseni وكتابه Condutatio Agaroni نشره لوموان وهو أستاذ فى جامعة ليدن ضمن منشوراته : Varia Sacra .

٢ - كتاب كنتا كوزين Cantacuzene. وهو يحتوى على ثمانية خطب. وقد كان كنتاكوزين امبراطوراً للقسطنطينية ولكنه تنازل عن العرش عام (١٣٥٥) ليوحنا باليولوجوس ابن زوجته واعتزل وترهبن فى أحد الأديرة . وفى هذا الدير ألف كتابه من أجل أحد أعضاء كنيسته ليرد به على سامباتس وهو فارسى من أصفهان .

٣ - سيدرينى (Cedreni) وكتابه . . التاريخ المجمل .

٤ - لغط محمد (Conjatatio Mohometis) : وهى مقالة يونانية لكاتب باسم مستعار وهو : لوهوان فى Varia Sacra .

٥ - تيوفانيس (Théophanes) : تاريخ وقائع الإمبراطورية الرومانية منذ عام (٢٨٥م) وحتى عام (٨٢٣م) ، وقد ولد فى القسطنطينية عام (٧٥٨) وتوفى عام (٨١٥) .

٦ - زونار « التاريخ » وهو يشمل منذ بدء الخليقة وحتى موت أليكس كوين «امبراطور القسطنطينية الذى توفى عام (١١١٨) .

وكتاب « بريدو » فيما يخص حياة محمد يعتبر أكثر تنقيحاً من كتاب «هوتنجر» لأنه محدود بحياة محمد بينما يشمل كتاب هوتنجر كثيراً من المجالات . ولكن « بريدو » وبدافع من هدفه الأساسى وهو مهاجمة الإسلام يعد أكثر موضوعية إلى حد ما من هوتنجر ، هذا إذا كان من الجائز أن تطلق الموضوعية على أعمال هذين الكاتبين ! وفى هذا الصدد يظهر أن هناك تراجعاً فى فهم الإسلام فى أوربا. وفى الواقع إن بريدو تطفح كتاباته بالأساطير والأكاذيب المثيرة للسخرية . ولنكشف بعضاً من هذه الأكاذيب .

(أ) أنه يحكى أشياء خيالية فيما يتعلق بالشاعر كعب بن زهير الذى نظم القصيدة الشهيرة التى تبدأ ببانت سعاد فيزعم أن كعب كان يهودياً والأدهى من ذلك أنه يقول : « ينسب البعض إلى كعب منذ صداقته بمحمد أنه ساعد أكثر من أى شخص آخر فى أكاذيب محمد وأنه ألف له القرآن الذى يتشابه مع فصاحة كعب ذلك اليهودى الملحد » . ومرجع « بريدو » فى ذلك كتاب « المكين » الكتاب الأول ، الفصل الأول ، لأبى الفرج ابن العبرى (ص ١٠٢) .

(ب) ثم يسلم « بريدو » نفسه إلى أسطورة أخرى متعلقة هذه المرة بعبد الله ابن سلام حيث يعتقد بما قاله الراهب ريشار فى كتابه « دحض شريعة محمد » الفصل ١٣ وهو أن محمداً كان جاهلاً فاستفاد من الوزير « عبد يابن سالون وهو يهودى فارس أخذ فى اللغة العربية اسمه عبد الله بن سلام (انظر السابق ص ٦٢) ويزعم أنه يبدو أنه الذى دار عنه حديث القرآن ثم يزعم بريدو أن عبد الله بن سلام هذا هو نفسه سلمان الفارسى الذى ذكره المكين ومن قبله البيضاوى فى معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ [النحل : ١٠٣] فى الحقيقة لقد قال البيضاوى إن الرجل الأعجمى الفارسى الذى تحدثت عنه الآية ، هو سلمان الفارسى وهكذا خلط بريدو بين سلمان الفارسى وعبد الله بن سلام وزركش القصة حتى تبدو رواية صحيحة (انظر ص ٦٣ إل ص ٦٦) .

(جـ) ونفس المبالغات والمهاترات تظهر فى كتاب « بريدو » فى معرض حديثه عن بحيرى (ص ٦٨ إلى ٧٠) حيث يقول هنا مثلاً أن محمداً استقبل بحيرى فى بيته بمكة بمظاهر الحفاوة التى لا يتخيلها إنسان وأعطاه كل ما يحتاجه من مؤن وزاد ثم فتك به بعد ذلك لأنه خاف أن يأتى يوم ويظهر سر لغز محمد وقد كان نجاحه يتوقف على هذا السر (ص ٦٩ - ٧٠)

وبالمقابل ، يحمل « بريدو » على القصص الساخرة « التى اخترعها أسلافه ليكتب حسب قولهم كذب محمد . وقد عد منها ما يلى : « الثور الذي علمه محمد ليحمل إليه القرآن على قرونه فى المحافل العامة ، وتلك الأسطورة الخاصة بالحمامه الخاصة التى اعتادت أن تقترب من أذنه وقصص أخرى مشابهة يقول : «أشعر بالخجل من ذكرها بينما لم يشك كل من « سكالجر » أو « سيوبيا » أو «جروتيوس » فى هذه الرواية التى تبدو لى أكثر سخرية من قصة الثور لا سيما بالنسبة لقوم دوى عقول دقيقة كما هى عادة العرب (ص ٧٢)

ويدين « بريدو » اللجوء إلى مثل تلك الأكاذيب التى وصفها بأنها « يتنازعها المسيحيون البسطاء ولكنهم متحمسون يجهلون حقيقة الحدث ولذلك يلجأون إلى الأكاذيب بدافع التقوى العمياء لأولئك الذين يبحثون عن أسلحة خيالية لمهاجمة عدوهم (ص ٧٣)

وهذه أول مرة نجد حكماً كهذا على الأكاذيب التى اختلقها الكتاب الأوربيون فى موضوع محمد . وسوف نجد صدى لذلك عند « بايل » كما سنرى فيما بعد.

وهناك سمة أخرى لكتاب « بريدو » وهى التى فتحت الطريق أمام محاولات من نفس النوع فى القرن التاسع عشر وهى البحث فى المقتبس من الأدب اليهودى والمسيحى ، فقد حكى مثلاً بكثير من التفصيل رحلة إسراء محمد وسماها « مسرى » (ص ٧٨ - ٧٩) ثم أورد الملاحظة التالية « هذه القصة هى تقليد لقصة مقتبسة من التلمود الذى علم منه عبد الله بن سلام جزءاً لمحمد وغير من طريقتها أثناء القص حتى يخفى المصدر الذى امتاح منه . فى الواقع أننا نقرأ أشياء مثل هذه فى التلمود البابليونى فى المقالة التى عنوانها « بافا بثرا » حيث هناك عصفور يسمى « نريج » كان يمشى على الأرض ومع ذلك يلمس الماء برأسه وكان بسبب امتداد جناحيه يتسبب فى كسوف القمر والشمس . والشرح الكلدانى على الإصحاح (٥ - ١١ و ٨٠ - ٤) تحدد اسم هذا العصفور حيث سمته «كوك» حيث قالت أن رأسه تسبح بحمد الله . وحتى شرح « جوب » يقول : أن هذا العصفور يغنى كل صباح فى حضرة الله الذى منحه حكمة رائعة ويمكننا أن نرى ما كتبه التلموديون فى حوالى الفصل الخمسين من ميثاق جمعية بوكستورف Boxtorf ، وفى الكتاب الثانى ، فصل ، من « حجج » برتشز Purches الشاعر الإنجليزى المشهور » .

وقد كان « بريدو » فى هذا المجال رائدا لإبراهام جايجر و « هير شفيلد » و «جولدتسيهر » و « سبير » وآخرون كثيرون سيكون أيضا رائداً لكثير من المستشرقين فى القرنين التاسع عشر والعشرين فيما يخص كثيراً من وقائع حياة محمد مثل : غزوة بنى قريظة التى انتهت بالسيف فى أعقاب غزوة الخندق (ص ١٧٧) واقعة زواج النبى بزينب بنت جحش (ص ٢٣١ - ٢٣٣) .

ومهما يكن من أمر فإن « بريدو » فى نهاية كتابه كان مضطراً حتى رغم أنفه وبمشاعر الأسى أن يعترف بالصفات السامية لمحمد وعظمة أعماله ، إنه يعترف أن محمداً طوال فترة بعثته النبوية « امتاز بشجاعته وفطنة عقله وعدم غروره بانتصاراته ، وبدرجة عالية من المجد مما أغراه بأن يكون له مكان بين أعظم الثوار الذين عرفهم العالم ، وقد أنشأ امبراطورية فى أربع وعشرين عاماً امتدت لتشمل

المناطق التى تحتلها الإمبراطورية الرومانية لمدة خمسمائة عام بل وأكثر منها وقد استمرت تلك المملكة الواسعة لقرون عديدة وهى فى أوج عظمتها . وقد رأينا ميلاد كثير من الإمبراطوريات والممالك الإسلامية التى لا تقارن بغيرها فى الامتداد والسيطرة لمدة طويلة . ولن أتحدث عن ممالك الترك والفرس والمغول وهذه الممالك يحفظها الله بعنايته بينما يعاق بالمصائب والفوضى المسيحية » .

رولاند « أول كاتب أوربى يكون عادلاً مع محمد » :

ولكن أول كاتب أوربى ينظر بعين العدل إلى محمد والإسلام كان « أدريان رولاند » المولود فى ١٧ يوليو (١٦٧٦) فى « دالكمار » شمال هولندا والمتوفى فى ٥ فبراير (١٧١٨) فى الثانية والأربعين من عمره « وقد كان عالماً متبحراً فى معرفة اللغات الشرقية العبرية والعربية والفارسية والملاوية . وقد كان على دراية تامة بالآثار اليونانية والرومانية . ويهمنا من أعماله هنا كتابه : عن دين محمد - أوترخت (١٩٠٥) ، وقد طبعه طبعة ثانية أكثر انتشاراً وقرنه بكثير من الرسوم التوضيحية . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية بعد موت رولاند فى « لاهاى » ٢١ / ١١ ، ترجمه « ديفيد دوران » وهذه الترجمة الرديئة لا تمس حقيقة النص الأصلى وهذا العبقرى الذى أراد أن يحرف بالفرنسية عمل رولاند اقتطع وجزء الجزء الأكبر من تعليقات الكاتب كما قام بحذف الكثير من محتوى الكتاب معتقداً أنه سيعوض قراءه بالإضافات البزيئة لبعض الأشعار الفرنسية السيئة التى وضعها بطريقته وهذا السلوك كان سلوكاً مثيراً للسخرية وبأسلوب مشين أراد به أن يبرر الخدمات المهمة التى ظن أنه أسداها إلى كتاب رولاند ولأن المترجم لم يشر فى هذا الصدد ولو بإشارة عابرة إلى المقطوعات التى أضافها إلى نصه والتى سوف تبهر سواد الشعب كما قال ولذلك اعتدنا على عرض الملاحظات التى لفقها فى ترجمته (فنجد أنه هنا الذى يتكلم وليس المؤلف) وقد استعاض عن ملاحظات رولاند لأن كتاب رولاند لم يكن أبداً من هذا النوع من الكتب الذى لا يحتوى على أى شىء مفيد . وسوف نلاحظ إذاً أن كاتب هذه الترجمة قد ألحق بها مقالة صغيرة بعنوان اعترافات عن عقيدة المحمدين وهذه المقالة قصيرة جداً ومأخوذة عن مخطوط لاتينى مترجم عن الأصل الأسبانى ومكتوب بخط عربى[1] .

---

(١) سان مارتن مقال فى مجلة مشود : السيرة العالمية جـ ٣٥ (ص ٣٩٠) ط باريس ولينبرج .

وهذا الحكم على الترجمة الفرنسية التى ظهرت فى لاهاى مطبعة إيزاك فيلانت عام (١٧٢١) هو حكم عادل ولا يفيد فى شىء أن يحذرنا الكاتب الذى لم يذكر اسمه فى هذه الترجمة فى (ص ١٠) « أن هذه ليست ترجمة بالمعنى الدقيق وأنه حقاً أننى لم أغير شيئاً لا فى الإهداء ولا فى مقدمة رولاند فى ما عدا بعض الأشياء التافهة والتى أوضحتها فى الهامش كما لم أغير فيه مقالة اعترافات عن العقيدة ولا فى ملخص المذهب المحمدى ولكنها لا تعدو أن تكون مجرد ملاحظات، وقد اقتطعت مطلقاً كل الأشياء التى يبدو أنها لا تخرج عن العربية والتى لم أفهمها ولن يفهمها أغلبية الذين قمت بالترجمة من أجلهم وقد فعلت ما هو أسوأ من ذلك - يا لها من جرأة من جانبى فلقد لفقت هنا بعض من ملاحظاتى على أنها من ملاحظات الكاتب وهذا سوف يبهر سواد الشعب كما أنى لم أميز ملاحظاتى بأي إشارة ولا بأى حروف تدل على اسمى وكان بوسعى أن أفعل ذلك كما فعله الآخرون ولكن الطريقة التى اخترعتها بدت لى مناسبة ومؤثرة وفى الحقيقة لم أعتقد أنه لا يجوز أن أقتطع شيئاً من ملخص المذهب المحمدى ليس فقط لأنه وصل إلينا عن طريق كاتب مسلم ماهر فى دينه ولكن أيضاً لأن مقالته قصيرة جداً ومنهجية جداً بحيث يستحيل الاقتراب منها بالحذف أو التلخيص دون أن تفسد ولكن فيما يخص الملاحظات الموجودة فى عمل السيد رولاند فأنا لم أخذ منها إلا ما بدا لى ضرورياً وشيقاً للقارىء الفرنسى وكان على أن أعوض هذا القارئ عن حذف ملاحظات من النقد الخالص بملاحظات أخرى من عندى بدت لى أكثر سداً للحاجة » (ص ١٠ - ١٣) ولكن هذه التبريرات وغيرها كثير مما ذكره المترجم لا تساوى شيئاً ، فالمترجم ليس له الحق فى أن يفعل ما فعله هذا المترجم ولن أركز كثيراً على هذه النقطة برغم أن كثيراً من المترجمين الأوربيين قدامى ومحدثين ومثلهم عرب أيضاً قد أفسدوا النصوص بهذه الجريمة الشنعاء المخجلة .

وعنوان الكتاب هو عن الدين المحمدى وكتابه القرآن وخلاصة العقيدة الإسلامية من كتاب كتبه عالم مسلم مع أشعار لاتينية وتوضيحات ومناقشة المفاهيم الخاطئة عن محمد ودينه وبيئته ط أولترخت سنة ١٧٠٣ والكتاب يحتوى على (٢٧٢) صفحة .

وكما يوضح العنوان فإن الكتاب مقسم إلى جزئين الأول هو نشر لخلاصة عقائد المسلمين كتبه كاتب مسلم وقد نشره رولاند عن مخطوط عربى ثم ترجمه إلى اللاتينية مع كثير من الملاحظات والتوضيحات - والجزء الثانى يناقش الآراء الفاسدة التى سادت فى أوربا فى موضوع الإسلام وسنة النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - وقد حاول أن يصحح تلك المفاهيم الخاطئة بالرجوع إلى القرآن والسنة والكتاب المسلمين .

وقد ترجم الكتاب من اللاتينية إلى الألمانية على الطبعة الأولى ومن اللاتينية إلى الهولندية على الطبعة الثانية ومن اللاتينية إلى الإنجليزية على الطبعة الأولى تلك الطبعة المصحوبة بمقالات كثيرة حول حياة محمد وشعائر الأتراك وملاحظات السيد « دولاكروزا » عن المحمدية والاشتراكية .

وحتى نقيم كتاب رولاند نعود كما فعلنا مع « هوتنجر » إلى حكم « ستوك هورجرنجى » « إن الإهداء القصير إلى أخيه بير رولاند والمقدمة الطويلة والجيدة والجديرة بالقراءة حتى يومنا هذا لتوضحان كيف أن هذا العالم كان مدفوعاً بحب الحقيقة والشعور بالعدالة التاريخية إلى رسم صورة صادقة للإسلام وقد سأل أخاه هل من الممكن بالنسبة لدين عابث وهو الإسلام كما يصفه الكتاب المسيحيون أن يجد ملايين الأتباع ؟ فلنترك المسلمين يصفون لهم دينهم بأنفسهم فى الواقع أيضا أن المذاهب اليهودية والمسيحية قد حرفها الوثنيون وأن المذاهب البروتستانية قد حرفها الكاثوليك ولذلك فإنه لا يمكن أن يعاد تشكيل دين حسب أوصاف أعدائه ويضيف قائلاً إننا بشر أى أننا لسنا معصومين وأننا نطلق العنان لأنفسنا فى الكلام مئات المرات بما لا يطابق الحقيقة ولكن بدافع عواطفنا لا سيما إذا تعلق الأمر بالقضايا الدينية .

وهناك قراء عدوانيون يمكن أن يشككوا فى أن الكاتب يمكن أن يكون مفكراً جيداً وهو يتهمه بقوة بكل تشكيك من هذا النوع إن قضية الحقيقة بالنسبة له لا يمكن أن تخدم حقاً إلا من خلال حوار أمين ويعلن رولاند أنه لم توجه إهانات إلى أى دين بقدر ما وجهت إلى الإسلام وبرغم أن الأب مراكشى قد عقد حواراً مع العديد من اليهود والنصارى حول الإسلام إلا أنه لم يوضح هذه الظاهرة الغريبة مؤكداً أن المسلمين قد اقتبسوا من المسيحية الكثير من الأشياء ويقول على

صعيد آخر : أليس من الضرورى ألا تهاجم الإسلام قبل التعرف عليه وتتضاعف فرص هذا الحوار الجدلى الصريح كل يوم بسبب العلاقات الممتدة دائماً بين الأوربيين والمسلمين فى تركيا وإفريقيا والشام وفارس وبين الهنود الموجودين فى هولندا حيث يخفى كثير من المسيحيين خجلاً اسمهم المسيحى ومن وجهة نظره فإن هناك كثير من الفرص لنكسب من المسلمين إيمانهم الحقيقى حين نظهر بشكل لائق فى معرض مناقشتنا الدينية وأن نكف عن لعنهم بحماقة إنه يريد على وجه الخصوص ألا يعيش مسيحيو الشرق بهذه الطريقة التى تشبه طريقة التركى الذى يشك فيه أهل ملته ويتهمونه بالكذب والخداع بينما يمكنه أن يحترم بهجوم مضاد ويصل رولاند إلى هذه العبارة (أتعتبرنى إذاً مسيحياً ؟) . ويواصل حديثه قائلاً: « إن معرفة أكثر دقة بالإسلام وبأتباعه كفيلة بأن تحول غرورنا الأحمق إلى شعور بالعرفان نحو الله الذى أعطانا بفضله المحبة وهذا الاعتراف بالفضل ينبع من أن المحمدين قد استطاعوا غالباً أن يقدموا جرعة مكثفة جداً من الفضائل إن رولاند يعتقد حقاً مثل كثير ممن جاؤا بعده أنه مضطر أن يحمى قراءه صراحة من الفهم الضيق لكلماته كما تحدث مثلاً فى خلال عمله هذا عن النبى محمد ﷺ حيث خاف أن يشك الناس فى أنه يرد الاعتبار للدين المحمدى فأعلن أنه يمارس نوعاً من النقاش الحر يريد به فقط أن يكون هذا الدين واضحاً وليس معروفاً بشكل سيئ .

« وإذا كان يريد رغماً عنه أن يحتفظ بالأساطير العبثية التى وردت بشكل عام في موضوع الأتراك وقد غذت هذه الأساطير عندهم كثير من الأوهام فإنه كان له السبق دائماً فى تجربة أن العالم يريد أن يخدع وأنه محكوم بالأوهام .

وحين نتبع عناوين فصول المقدمة فإننا نستخلص لمحة أولى من المحتوى وهذه هى العناوين (١) .

١ - أن أغلبية الأديان قد وصفها أعداؤها بشكل سئ ومن بينها اليهودية وديانات أخرى .

٢ - أن الدين المسيحى لم يراع أعداؤه صحته بشكل كبير .

٣ - أن الكاثوليك لم يناقشوا قضايا البروتستانت ويذكر رولاند فى هذا الفصل

---

(١) لقد ذكرنا بعد الترجمة الفرنسية التى ذكرناها بعاليه والتى تعد دقيقة ومطابقة للنص اللاتينى .

(جنبرار) (Genebrard) الذى لم يجد صعوبة فى الرجم بالغيب فى تاريخه (ص ٧ ١) وقد قال لنا بطريقته أن لوثر سوف ينقل قريباً الإمبراطورية الأوربية إلى محمد (ص)، وأن وزراءه وأتباعه سوف يتحولون إلى الإسلام وفى الطبعة الأولى وليس فى الثانية يحكي رولاند أيضاً عن جبرار قوله : « نحن مقسمون إلى ١٢٦ فرقة مفسدة وأن لوثر دخل فى صفقة كبيرة مع الشيطان وانتهى بالميثاق والذى عوقب به « كلفان نفسه من قبل الله باعتباره مجرماً وذلك بقرحة خبيثة جزاء جريمته ولذلك مات فى حالة من اليأس « والمترجم الفرنسى فى تعليقه ص ١٩١ يسوق هذه الملاحظة « إن رولاند ما كان ينبغى له أن يلغى تلك الوشايا لأنها تساعدنا فى أن نرى أن روما (حيث مقر البابوية) هى كاذبة وقاتلة من البداية حتى النهاية .

٤ - أن الكاثوليك كانوا مخطئين فى مقارنتنا بالمحمديين .

٥ - ذلك التشابه المضحك بين أتباع لوثر وأتباع محمد والذى أورده شخص يدعى ببليدو

٦ - وشبه آخر لبيالدو (Vivaldo) بين المحمدين والكاثوليك الرومان .

٧ - ماذا يمكن أن تكون الأسباب وراء المعرفة الضحلة التى اعتدتها عن الدين المحمدى وفى رأي رولاند فإن هذه الأسباب مختصرة فى ثلاثة أسباب .

(أ) أن كل الأديان فهمت بشكل خاطىء ومن ثم تعامل معها أعداؤها بشكل خاطئ ولذلك يجب ألا نندهش إذا حدث نفس الشىء مع الدين المحمدى .

(ب) حتى نلج بكثير من النجاح داخل روح هذا الدين والكتاب الذين تعرضوا له يجب علينا أن نعرف العربية جيداً ولكن أغلبية الذين يكتبون عن محمد والإسلام فى الغرب عندنا كما فى اليونان هم على جهل تام بهذه اللغة .

(جـ) وفى النهاية يأتى التعود أو مزاج المحمديين الذين لا يميلون إلى النقاش الدينى ولا يبدون مهتمين بنشر دينهم على نطاق عالمى

وبهذه لمناسبة يذكر رولاند بعض الكتب الحماسية والمليئة بالكراهية والحنق على الإسلام .

- هورن بك (Hoorne beeck) جملة من المحاورات .

- جان أندريه مور (وهو مسلم أسبانى تحول إلى المسيحية فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر) : إعترافات حول الملة المحمدية .

- فوربسيوس (Forbesius) : المؤسسات اللاهوتية .

- أميوس (Omius) : التركية فى المرآة .

- ببلياندر : خطبة منشورة فى نهاية ترجمة القرآن بناء على أمر بير رئيس المجمع الكنسى والناشر هو ببلياندر نفسه .

- دون مارتينو الفونسو ببالدو (Don Martino Alphanso Vivaldo) : قنديل فى كنيسة الرب ، وهو هنا يسوع المسيح.

- الأب مراكشى : مقدمه حول القرآن : دحض القرآن ويذكر رولاند من هذا الكتاب مقطوعات مطولة حيث يوضح مراكشى بعد ذكر كثير من عقائد المسلمين أن هذه المذاهب وأشباهها كثير انتشرت فى العالم بشكل واسع ظاهريا كما يقول مراكشى أيضا « إن كل غير المؤمنين سيفضلون محمداً وسيعانقون دينه بقلوبهم ».

٨ - دحض كل ما ردد من أنه من غير المفيد دراسة دين محمد .

وحتى يبرروا رفضهم لتعلم العربية ودراسة الإسلام يقول أهل أوربا : « ليست لدينا علاقات تجارية كثيرة مع المحمديين كما أنهم لا يهتمون بمناقشتنا وعرض دينهم علينا : وإذا تحتم النقاش معهم فعندنا الكتب اللاتينية المؤلفة فى هذا الصدد فلماذا نضيع وقتنا فى دراسة العربية ؟ » ويرد رولاند على ذلك قائلاً « هل صحيح أننا ليست لنا تجارة مع المسلمين ؟ أو ليست لنا مصالح كثيرة أو قليلة ليس فى القسطنطينية عاصمتهم ولكن أيضا فى جميع ولايات الامبراطورية التركية وعلى سواحل إفريقيا وفى الشام وفارس وفى الهند الشرقية حيث لنا مصالح وموانىء وأماكن تجارية فى مناطق تغص بعدد كبير من المسلمين ؟ ثم ماذا تعنى ليت شعرى هذه الرطانه التى تشنف آذاننا كل يوم من أنه ليس من الضرورى دراسة دين هؤلاء الناس ؟ وإذا أخذت هذه القاعدة بحرفيتها ولم ندرس أى شىء لهم فكيف ستصبح دراستنا وما هو مصير كل العلوم لدينا ؟ » (ص ١٣٢ - ١٣٣) .

٩ - هل صحيح أنه ليس مسموحاً للمسلمين بالنقاش حول دينهم .

ويرد رولاند بأنه لو صح أن المسلمين لا يتناقشون مع بعضهم إلا بالرجوع إلى

القرآن فإنه يبقى على الأقل أن نتناقش معهم حول صحة القرآن نفسه وسوف يكون من السهل ساعتها أن نستخرج من هذا الكتاب أشياء سوف نكتشف أنها «ليست إلهية » (ص ١٣٨ - ٩) ورولاند هنا يسلم نفسه للوقوع فى الافتراءات الحانقة التى نسخها ألد أعداء الإسلام ، وهذا أمر غريب من جانبه لا سيما وأنه يزعم فى هذا الكتاب أنه يرد الاعتبار للإسلام لأنه حتى مراكشى الذى يذكره فى الصفحة التالية كان أكثر اتزاناً رغم تعصبه السافر .

ثم يواصل رولاند قائلاً « أن المسيحيين والمسلمين تناقشوا فيما بينهم ليس فقط مشافهة ولكن أيضاً كتاباً حول النقاط الرئيسية فى الدين . ويذكر هنا حالة كاثوليكى رومانى كتب كتابا سماه « المرآه Speculum Verum Ostendens حيث هاجم فيها عقائد المسلمين . ولذلك فقد رد عليه شريف فارسى هو أحمد ابن زين الدين بكتاب سماه « صقيل المرآة » حيث حاول تفنيد المبادىء الأساسية للعقيدة الكاثوليكية وكذلك الغموض المتعلق بالثالوث المقدس وألوهية المسيح » (ص ١٤٢ - ٣) .

ثم يوضح أن حرية النقاش بين المسيحيين والمسلمين فى البلاد الواقعة تحت سلطان المسلمين كانت مكفولة من وقت لآخر . ويرجع فى هذا الموضوع إلى كتاب الأب « رينودو » Renaudot « تاريخ بطارقة الإسكندرية (ص ٣٧٧) ، حيث يقول رينودو : « قديماً كان مسموحاً للنصارى الشرقيين بعرض دينهم بطريقة عامة شفوياً أو كتابةً ولهذا ظهرت كثير من المساجلات مدونة فى المكتبات Mss » ومنها ما يلى :

- مساجلة إبراهام الترهانى مع عبد الرحمن
- مساجلة بين رجلى دين ويهودى اسمه غنريم .
- مساجلة إيلى رئيس أساقفة نزيب فى ديار بكر بأسيا مع الوزير أبى القاسم ابن حسين المغربى
- مساجلة عيسى بن زرعة مع أبى بكر البلخى
- مساجلة أخرى لأبى قرة وهى نوع من المؤتمر الدعوى للدين المسيحى جرت فى حضرة الخليفة المأمون

- مساجلة أخرى عن التثليث والتجسيد عقدت فى القاهرة عام (٦٣٩هـ / ١٢٧٩م) قام بها رجل يسمى ابن العسال .

- مساجلة أخرى مع راهب ووزير أحد أمراء إفريقيا وقد كتبها رجل نسطورى.

- ومساجلة أخرى مع راهب آخر يسمى « إچشنا » من مدينة مرو عاصمة خراسان .

- وأخيراً محاورة بين راهب جديد ورئيسه متعلقة بعبثية نبوة محمد مع دحض للقرآن ، هذا وقد غضضنا الطرف عن عدد كبير لا يحصى من الكتابات القصيرة فى هذا الموضوع كان يمكننا أن نعمل لها قائمة عظيمة .

١٠ - دحض ما اعتدنا سماعه من أننا عندنا ما يكفيا من الكتب التى تعرفنا بدقة على دين محمد ، ويفند رولاند هذه القضية بقوله : « إن أغلب هؤلاء الكتاب والذين نمدحهم بحماس هاجموا دين محمد بأقل مما هاجموا أوهامهم ... وقد وقعوا فيما نسميه السفسطة العادية وهى الجهل بالقضية المطروحة أى إثبات ما ليس من المفيد إثباته ومهاجمة الآخرين بشعور من الوهم عن عقلياتهم أو كما قال فيلوستراد » عن « كاليجولا » : « أنه يعيد قصص العدم » وقد كان كاليجولا أميراً مغفلاً صف جيشه فى إحدى المعارك على شاطىء المحيط كما لو كان فى حملة مشهودة انتصر فيها على انجلترا ثم وضع الحراب وبقية آلات الحرب كما لو كان سيقفز عليها ثم أعطى الأوامر لجنوده فجأة بأن يجمعوا المحار ويملؤا به قبعاتهم وجيوبهم ، ثم أضاف إلى هذا العبث مجداً أكثر عبثاً وهو نقل هذا المحار من المحيط إلى مقر السلطة والبلاط . وهكذا كتابكم الذين يهاجمون المسلمين فهم يوجهون أسلحتهم بكثير من العناية والحماس ليس ضد أعداء حقيقيين ولكن ضد خصوم وقد انتصروا عليهم لأنه لا شخص يدخل معهم حقاً فى خصام ، ولذلك يمكنهم أن ينتصروا كما يريدون وذلك يجمع الغنائم المناسبة لهذا الانتصار مع تصفيق كل من على شاكلتهم كما لو كانوا قد دافعوا دفاعاً مجيداً عن الدين المسيحى ضد كل سباب العرب وكفر الشرق : ولكن العقلاء يمكنهم أن يضحكوا على هذه الانتصارات الكاليجولية (ص ١٥٥ - ٨) .

١١ - وأن معرفة اللغة العربية أكثر فائدة مما يظن الغرب .

١٢ - أن دراسة الآداب والفنون واللغات الأجنبية أصبحت جزءاً لا ينفصل عن الدين الحقيقى .

١٣ - الهدف الذى من أجله ألف هذا الكتاب .

فى هذا الفصل الأخير من المقدمة يوضح الكاتب بشكل صريح الهدف من وراء تأليف هذا الكتاب وهذا ما قاله دون مواربة :

« إن هدفى لم يكن خفاء ولا حتى تلفيق حقائق عن دين أكرهه ولا حتى أن أتصل به بشكل عدائى أو ودى . فمن يحكم على هكذا يخطئ ولكن الهدف هو شىء من العدل والنزاهة . فقد رأيتنى مضطراً للدفاع عن هذا الدين خاصة فى الأشياء التى نسبت زوراً وبهتاناً إليه والتى تخجل وجه الحقيقة حين تعتمد على الأكاذيب والافتراءات . والهدف هو إيجاد شخص يجب أن يعكس هذه الأكاذيب التى لا تستند على أى شىء من الشرعية ، وقد ألحقت بالمسلمين أوصافاً كثيرة مثل « خرقاء » أفظاظ ، حمر وحشية ، مجانين ، مغفلين ، وحتى شياطين ، وأريد أن يرددوا معى الحقائق المضادة التى تعرى هذه الأكاذيب التى جعلتنى ألاحظ أن الأيام تثبت أن العالم يريد أن يعيش مخدوعاً ومحكوماً بالأحكام المسبقة (ص ١٧٠ - ١٧١) .

ويتضح من إعلان النوايا هذا :

(أ) أن رولاند لا يقصد بهذا الكتاب الدفاع عن محمد وعقائد المسلمين فهو أبعد من ذلك .

(ب) ولكنه يريد أن يصحح الأكاذيب والأحكام المسبقة التى نسجها الكتاب الأوربيون فى موضوع محمد والقرآن والإسلام حتى يستطيع مهاجمة الإسلام آخذاً من المسلمين فرصة الدفاع بإنكار هذه الأكاذيب والافتراءات التى اختلقها المسيحيون فى موضوع المسلمين والإسلام . فإذا رفض رولاند مثلاً الاتهام الذى ساقه الكتاب الأوربيون بدءاً بيوحنا الدمشقى وهو أن محمداً خلط فى القرآن بين مريم أخت موسى ومريم أم عيسى فذلك لأنه كما يقول : « حتى نكون فى حالة جيدة ووضع سليم نحن المسيحيين فى حوارنا مع المسلمين بطريقة منطقية ومقنعة حتى نهاجمهم من الآن فصاعداً بشكل أكثر وضوحاً وثقلاً بعدد من الحجج والأدلة (١٨٤ - ١٨٥)

(جـ) باختصار ، لم يكن لرولاند من وراء كتابه هذا وكل أعماله سوى نصرة الحقيقة والعقيدة الأنجيلية أو شيء مشابه لذلك وهو مجد إله واحد حق حيث يضيف فى الطبعة الثانية « الأب والابن والروح القدس ، لهذا الثالوث يجب أن تكون العاقبة وكل كلامنا وجميع أفعالنا (السابق)

إذاً لا يمكن أن ينخدع أحد فى نية رولاند وهى : أنه يتعشم أن يهاجم الإسلام بهدم الأساطير التى اخترعها الكتاب المسيحيون والأوربيون وذلك لدحض وتفنيد حياة محمد ودينه إنه يضع نفسه فى عداوة مع الإسلام ولكنها عداوة عالم ذكى بدلاً من المتقصين من قدر الإسلام وهم كاذبون وحمقى .

وبعيداً عن نية رولاند فإن كتابه قد ساهم بعد ذلك فى تنوير الأوربيين فى موضوع الإسلام . ولذلك لن يكون بمقدور أحد أن يجرؤ على ترديد الأساطير المتراكمة والأكاذيب التى نسجت فى أوربا منذ عشرة قرون حول محمد دون أن يخاطر بأن يصبح أضحوكة المثقفين الأمناء .

ويجب أن نتوقف هنا لأن متابعة تاريخ مفاهيم الأوربيين عن محمد والإسلام سوف تستأنف فى كتابنا : « الإسلام كما ارتآه فوليتر وهيرود وجيبون وهيجل » وهو الكتاب الذى سيظهر بعد كتابنا هذا .

* * *

الفصل الأول

صدق محمد فيما يتعلق برؤاه للملأ الأعلى

« لقد قيل عن سقراط أنه كان يهذى وأنه كان مجنوناً ذا عقل كبير ، ولكن ماذا عن الإغريق الذين يتكلمون هكذا عن رجل عاقل وهم يصلون إلى درجة الجنون » .

لابرومير

الشخصيات « أحكام ٦٦ »

١ - سورة العلق :

وهو يخبر برسالته النبوية أعلن محمد أن الوحى نزل عليه من الله خلال عزلته فى غار حراء قريباً من جبل أبى قبيس بمكة . وقد قال أنه سمع صوتاً من أعلى يقول له :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ سورة العلق الآيات من ١ إلى ٥ .

ونجد أن كلمة اقرأ هنا قد ترجمها بلاشير بكلمة Preche وهذا شىء من الصعب فهمه لأن كلمة اقرأ تعنى حرفيا Lis ولكن لأن محمداً لم يكن أمامه كتاب يمكنه أن يقرأه فإن الأمر هنا لا بد أن يخرج عن حقيقته إلى معنى مجازى وهو Preche بمعنى بشر أو Prochame بمعنى أعلن . ومع ذلك فليس هنا مفعول لهذا الفعل حتى وإن كان Preche بمعنى بشر ولكن بَشِّر بماذا ؟

وحتى يخرج من تلك المعضلة اقترح أبو عبيدة وتبعه فى ذلك هـ - جريم فى القرن التاسع عشر فى كتابه (محمد) أن نفهم الأمر « اقرأ » بمعنى « امدح » وذلك بحذف حرف الجر « بـ » حيث يصير المعنى هكذا « امدح أو مجد اسم ربك» .

نولدكه - شفالى (مج ١ ص ٨١) وتبعهم « فرانتس بول » فى كتابه (ثقافة محمد ص ١٣٧) يرون أنه يجب أخذ فعل الأمر على إطلاقه أى بدون مفعول مباشر وأن نفهمه هكذا : أعلن بصراحة وأفصح للناس عما فى داخلك مما أوحينا إليك .

إلى هنا والترجمة المقترحة منطقيه ومقبولة ، وهى تتفق تماماً مع الفهم العقلانى دون حاجة إلى استدعاء قوة سامية .

ولكن « فرانتس بول » (ص ١٣٧ - ٨) يلوى عنق الكلام بعد ذلك ليصل إلى هدفه غير المعلن وهو الموروث اليهومسيحى ويزعم أن الآيات الخمسة التى ذكرناها « قد اكتسبت معنى مطابقاً للموروث اليهودى المسيحى وذلك يتأكد حين نرجع إلى الرسالات السماوية السابقة عند أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وقد آمن محمد بمحتوى هذه الكتب عن اقتناع لوقت ما .

وهذا مثال واحد مطابق للنية السيئة عند دارس الإسلاميات . فبأى حق يفسر

« بول » عدم وجود مفعول لكلمة اقرأ بهذا التحوير العظيم أو المذهب الذى لا تدل عليه أى كلمة فى سياق الآيات ؟ للأسف إن هذه عملية معتادة لدى دارسى الإسلاميات وذلك لينشروا آراءهم خلسة حتى يستطيعوا أن يهاجموا الإسلام بضراوة حين يتعرضون بالطعن لقواعده .

نأتى إلى المشكلة الثانية التى أثارتها الآيات الأولى من الوحى وهى أن محمداً سمع صوتاً يدعوه إلى أن يقرأ . فماذا كان هذا الصوت ؟ هل هو صوت داخلى؟ أم خارجى ؟

إذا كان هذا الصوت نابعاً من داخل نفس محمد فلن تكون هناك مشكلة ، فالإنسان بدافع التأمل فى جو من السكون والوحدة والتحادث مع الذات حول قضايا عظيمة متعلقة بالله والإنسان ومصيره والموت والحياة الأخرى ، فلا بد هنا أن يصبح الوجدان غنياً بالمشاعر التى تضطرب بحيث يشعر الإنسان بالازدواج بين أنا وأنت . وهذه الحالة النفسية طبيعية تماماً ولا يجوز اتهام من يشعر بها بالخداع أو الكذب .

ولكن قضية الصوت الخارجى هى القضية المعتمدة لدى كل كتاب السيرة المسلمين مع اختلاف فى الروايات نورد منه أقدمها :

(أ) ابن إسحاق (توفى فى ٧٦٩) ويحكى أن محمداً ذهب إلى غار حراء فى شهر رمضان فى السنة التى بعث فيها وهنا يحكى النبى قائلاً : « ذات ليلة كنت نائماً وأتانى جبريل بلوح عليه كتابه وقال : « اقرأ » فقلت : « ما أنا بقارىء » فضمنى بهذه الرقعة حتى خشيت أن أهلك ثم أرسلنى وقال : « اقرأ » فقال النبى ﷺ ما أنا بقارىء مرتين فخفف الملك من شدته معه فسأله محمد «وماذا اقرأ ؟ » فأجابه الملك « اقرأ باسم ربك الذى خلق » يقول الرسول : «فاستيقظت وكأن شيئاً ما قد نقش فى قلبى فخرجت ولما أصبحت فى قلب الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل » ، فرفعت بصرى نحو السماء لأراه فإذا جبريل على شكل رجل يجلس عند الأفق ورجلاه القرفصاء ويقول : « أنت رسول الله وأنا جبريل » فوقفت ، ورأيته

ولكن حيث تقدمت أو تأخرت أو قلبت وجهى فى أى مكان فى السماء كنت أراه»[1].

وفى هذه الرواية عنصران متمايزان : الملك الذى يحث محمداً على القراءة ورؤية محمد لجبريل جالساً عند الأفق يقول له : « أنت رسول الله وأنا جبريل » فالشيء الأول حدث داخل غار حراء بينما حدث الثانى عند الجبل فى الهواء الطلق وفى وضح النهار ولكن هذين الحدثين مع تمايزهما يتكاملان ويتطابقان ، لأن الحدث الثانى لا يعدو أن يكون تصريحاً وإزالة لغموض الأول : فهو يحدد شخصية الملك واسمه ويشرح هدف الحدث الأول وهو أن يعلم محمداً بوجوب تبليغ الدين الجديد لأنه رسول الله . وهذا ما يجعلنى أعتقد أنه ليس هناك داع لهذه الأهمية المبالغ فيها من جانب : « تور أندريا » للفصل بين الحدثين » [2] .

إن القضية الجديرة بأن تطرح هنا هى صحة هذه الرواية كلها لأن :

(أ) القرآن لم يشر إليها ولو بكلمة واحدة ولم يقل لنا أى شيء عن الطريقة التى تلقى بها النبى محمد الوحى .

(ب) أنه ليس من المؤكد أن سورة العلق هى أول ما نزل من القرآن على النبى فآراء علماء المسلمين مختلفة فى ذلك (انظر السيوطى : الإتقان) والزركشى (البرهان) .

(جـ) التفاصيل الخاصة (لقراب اليحمور عليه كتابه) يبدو أنها من الخيال المضطرب والمتأثر بالرواية والتخيل كما أننا نعتقد أن هذه الرواية ألفها ابن إسحاق وأخذها عنه كتاب السيرة من المسلمين فيما بعد .

ومن الواضح فى هذا الصدد أن ابن سعد فى كتابه « الطبقات » لم يذكر إلا الحدث الثانى وهو رؤية الملك فى الأفق ساكتاً عن الحدث الثانى وهو ما حدث بداخل غار حراء .

---

(١) مذكور فى « تور أندريا » (محمد ، حياته ، ودينه) تأليف « جون جودفرواد يمومبين » باريس ، ١٩٤٥ (ص ٤٣) .

(٢) السابق (ص ٤٤ - ٤٦) .

٢ - سورة النجم :

يجب علينا هنا أن نكشف عن خطأ آخر منتشر بين المستشرقين وهو أنه فى سورة النجم من المفروض أن محمداً تلقى الوحى عن ملك كان يراه فى الأفق الأعلى وحسب تفسيرهم المتخيل فإنهم أضافوا كلمة (ملك » بين قوسين وهذه مثلاً ترجمة بلاشير :

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى . ذو مره فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ سورة النجم من آية ١١ إلى ١٨) إذاً فالمقصود فى الآيات الخمس والتالى لها ليس ملكاً ولكنه الله نفسه وهذا يظهر بوضوح فى الآية ١ « فأوحى إلى عبده ما أوحى » لأن محمداً ليس عبداً للملك ولكنه عبد لله وحده ، وهو وحده الذى يوحى إليه . والملك ليس إلا وسيطاً بينهما . لأنه لا يوحى شيئاً . وما يعزز هذه الرواية أنه كيف يستوى الملك فى عظمة وقوة بينما يجلس فى الأفق الأعلى آية ٦ فالملك لا يستوى فى الأفق الأعلى لأن هذه صفات لا يمكن أن تنسب إلا إلى الله ولا يمكن أن تنسب أبداً لملك .

لذلك فمن الغريب أن يقع فى هذا الخطأ الشنيع شخص مثل « تور أندراك » (السابق ص ٤٦) ، وبلاشير (القرآن ص ٥٦٠ - ١) وكثير غيرهم أما فرانتس بول فإنه يذكر هذه الآيات دون أن يشرحها ولذلك فنحن لا نعرف كيف فهمها كما يذكرها أيضا « مكسيم رودنسون » [١] دون حتى أن يشك فى المشكلة المثارة هنا .

إننا نعتبر هنا أنه لا داعى لشرح سورة العلق باستخدام سورة النجم لأن سورة النجم تتحدث عن رؤية الله من جانب محمد وهى الرؤية التى تمت بالروح

---

(١) مكسيم رودنسون - محمد - باريس (١٩٦١) (ص ٩٣ - ٩٩) .

وهذه هى القضية برمتها وقد تناولها علماء التصوف المسلمين . وبالاعتماد على هذه السورة اعتقد متصوفة المسلمين فى إمكانية رؤية الله وهى رؤية روحانية خالصة .

٣ - أحوال النبى إبان استقبال الوحى .

نعود إلى حالة النبى إبان الوحى الأول (أول ما نزل من القرآن) سواءاً كان سورة العلق أو سورة المدثر فى أقوال أخرى . ولم يحدثنا القرآن عن شىء من ذلك . ومصطلح « مدثر » يعنى فقط « الذى يلبس دثاراً والدثار هو رداء يلبس فوق قميص ليدفىء من يلبسه وفى الحديث « أن النبى بعد أن نزل عليه الوحى كان يقول : « دثرونى دثرونى » أى غطونى برداء يدفئنى .

وقد أردا بعض المستشرقين أن يعمل من هذا الحدث البسيط وهو « التدثر برداء بغية الدفء » قضية النبوة وشعائرها عند الكهان . ويقول : « تور أندريا » فى هذا الموضوع «لقد اقتبس محمد هذه التعبيرات بلا أدنى شك من الكهنة الوثنيين، لأن كثيراً من الكهان كانوا يغطون رؤسهم عند ما يستقبلون الوحى وقد فعل محمد نفس الشىء (القرآن ٧٣ ، ١ ، ٧٤) وهذه الطريقة فى الواقع هى طريقة قديمة لاستقبال الوحى . فالكاهن الفالى كان يتدثر فى جلد ثور مقدس والكاهن الأيسلندى كان يتدثر فى جلد شاة رمادية (١) كما يقول « جود فرواد يمومبين عن كلمتى « مدثر ومزمل » هذا دأب كل الذين يشعرون بأنهم على علاقة بقوة إلهية . وهكذا كان يفعل كهان الجزيرة العربية وقد كان القرشيون على حق حين زعموا أن محمداً يقلدهم لكى يوحى إليه هو أيضاً بأسرار الجن وقد كان هذا بعد ذلك دأب مدعى النبوة مثل « طليحة بن خويلد الأسدى ، والأسود العنسى » (٢) ولكن هذه مبالغة لا مبرر لها وهى أن نستخرج من هذه الصفة البسيطة والمعتادة « مدثر » كل هذه النتائج التى لا تقوم على دليل .

وفى الواقع أنه لم يرد لا فى القرآن ولا السنة ولا عند كتاب السيرة المسلمين أن النبى كان يتدثر برداء مخصوص فى كل مرة ينزل عليه فيها الوحى وكل ما قالته هذه المصادر فى هذا الموضوع هو أن النبى حينما كان يأتيه الوحى يشعر برعشة

---

(١) تور أندريا - محمد - (ص ٢٨) .

(٢) موريس جود فروا ديمومبين - محمد - باريس ، (١٩٦٩) (ص ٧٢ ، ٧٣) .

برد ويطلب أن يدثروه برداء ليستدفئ . كما يذكر فى هذا الصدد مثلاً أن «عمرعندما لاحظ أن النبى بصدد نزول الوحى غطاه بمعطف ليشعر بالدفء لأنه عرف بالتجربة أن النبى يشعر بالبرد فى تلك الحالة » وهذا معنى حديث رواه البخارى (ص ٦٢١ و ٧٤٥) ومسلم (جـ١ ص ٦٧٣) ، وترجمة « شبرنجر (جـ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠) .

إذاً لم يكن النبى يلبس معطفاً ليستطيع استقبال وتلاوة ما يوحى به إليه : ولكن على العكس من ذلك ولأنه كان يشعر بالبرد حين يستقبل الوحى فكان يطلب أن يغطوه برداء ليشعر بالدفء من البرد الذى يجرى في أوصاله . ولذلك ليس هناك علاقة بين هذا الرداء الذى يبعث فيه الدفء وبين المعطف أو الإيفود (ثوب أحبار اليهود) الذى يلبسه الكاهن أو النبى فى بنى إسرائيل .

* * *

ويمكننا أن نتساءل هنا فى أى حالة نفسية أو عصبية كان النبى محمد عند استقبال الوحى .

نسوق هنا بعض الروايات التى جمعها وترجمها شبرنجر (١) .

١ - الواحدى : أسباب النزول (٤ - ٩٧) والبخارى (ص ٦٦٠) « حدثت للنبى حادثة وسقط على صدر زيد بشكل عنيف حتى خاف زيد (بن ثابت) أن تكسر قدماه .

٢ - المواهب اللدنية « يقول زيد بن ثابت : « كنت كاتباً لوحى النبى ﷺ حين ينزل عليه الوحى تصيبه حمى عنيفة ويتصبب عرقاً حباته مثل حبات اللؤلؤ» .

٣ - ابن سعد عن عكرمة « كان الوحى حين ينزل على النبى تصيبه نوبة لبرهة كما لو كان ثملاً » .

٤ - ابن سعد (ص ٣٧) ومسلم (مج ٢ ص ٤٣٠) عن عبادة بن الصامت «حين ينزل الوحى على النبى يكفهر وجهه ويتغير » .

٥ - مسلم (مج٢ ص ٤٣٠) عن عبادة بن الصامت « حين ينزل الوحى على

---

(١) شبرنجر : حياة محمد وثقافته (ص ٢٦٩ - ٢٧٥) ، برلين (١٨٦١) .

النبى كان يطأطئ رأسه وكذلك الصحابة فإذا ذهب الوحى رفع رأسه من جديد».

٦ - « البغوى » - تفسير عن ابن عباس حين كان جبريل ينزل بالوحى على النبى كانت شفتا النبى تضطرب وكذلك لسانه وفى هذه الحالة يكون مضطرباً وكانت حركاته تدل على ذلك .

٧ - ابن سعد (٣٧) عن ابن عباس « حين كان الوحى ينزل على النبى يكون في حالة ترقب وكان يحرك شفتيه ويتمتم حتى لا ينساه . ولهذا أنزل الله عليه فى سورة القيامة آية ١٦ ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ .

٨ - ابن سعد (٣٧) عن عائشة « سأل الحارث بن هشام النبى كيف يستقبل الوحى فأجابه النبى : « إن الوحى يأتى أحيانا مثل صلصلة الجرس وكان يشق على ثم تنتهى الصلصلة وأعيد ما قاله لى جبريل وأحياناً أخرى يأتينى الملك ويكلمنى وأفهم ما يقول » .

٩ - مسلم (ص ٣٤٠) تقول عائشة : « أبصرت النبى حين ينزل عليه الوحى فى يوم شديد البرودة عندما توقف الوحى وجدت جبينه ﷺ يتصبب عرقاً » .

١٠ - ابن سعد (٣٧) كان الرسول دائماً يقول : « كان الوحى يأتينى على ضربين ، إما أن يأتينى به جبريل ويلقنى كما يتحدث أحدكم إلى آخر وقد اختفت مثل هذه الطريقة ، أو يأتينى الوحى كصلصلة الجرس ويستمر حتى ينطبع فى قلبى وهذه الطريقة لم تختف أبداً » .

* * *

وقد أطلق المستشرقون العنان لخيالهم أمام معطيات السنة دون أن يسألوا أنفسهم إلى أى مدى يمكن أن يتباهوا بصحتها دون أن يخضعوها لأى نقد تاريخى مثلما هو الحال حين لا تتفق الروايات مع خيالاتهم .

(أ) شبرنجر ، الذى أورد وترجم هذه الروايات يتسرع بأن يستخلص منها النتيجة التالية : « كان محمد يعانى من مرض كان حين يأتيه يتملكه وهو مرض شائع فى بلادنا لدى النساء ولدى الرجال بشكل نادر . وهذا المرض يأخذ أسماء متعددة « شون لين » مثلاً يسميه « الهيستريا العصبية ». وكالعادة فإن الهيستريا

مرض نسائي ولكنه يضيف: « إنهم مخطئون أولئك الذين يعتقدون أن هذا المرض لا يصيب الرجال أبداً لأنه يظهر أيضا عند البشر من جنس الرجال ولكن بشكل نادر جداً» وكالعادة فإن هذا المرض يبدو فى صورة نوبة. وحين كان يصيب محمداً بشكل خفيف كان يظهر الترنح والتشنج والذى هو الصفة المميزة لهذا الألم .

وكانت شفتاه تضطربان وكذلك لسانه يبدو وكأنه يريد أن يلعق شيئاً : وكانت عيناه تدور فى وقت قصير من جهة لأخرى ورأسه تتحرك بشكل تلقائى . وفى النوبات الخفيفة لهذا المرض تكون إرادة التحكم فى الحركات قوية كما يمكننا إيقاف رعشة الأعضاء بإراده قوية : ولكن فى الحالات الأعنف تكون الحركات آلية تحت ضغط الإرادة . « وفى نفس الوقت كان يعانى كذلك آلاماً فى الرأس (الهيستريا المفتته للرأس) وعندما تكون النوبات عنيفة ، يصل به الأمر إلى التخشب . وكان محمد يسقط على الأرض وكأنه ثمل ، ويصبح وجهه محمراً وتنفسه ثقيلاً ويغط «مثل بعير » ، ولكن يبدو أنه لم يكن يفقد الوعى ولذلك فإن حركاته كانت تعرف بالصرع . وفور انتهاء زيارات الملك يكون محمد قادراً على التحدث إلى الأشخاص الحاضرين بما أوحى إليه وما جاءه الملك به وحتى إذا كانت لهجته ضعيفة فى أحيان كثيرة فإنها تثبت أنه كان فى كامل وعيه .

« ومن خصائص الهيستريا المعروفة أنها تشبه أنواعاً أخرى من الأمراض ولذلك فإنه ليس من المعاناة أن يخضع الشخص الواقع تحت تأثير الهيستريا لهذه النوبة مؤقتاً . وهذا المرض المتغير يظهر مرة فى شكل التهاب رئوى ومرة أخرى على شكل أزمة قلبية تهدد بالموت فى أحيان كثيرة وأحياناً يأخذ شكل الربو الكثيف .

ويكون الأشخاص الحاضرون مرعوبين من ذلك ولكن إذا فحصنا الحالة بطريقة أكثر دقة فنكتشف أن أصل هذه الأعراض المرعبة لا يعدو أن يكون هيستريا لا خطر منها وقد تتحول إلى حالة صحية جيدة وربما إلى قوة طاغية سريعا كما هوالحال عند تحول الأطفال من الدموع إلى الضحكات (١) .

ويسير شبرنجر على نفس المنوال قائلاً أن : « هيستريا محمد كانت تأخذ شكل الحمى عادة وذلك لأنه فى المناطق الاستوائية وخاصة المدينة تعتبر الحمى المتنقلة هى المرض السائد وكل المشاكل الصحية تندرج تحته. وكانت نوبات محمد تأخذ

(١) شبرنجر : حياة محمد وثقافته (ص ٢٠٧ - ٨) .

عادة إذا شكل الحمى . وكان وجهه يصبح شاحباً وكان يضطرب ويشعر بقشعريرة وفى النهاية تسقط قطرات عظيمة من العرق معلنة نهاية الأزمة (السابق ص ٢٠٨ - ٩) .

ويدفع شبرنجر التحليل إلى أقصى درجات المبالغة الساقطة والسفه العلمى حين يناقش قضية الجنس البشرى عند محمد حيث يزعم حسب نفس نظرية الهيستريا أن النساء المصابات بالهيستريا فى أحرج لحظاتهن يقعن تحت تأثير الشبق ويزعم « أن مرض محمد كان مصحوباً بتلك الظواهر - ويقول أنه فى « شبابه كان يعيش حياة متحفظة ولكنه لم يكن معفيا من الشك فى أن يقع فى الخطيئة المذكورة فى سفر التكوين - إصحاح (٣٨ - ٩) ماذا يريد « شبرنجر » أن يقول بالرجوع إلى هذا المصدر ؟ إن الآية التى يرجع إليها تتحدث عن « رجل كان يستمنى بكفه «ولأنه كان لا يريد أطفالاً من زوجة أخيه المتوفى حيث كان مضطراً للزواج بها بعد وفاة أخيه حسب قوانين الزواج اللاوى ولذلك كان يبتعد عن تلك المرأة فى حالة قذف المنى حتى لا يدخل ماءه فى فرج هذه المرأة . بمعنى أدق فإن هذا هو «الجماع المتقطع » ولذلك فإن شبرنجر يريد أن يقول هنا على الأقل أن محمداً كانت عنده عادة الاستمناء وهى تعنى فى المعنى المعاصر « العادة السرية » ولكن هذا ليشهد على حقارة ودناءه من جانب شبرنجر .

وينهى هذا الفصل متهماً محمداً بالنزعة الجنسية المفرطة أى النشاط الجنسى المحموم الناشىء عن رغبة جامحة Satyriasis والمقابل له عند النساء هو الشبق Nymphomanie ، ونناقش الآن هذه القضية التى أثارها شبرنجر تحت دعوى القواعد العلمية . ولكنها لم تكن سوى اتهام تقليدى من القرن الثامن عند الكتاب البيزنطيين وعلى رأسهم « ثيوفان » [١] المتوفى ٨٢٠) .

ولكن قبل أن ندلى برأينا ، نسوق أراء المستشرقين الذين فندوا حجة شبرنجر .

١ - نسوق أولاً رأى « تور أندريا » .

حيث يقول : « لقد انتهينا منذ وقت طويل من هذا النص (أحد الأحاديث التى رواها آنفا) من أن محمد كان مصابا بالصرع . وقد اكتشف كتاب بيزنطيون

---

(١) ثيوفان - الوقائع التاريخية - ط . دوبورا - (ص ١٣٤) .

هذا الألم وبعد وقت طويل وصف بعض الكتاب الغربيين محمداً بهذا اللقب الذى يعد إلى حد ما مدحاً حيث اعتبروه عدو المسيحية اللدود . وحتى فى العصر الحديث فإن هناك بعض الكتاب ما يزالون يقعون فى نفس الخطأ بتأثير بعض إنجازات الطب النفسى التى لا تعدو السطحية العلمية . وأصبح فى حكم الموضة القول بأن الحالة النفسية يمكن أن يأتى الوحى من خلالها كما يفعلون نفس الشىء حين يحددون كل الحالات النفسية من الرعدة وفقدان الوعى الفجائي بأنها أعرض صرع . وبالطبع فسيقال إن محمداً كان مصروعاً . ولكن إذا طبقنا هذا المصطلح على الحالات المرضية الخطيرة حيث يكون للمرض عواقبه الوخيمة على الجسم والروح فإننا سوف نحترم إذاً ونقبل بالزعم بأن محمداً كان مصروعاً . وهنا لن نستطيع فى هذه الحالة أن نتحدث عن الحالة التى نسميها مرضية لأن الملهم يكون له عبقريات أخرى أدبية أو دينية بدعوى أنها تظهر فى أشكال واضحة - تخرج من مشكاة واحدة .

ومن ناحية أخرى ، فلنتفق على أن نولى أهمية للروايات التى وردت فى السنة وهى متعلقة بنزول الوحى على النبى . فبعض الملامح المنفصلة لهذه الروايات يمكن أن تكون دقيقة وتتفق مع ما نعرفه عن الذين يلهمون عادة . وذلك مثل صلصلة الجرس واختفاء الحرارة . وهذا يحدث غالباً . ولكن المناخ العام فى المجتمع الإسلامى القديم مع قسوته وشدته يفسر لماذا يحمل الخيال على زيادة الوزن الملحوظة مما يجعل من بتلقى الوحى يسقط على الأرض . . . إنه لمن الصعب أن نستخلص نتائج نفسية من تلك المعطيات التقليدية عن حال محمد وقت نزول الوحى (١) .

٢ - « فرانتس بول » يناقش هذا الموضوع من وجهة نظر صدق محمد حين يتحدث عن نزول الوحى الذى يستقبله والأشياء التى يراها فيقول (٢) :

« كيف يجب الحكم على هذه الرؤى والوحى بصفة عامة وهوالقرآن ! لقد

---

(١) تور أندريا - محمد - حياته ومذهبه ، الترجمة الفرنسية - (ص ٥٠ - ٥١) .

(٢) فرانتس بول - حياة محمد (ص ١٣٨) ، ليبزج (١٩٥٥) ، وكانت الطبعة الدانماركية الأولى قد ظهرت عام (١٩٠٣) وقام بالترجمة الألمانية هـ . هـ شادر وظهرت عام (١٩٢٩) والطبعة الثانية عام (١٩٥٥)

كان يحكم على هذه الأشياء فى وقت ما بشكل متسرع وبسطحية حيث يوصف محمد بأنه كذاب وتوصف رؤاه بأنها مخترعة ومحض خيال وتأملات . وفى انتظار البحث ، أثبت العلم المعاصر أن مثل هذا التفسير ليس سطحياً فقط من وجهة النظر النفسية ولكنه أيضا يتعارض مع الحقائق الثابتة والتى نجدها فى القرآن والسنة . ولذلك فما من شك فى أن محمد فى رؤاه كان فى حالة يرى فيها حقا أشكالاً معينة ويسمع أصواتاً. تماماً مثلما وصف هو فى أحاديثه. وفى سلسلة من الأحاديث يروى كيف أن وحى النبوة كان ينزل عليه فيسقط فى حمى شديدة وتغطى قطرات العرق جبهته، ويتغير لونه ويصبح وجهه أحمر كما لو كان محموماً حتى لو كان فى يوم شديد البرودة من أيام الشتاء ويتنفس بصعوبة بالغة تشبه غطط البعير . ويجب ساعتها أن يغطوه جيداً ويضعوا وسادة من الجلد تحت رأسه.

ويقول محمد عن نفسه فى هذه الحالة أنه يسمع صوتاً يشبه حديث الرجل إلى الرجل ومثل صلصلة الجرس وهذا يكون شاقاً عليه . . وفى الحقيقة إن هذه الأوصاف ضمنت قبل كل شىء أن تساهم هذه الحالات الغريبة أكثر من غيرها فى تقوية الإيمان الذى لا يتزعزع من قبل أصحابه فى المصدر غير البشرى للوحى الذى ينزل عليه مما جعل واحداً مثل « عمر » الذى كانت له نظرة ثاقبة فى العيوب البشرية للنبى لم يشك أن الله استعمل محمداً ليحمل رسالته . وكانت هذه الأعراض هى التى أعطت الفرصة لأعدائه لاتهامه بالاتصال بالجن . . .
وهناك دليل آخر على صدق ما قال وهو ما كان معروفاً منذ وقت مبكر وانتشر بين الناس من أن محمداً كان يعافى من حالات مرضية وغير عادية مما يعتبره البعض صرعاً . ولكن لأن محمداً كان يحتفظ بوعيه طوال هذه الأعراض فإن تفسير حالته بالصرع لا يكون دقيقاً . فلنترك للأطباء النفسيين أن يحددوا بعناية طبيعة هذه الحالة . وحسب الأحاديث المروية فإن حالته يجب أن تفسر على أنها « هلوسة سمعية » ومع ذلك فإنه يوجد فى القرآن أوصاف للهلوسة البصرية والتي يمكن أن نسميها بفضل الوصف المتحفظ بأنها « محتشمة » وهى تشتمل على دليل جديد أنه من الظلم والخطأ أن نظن أن محمداً كان مخادعاً أو كاذباً . وفى سورة النجم ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ (آية ١٧ ، ١٨) ، ويجب أن نضيف هنا ما جاء فى سورة التكوير : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ،**

ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ (سورة التكوير الآيات من ١٩ - ٢٥) ، والكذاب لا يتكلم هكذا ، ولكن الذى يتكلم هكذا رجل مقتنع تماماً بحقيقة ما رأى ووعيه تام قائم على حقيقة ما رآه (السابق ص ١٣٨ إلى ١٤٠) .

وينهى « بول » كلامه قائلاً : « إننا لا بد أن نصل إلى فهم كامل لشخصية محمد عندما ندقق فيما كانت عليه حالته فى الفترة الأولى من ظهوره فى مكة وقد كان على خلق عظيم وشخصية مستقيمة ونموذجية بشكل يسترعى الانتباه (السابق ص ١٤١) ، ولكن شخصية محمد فى مكة بعد ذلك سرعان ما طرأ عليها تغير حسب ظروف حياته هناك والتى كانت تتطلب كثيراً من الاعتبارات الواقعية والتحفظات التى يمليها الموقف ، ولكنه وكما يقول « بول » يجب أن نكون حذرين فى توجيه مثل هذا الاتهام إلى محمد وهو رجل ظل حتى آخر رمق من حياته مقتنعاً تماماً بحقيقة المصدر الإلهى لرسالته وحتى ساعة موته لم يشك لحظة فى هذا الأمر . ولذلك لا بد أن نصل إلى الحقيقة عندما نفترض وجود عارض نفسى كان من الممكن لمحمد بواسطته أن يتذكر هذه الظروف المرضية دون أن يكون واضحاً أمام عينيه ودون أن يلاحظ أى فرق فى الموضوعية بين الأعراض الناشئة عن هذا المرض وتلك التى كانت تحدث له قبل ذلك . إن المقدرة العقلية لرجل كهذا المفروض أنه مصروع هو ظاهرة تنطبق تمامًا وتتفق مع الحكم عليه بمنطق بسيط سهل أنه رجل طبيعى يخلو من المرض (السابق ص ١٤٢ - ١٤٣)

وبهذين الرأيين لكل من « تور أندريا » و « بول » كم نحن بعيدين عن الافتراءات التى لا مبرر لها والتى تنم عن سوء نيه من جانب « شبرنجر » ونلخص هنا أراد تور أندريه وبول :

(أ) « تور أندريا » يرفض الإدعاء بأن محمداً كان مصروعًا .

(ب) الحالة التى كان عليها محمد إبان نزول الوحى لا يمكن أن توصف بأنها حالة « مرضية » إن لم توصف بأنها إلهام لكثير من العبقريات الأدبية والدينية بدعوى أنها تظهر فى أشكال واضحة وتنبع من مكان واحد .

(جـ) يجب التحفظ من أن نولى أهمية كبيرة لروايات السنة المتعلقة بنزول الوحى على النبى .

(د) الوحى النبوى هو التعبير الطبيعى والضرورى عن الاقتناع القوى » .

هذه القضايا الأربعة تكفى لدحض افتراءات شبرنجر وأمثالها فى هذا الصدد . كما أنها تمثل تقدمًا ملحوظًا فى الفهم الدقيق والعادل لشخصية محمد . ولأن كتاب « تور أندريا » ، قد ظهر عام (١٩٣٢) ، فإنه يمثل أيضًا تقدمًا ملحوظًا بالقياس إلى كتاب « بول » حيث ظهرت منه الطبعة الدانماركية الأصلية عام (١٩٠٣) .

(أ) لأن بول يؤمن بصدق الروايات المتعلقة بالحالات المصاحبة لنزول الوحى فإن يفتقد روح النقد تجاهها .

(ب) بول ليس مقتنعاً تمامًا بما يقوله شبرنجر وهو أن محمدًا كان مصابًا بالهيستريا ولكنه لا يذكر ذلك إلا بشكل عارض (ص ١٢٢ ، ١٨١) ، مؤكداً أن الأمر ظاهرة معقدة ولذلك لا يمكن أن تتطابق ببساطة مع المنطق لأنه لا يجوز الحكم على محمد كحكمنا على رجل عادى .

(جـ) يؤكد « بول » مثله مثل « تور أندريا » أن محمدًا كان صادقًا حينما قال أنه يتلقى الوحى لأنه كان مقتنعاً تمامًا برسالته حيث اعتقد اعتقاداً جازمًا أنه يسمع صوتًا من أعلى يتلو عليه القرآن .

وهكذا نرى أن قضية إصابة محمد بالهيستريا أو بالصرع قد تخلى عنها المستشرقون منذ بداية القرن العشرين ولم يعودوا يتكلمون عنها إلا كذكرى تاريخية ولكنها تركت المجال لكثير من الشروح الأخرى .

ولكن قبل التعرض لتلك الشروح الأخرى نعرض لتناول هذه القضية من جانب « شبرنجر » :

١ - كما أوضح « تور أندريا » ، فإنه يجب الحذر فى الوثوق بالروايات المتعلقة بالحالة النفسية والبدنية لمحمد إبان نزول الوحى وهى القصص الموجودة تحت اسم أحاديث لدى كتاب السنة أو السيرة (وخاصة ابن إسحاق وابن سعد)، ويجب فى هذا الصدد أن نذكر أن هذه الآثار ليست أحاديثاً بالمعنى الدقيق للفظ أى كلام النبى أو أفعاله ولكنها ملاحظات من جانب من كانوا حول النبي مثل : زيد بن ثابت وعبادة بن الصامت وابن عباس وعائشة . وهذه الملاحظات لا تتطلب حتى عناء تحقيقها مثلما هو الحال فى أحاديث النبى نفسه ويجب أن

يساورنا الشك فى علاقة الملاحظات التى ينقلها الرواة عن أصحاب النبى بكلام الرسول نفسه .

٢ - حتى هذه القصص تأتى حقا من أناس معروفين بالاسم وهؤلاء الناس يعتقدون بوجود ظواهر غير عادية أثناء نزول الوحى تحت تأثير انتظار الوحى وقد اعتقدوا بحدوث أشياء غيرعادية ولكن الأمر لا يعدو أن يكون عاديا وطبيعيا . وهو أمر يحدث دائمًا ونراه كل يوم . وأتباع أى رجل عظيم متحمسون له يعتبرون أن ما يرونه من جانبه من أحداث بسيطة كأنها أحداث غير عادية وهذا ما جعل الناس يتصورونها كذلك - ما هو الغير عادى أو غير الطبيعى فى أن ينضح العرق من جبين محمد فى يوم بارد حين تعتريه أشجان قوية ، وكمثال بسيط على ذلك نذكر حالة أنور السادات فى الكنيست فى القدس فى نوفمبر (١٩٧٧) حيث كان جبينه يتصبب عرقًا طوال الوقت ولكننا لم نجد فردًا واحدًا يقول : إن هذا العرق فى هذا المكان البارد كان أحد أعراض الهيستريا !

وما هو الغريب فى إنسان مشغول بمشروع أو فكرة مهمة حين يعتقد أنه يسمع من داخله صخبا مثل صلصلة الجرس وصوت محدث يهمس إليه بشىء ما ؟

إذًا فهو خيال شهود الواقعة الذى بالغ فى الموضوع وحول الأحداث العادية إلى دراما .

إنه لمن المدهش أن هؤلاء المستشرقين الذين يتسرعون فى نقد الأحاديث يصدقون بسهولة الأحاديث المتعلقة بحالة النبى خلال استقبال الوحى .

٣ - وكما لاحظ « موريس جودفروا ديمومبين [1] (ورأى الآخرون فى محمد إنسانًا مصروعًا وعرفوه بأنه كاذب وغير مسئول - لكن الصرع يسلب ذاكرة المريض بينما القرآن كتاب معتبر ويدل على انتباه وفصاحة » .

فى الواقع ليس هناك أكثر عبثاً من وصف محمد بأنه كان مصابًا بالهيستريا أو بالصرع إن تصرفاته قبل البعثة وبعدها حتى موته تشهد بعدم وجود أية علامة على

---

(١) موريس جودفروا ديمومبين - محمد - (ص ٧٢) ، باريس الطبعة الثالثة (١٩٦٩) .

إصابته بالهيستريا أو الصرع أو الاثنين معاً . لنرى مقاماً هى أعراض الهيستريا وكيف كان سلوك محمد طبيعياً مضاداً تماماً للهيستيريا :

(أ) المصاب بالهيستريا قابل للتأثير مع اتجاه للتشبه بالأمراض العضوية [1] .

بينما يتفق كل كتاب السيرة المسلمون على التأكيد على صلابة وقوة احتمال واستقرار نفسية محمد أمام كل العوامل الخارجية وقد كان ذا سلوك حازم بما لا يدع مجالاً للشك .

(ب) المصاب بالهيستريا يخاف من الانزعاج ويسير فى سلوكه تبعاً لسلوك الآخرين » بينما لم يكن لدى محمد أى خوف من أن يزعجه أعداؤه ، ناهيك عن أنهم أقاربه المقربين ولا أى ممن لا يؤمنون برسالته فلقد كانت حياته منذ نزول الوحى كفاحاً مستمراً لم تخل من الاهتمامات . وأى محارب مثابر لا يمكن أن يوصف بأنه يخاف من الانزعاج .

(جـ) إن شخصية المصاب بالهيستريا شخصية متقلبة وفجة مع أنانية مفرطة وحاجة إلى الحماية تظهر بوضوح .

وكل هذا أبعد ما يكون عن شخصية محمد حسبما تورد شهادات معاصريه فلقد كان لمحمد شخصية قوية فى صلابة الصخر وكان دائماً ثابتا كما تشهد علاقته بأصحابه على إيثار لا ينقطع فى أشد حالات حياته خصاصة ، وحتى صار كرمه ورحمته تجاه أعدائه الذين اضطهدوه كثيراً مضرب الأمثال (انظر تصرفه مع أعدائه المكيين بعد فتح مكة)

(د) تستمر الاضطرابات الجنسية عند المصاب بالهيستريا وقد تصل أحيانا إلى العجز الجنسى وهذا بالضبط خلاف ما أثبته كتاب السيرة المسلمين الذين يزعمون حتى أن محمداً على عكس ذلك كان فيما يخص الناحية الجنسية له قوة ثلاثين رجلاً . وقد كانت هذه إحدى الاتهامات التى ركز عليها الكتاب المسيحيون الأوربيون ضد محمد : فقد اتهموه بالإفراط الجنسى .

(هـ) « المصاب بالهيستريا يؤلف عن نفسه قصة ويضخم تفاصيل حياته اليومية

---

(١) اقتبسنا هذه الأوصاف من مقال « الهيستريا » فى « لاروس الجديد » قاموس طبى - باريس (١٩٨٦) (ص ٥١٤)

ويبتكر بسهولة بعض الذكريات ويعطى من حوله إحساسًا بعدم صدقه فى حديثه أو حركاته » .

وهذه الأشياء متناقضة تمامًا مع سلوك محمد . فلقد كان يسمى دائمًا «الصادق الأمين » ولم يتحدث عن تفاصيل حياته اليومية ولم يؤلف أو يتظاهر بشىء غير حقيقى أمام الناس ولذلك فقد أخبر أتباعه بفضل صدقه وحسن سيرته وتواضعه وكذلك لاعتيادهم على صدقه أجبرهم على طاعته كما لم يعط أى انطباع لمن حوله عن عدم صدقه وإلا لما كان من الممكن أن ينجح فى وقت قصير (عشر سنوات) ، فى تحويل الجزيرة العربية كلها إلى دين الإسلام . إذًا لم تظهر أى من أعراض الهيستريا فى سلوك محمد طوال حياته .

ومن باب أولى فإنه لم يكن مصابًا بالصرع حيث أعراض الصرع تظهر بقوة وبعنف وبوضوح وفى الواقع لم يرو عن محمد حدوث أى أزمة من أزمات الصرع حيث لم يحدث له أن فقد التركيز أو حدثت له تشنجات شاملة أو أى أزمة استمرت لساعة أو ساعتين ولم تحدث له أزمة كان يمكن أن يفقد فيها السيطرة على بوله ، وأخيراً لم يحدث له أن فقد الذاكرة إذ إنه لمن الغباء أن نرى «شبرنجر» يصف محمداً بأنه مصاب بالهيستريا وحتى الصرع وأن يكرر مستشهداً كما يزعم بالتحليل النفسى وكل تلك الافتراءات السخيفة التى أطلقها ثيوفانس والكتاب البيزنطيون الآخرون .

ولكن بحلول النصف الثانى للقرن التاسع عشر كان التحليل النفسى هو الموضة السائدة بفضل « جان مارتان شاركون (١٨٢٥ -- ١٨٩٣) وبير چانيه (١٨٥٩ - ١٩٤٧) من الفرنسين و « شونلين (١٧٩٣ - ١٨٦٤) وبرنر (١٨٤٢ - ١٩٢٥) من الألمان والنمساويين .

وكانوا يفسرون العبقريات العظيمة فى العلوم الإنسانية فى ضوء البحوث النفسية. وقد رأوا أن العبقرى شخصية غير عادية ولذلك فهو مصاب بنوع من الجنون . وكان يكفى أن يكون الإنسان أعلى من سواد البشر ليوصف بالجنون . وقد ظهر أدب واسع فى نهاية القرن الماضى وصل فيه هذا التوجه إلى قمته . وقد وصل هذا الاتجاه إلى منتهاه مع « فرويد » وتلامذته . ونذكر من ضمن أشهر ضحاياهم : « ديستوفسكى » و « نيتشه » و « بودلير » و « كليست » و « هودرلن »

و « شترنوبرج » و « فان جوخ » وفى كتاب يسمى « الانحطاط » للكاتب المجرى « ماكس نوردو » (١٨٤٩ - ١٩٢٣) ، وهو كتاب ظهرعام (١٨٩٢) فى جزئين، يرى الكاتب أن كل العبقريات العظمية تقريبا كانوا مجانين : وبنفس الروح كتب « شبرنجر » هذه الصفحات حول النبى محمد (مج افصل ٣ ص ٢٠٧ - ٢٦٣).

٤ – محمد : صوفى ؟

وبشكل عبثى وحتى يتخلوا عن تلك الدعوى القائمة على غير أساس من أن محمدًا كان مصابًا بالهيستريا أو بالصرع بحث المستشرقون عن تفسير آخر لحالات النبى قبل وأثناء نزول الوحى .

وهذا التفسير الآخر يستند على النظر إلى محمد باعتباره صوفيا . والفكرة ليست جديدة حيث رأى المتصوفة المسلمون فى محمد قدوتهم الروحى على طريق التصوف حيث نجد فصلا فى كتابات متصوفة المسلمين بعنوان « الاقتداء بالنبى»(١) .

وكان أول مستشرق يعتمد ذلك التفسير هو «لويس ماسينيون» Louis Massiynon فى رسالته «مقال عن أصل المعجم الفنى للتصوف الإسلامى » (باريس ١٩٢٢) وفيه أوضح كيف أن الحالات الروحية التى كانت تحدث لمحمد عشية بعثته وبعد الوحى مشابهة للحالات الروحية للمتصوف الذى لم يصل بعد إلى حالة «الواصل » .

ثم جاء « تور أندريا » فى كتابه « نفسية المتصوفة » ليؤكد أنه « يوجد فى ظاهرة الوحى نوعان مختلفان : السمعى والبصرى . فى النوع الأول يسمع صوت يتحدث إلى الأذن أو إلى النفس – والكلام الذى يطلقه الموحى إليه يظهر غالبا فى شكل واضح ومحدد وغالباً منظوم . ونجد أمثلة كثيرة من هذا النوع من الوحى لدى الشعراء الفنانين : ولا يعمل المرء شيئا ولكن يسمع فقط «كما لو كان شخص غير معروف يتحدث إلى الأذن » كما كتب « الفريد دوموسيه » .

وعلى العكس من ذلك النوع المرئى حيث يعتمد الوحى على رؤى قابلة للتشكل ومتمايزة أحياناً ولكنها غالباً غير مؤكدة ومتقلبة وخيالية مثل رؤى

---

(١) انظر كتابنا « تاريخ التصوف الإسلامى » مج ١ الكويت – (١٩٧٥) .

الأحلام . وقد تكون مصحوبة بأفكار تشكل نوعاً من النص الذى يشرحه ويضفى عليها معنى الرؤى - إنها أحياناً عمق غامض ومغرى يجعل العقل يخمن أنه لن يفهمها صراحة . وألوان الوحى هذه تتميز بتمامها وكثرة تفاصيلها وتداخلها . والوحى السمعى أو الغنائى يقترب نفسيا من الإطراء العاطفى . بينما يقترب البصرى من الحالة المرضية .

ومحمد ينتمى بكل تأكيد إلى النوع السمعى . وكان الوحى الذى يسمعه عبارة عن صوت اعتقد أنه صوت جبريل (١) .

ولكى يشرح الروايات المذكورة فى السنة والمتعلقة بحالة محمد إبان الوحى يؤكد تور أندريا أن الوحى « يأتى بصحبة حالة نفسية خاصة وهى : اضطرابات حقيقية ، أو عميقة وغياب الشعور وخاصة فى النوع المرئى ويصل ذلك أحياناً إلى فقد الشعور تمامًا » (السابق - ص ٤٨) .

ولكن التفسير الخاص بتصوف محمد له حدود يجب أن تحدد فمحمد لم يكن صوفيا على طريقة الحلاج أو البسطامى أو ابن عربى ولا حتى على طريقة الغزالى أو الجنيد . ولكنه كان عبارة عن تزيد فى تقوى الله مع الاحتفاظ بالشعور دائما وإلا لما كان من الممكن أن يكون هذا المنظم العظيم لدولة كبيرة ولا هذا المخطط الكبير للحروب ولا هذا السياسى العظيم فى تصريف شئون الدولة . ولذلك فمن المستحيل أيضا أن نقارن تصوفه بأى تصوف آخر عبر التاريخ . وإذا كان متصوفا فهو متصوف من نوع متفرد .

وإذا كان متصوفة المسلمين قد حاولوا تتبع مظاهر التصوف عند النبى فليس ذلك لشىء سوى دعم قضيتهم فى مواجهة الهجمات التى كانت تتوالى عليهم من معسكرات الفقهاء وعلماء التوحيد . ولذلك فالإعلان عن أن نموذج التصوف هو النبى محمد هى كسب لنصف - إن لم يكن كل - المعركة .

فى الواقع إن التصوف عند محمد كان محدوداً فى نطاق الزهد والنسك المعتدل والخلو الروحى فى غار حراء والصلوات التهجدية طوال الليل واالصيام . باختصار لم يكن لدى محمد من التصوف سوى الحد الأدنى المطلوب لمؤسس دين .

* * *

---

(١) تور أندريا - محمد - حياته ومذهبه . الترجمة الفرنسية (ص ٤٧ - ٤٨) .

الفصل الثانى

حسية الرسول المفترى عليها

وهده قضية أخرى لطالما أثارها دارسو الإسلام والكتاب الأوربيون وهى الشبق الجنسى عند محمد وحجتهم الوحيدة التى يسوقونها هى أنه تزوج بثلاث عشرة امرأة فلنذكر بداية آراء بعضهم فى هذا الموضوع

١ - « شبرنجر » (حياة محمد وثقافته مج ٣ ص ٦١ - ٨٧) ، وقد خصص ملحقاً (فى الفصل ١٧) بعنوان « زوجات النبى » ، حيث يعتمد فى هذا الفصل على كتاب الطبقات لابن سعد (جـ ١٢) ، حيث يعطى نبذة مختصرة أو مطولة عن كل زوجة من الأربع عشر ويتحدث أيضا عن نساء ملك اليمين أى الإماء ومن أعطوا هدية للنبى ويذكر منهم مارية القبطية .

وبعد أن ذكر تلك التصنيفات وهى حشو من الملاحظات غير المطلوبة فيما يخص النبى ساق شبرنجر هذا التعليق .

« برغم أن تعدد الزوجات بين العرب قبل محمد كان شائعاً ألا أن الإفراط فيه كان يعد عملاً غير أخلاقى ولذلك وجد محمد أنه لا بد أن يهدأ الرأى العام بوحى خاص : فلقد أباح الله له فى الآية ٤٩ من سورة الأحزاب الحرية المطلقة فى عدد واختيار الزوجات أكثر من بقية الرجال وقد أراد المسلمون أن يبرروا ذلك وقد استلزم ذلك منهم بعض الصعوبات القليلة حيث كانت واحدة فقط من زوجاته هى التى أنجبت ولكن تحتم عليه هو نفسه أن يعترف أن الهدف الذى كان ينشده من وراء الزواج قد فشل فى تحقيقه نتيجة طريقته فى المعيشة ولذلك فإن الهدف الوحيد من وراء الإفراط فى عدد الزوجات هو ما أوضحه محمد بنفسه فى حديث صحيح حيث يقول « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة » ويضيف المسلمون أن النبى ﷺ كان مكلفاً بمهمة شاقة وأن الله عوضه عن ذلك بالمتعة الجنسية ولهذا فقد كانت قوته الجنسية أكثر من قوة ثلاثين رجلاً مجتمعين ولم ينس فى هذا الصدد أن يذكر حالة إبراهيم وداود وسليمان (مج ٣ ص ٨٦ ، ٨٧) ولنا الملاحظات التالية على تعليق «شبرنجر»

(أ) لقد كان تعدد الزوجات عند العرب قبل الإسلام غير محدود ولم يلام

على أي عربى قبل الإسلام لزواجه بعدد كبير من النساء وليس هناك أى نص يدل على اللوم من هذا التصرف وحتى الزواج بأكثر من واحدة لا لوم عليه فى الإسلام بشرط أن لا يزيد على أربع نسوة مرة واحدة فى نفس الوقت ونحن نعرف مثلاً « أن على بن أبى طالب » صهر النبى والخليفة الرابع قد تزوج بأكثر من مائتى امرأة وأن ولده الحسن وكثير من أئمة الشيعة قد تزوج كل منهم بأكثر من عشرين امرأة وقد تزوج المغيرة بن شعبة بأربع وعشرين امرأة خلال حياته (١) وفى أيامنا هذه نجد ملوك وأمراء الخليج يتزوجون عشرات المرات .

(ب) الآية ٤٩ من سورة الأحزاب لا تتناول أى لوم من جانب الرأى العام للنبى فيما يتعلق بعدد واختيار الزوجات إنها تحدد حدثا معينا وهذا هو نصها :

﴿ **يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ [الأحزاب : أية ٥٠] .

كلمة « من دون المؤمنين » تعود فقط على « المرأة المؤمنة » التى تهب نفسها للنبى إن أراد أن يستنكحها « وذلك يعنى أن النبى له الحق فى الزواج بهذه المرأة فقط ليس إلا ، إذاً فبأى حق نفسر هذه الجملة من الآية على أنها رد على لوم وجهه الرأى العام للنبى فيما يتعلق بادعاء متميز للنبى أن يكون له عدد كبير من النساء أكثر من غيره من الناس وحسبما يورد مفسرو القرآن المسلمون فإن التميز الوحيد للنبى فى هذه الآية يعتمد فقط على أن محمداً له الحق فى أن يتزوج من امرأة وهبت نفسها له إن وافق على الزواج بها دون أن يتحتم عليه دفع مهر لها وقد ذكروا حالة « زينب بنت خزيمة » المعروفة « بأم المساكين » (٢) .

---

(١) انظر « ألف ليلة وليلة » مج ١ ص ٣١٩ ، سميث ، التسرى والزواج فى الجزيرة العربية .

(٢) انظر الطبرى : مجمع البيان فى تفسير القرآن جـ٥ ص ١٥٥ بيروت - مكتبة الحياة. وقد قيل نفس الشيء عن ميمونة .

ومن هذا المثال يتضح لنا بجلاء كيف أن المستشرقين قد أساءوا فهم القرآن واستخلصوا نتائج خاطئة ولسوء نية فقد حرفوا فهم النصوص الواضحة لا سيما القرآن

(جـ) ووقع فى نفس الخطأ « فرانتس بول » حيث أكد بكثير من الصلف كما هو الشأن طوال كتابه الذى يطفح بالكراهية والتعصب ضد محمد والإسلام ، وفى رأيى إن كتاب فرانتس بول « حياة محمد » هو أحد أكثر الكتب حقارة عن النبى والإسلام

وهذا ما قاله : « إن محمداً يبدو لنا بصورة مثيرة للاشمئزاز : حين يجعل الوحى فى خدمة شبقه الجنسى ومحاولة نفى التهمة عنه هى مشروع جرىء لكنه بلا أمل ويذكر فى ملحوظة خاصة كمثال على هذه المحاولة القول بأن محمدا تزوج هذا العدد الكبير من النساء ليتألف القبائل . ولكى يوضح عدم كفاية هذا التفسير فإنه يذكر حب محمد لزوجة ابنه بالتبنى « زينب بنت جحش »

ثم يواصل حديثه هكذا « لقد ذكرنا أنه منذ وقت مبكر تزوج خديجة ولم يتزوج بامرأة أخرى طوال حياة خديجة ولكن بعد موتها تزوج من جديد ومن ذلك الحين لم يكف عدد نسائه عن الزيادة ثم سمح لصحابته حسب قانون سنه بالمدينة حسب تفسير نبوى للآية ٣ من سورة النساء بأن يتزوجوا حتى أربع نسوة وما ملكت أيمانهم من الإماء مما طاب لهم ثم بعد ذلك فيما يخصه هو بالغبن من جزء هذا التحديد فسمح لنفسه دون سائر الباقين بنكاح ما شاء من النساء حسب الرخصة الإلهية المذكورة فى آية ﴿ **يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك ...** ﴾ الآية الأحزاب آية ٤٩ وقد بينا فى معرض حديثنا عن شبرنجر هذا التفسير لتلك الآية مما لا يستلزم تكراره حيث لم يفعل بول سوى تكرار ما قال شبرنجر من هذيان

أما عن الملحوظة التى ساقها على هامش كلامه (ص ٣٦٠) فسنتناولها فيما بعد.

٣ - « تور أندريا » [١] وقد قال ما يلى فى هذا الموضوع :

---

(١) تور أندريا - محمد - حياته ومذهبه الترجمة الفرنسية (ص ١٨٧ - ١٩٠) .

« إن السمة التى نفرت المسيحيين الغربيين من سلوك محمد هى بلا أدنى شك إفراطه الجنسي وافتقاده لضبط نفسه والسيطرة عليها فى هذا الشأن وذلك يبدو لنا أوضح إذا قسناه بأخلاق مسيحيى القرون الوسطى الذين ورثوا التنسك القديم . والذين كانوا يبالغون فى النص على الآثام التى ترتكب بدافع جنسى : فالأخطاء المرتكبة فى هذا الميدان تعد أخطاءً لا تغتفر ولذلك فإن يهود المدينة وجدوا أن سلوك محمد فى هذه النقطة مصدم وقالوا : « يا له من نبى غريب ذلك الذى لا يفكر إلا فى الزواج » ، ومما لا يمكن إنكاره أن نبيا يعلن أن النساء والأطفال هم زينة الحياة الدنيا ثم يجمع لديه من الحريم تسع نساء وكثيراً مما ملكت يمينه يبدو محل شك من الناحية الأخلاقية . ولا ينفعه فى شيء التأكيد على أنه حتى موت خديجة وحتى بلوغه الخمسين من عمره اكتفى بزوجة واحدة . فقد كان قمة تصرفه حين أوهنت قواه السنون ترك العنان لغرائزه الجنسية « إننا لا نحكم على النبى محمد حسب مفهومنا الأخلاقى ولكن حسب أخلاقه التى أعلنها وذلك حتى نفهم رأيه فى هذا الصدد فإننا يجب أن نتعرف على عادات الجزيرة العربية قبل الإسلام والظروف التى جعلت من سلوك محمد الجنسى نشازاً بين العرب ولا يجب أن نعجب إذا كانت هذه الأخلاق الجنسية التى نحكم عليها بطبعنا ذات مستوى متدنٍ . فلقد كان تعدد الزوجات أمراً شائعاً . وقد كان عدد النساء فى أحيان كثيرة يتجاوز ما يكفى لمتعة الإنسان . وكان الطلاق يحدث وبلا مراسم وحين نضع أمامنا هذا المفهوم العربى للأخلاق المتعلقة بالزواج فإن شهوانية محمد بشكل مختلف . إننا نجهل بشكل موضوعى ما إذا كان المعاصرون لمحمد قد رأوا أن سلوكه مصدماً أو أقل قبولاً . . . وعلى أى حال فإنه من المسموح به أن نفترض أن توبيخاً من جانب المسلمين جعل محمدا يحدد فى سورة الأحزاب آية ٥٢ عدد زوجاته ، وقد أعلنت الآية أنه لم يعد مسموحاً لمحمد أن يتخذ زوجات أخريات حتى وإن أعجبه حسنهن . ومن الواضح أن تميزه عن المسلمين فى موضوع الزواج كان قد أحدث غضاضة عند المسلمين . وربما أيضا كان هذا القرار من محمد عبارة عن تنازل وتميز لزوجاته وكان هذا لغرض لا نعرفه حيث كان محمد قبل ذلك على خلاف معهم حين هم بطلاقهن جميعاً .

« ويجب أن تقول أيضا فى تبرئة محمد أنه التزم بالحدود التى حدها وأنه حاول أن يقلص بتشريعه الحرية القصوى للممارسه الجنسية . ولقد حاول بطرق

عديدة أن يدخل مفهوماً أكثر أخلاقيه فى الزواج وكذلك إعلاء شأن المرأة لا سيما فى منحها الحق القانونى فى الميراث والذى لم يكن يعطى لها إلا مصادفة قبل محمد . وقد أمر بمعاملة النساء بالمعروف والمودة والعدل » ويوضح حديث « تور أندريا » مفهوماً أكثر دقة عن أفكار وتصرفات محمد فيما يخص موضوع الجنس والنساء والزواج حيث :

(أ) اعتبر أن تعدد الزوجات عند محمد يجب أن يقارن بمثيله عند العرب قبل الإسلام . وقد أكد أن « عدد النساء كان يمكن أن يكون أكثر بكثير من العدد الذى يشبع رغبات الرجل . بينما حد محمد من مساوئ التعدد الغير منضبط حيث أوقف العدد عند أربع نسوة فى نفس الوقت وهكذا « فقد حاول بتشريعه إيقاف حرية التعدد الجنسى »

(ب) يؤكد تور أندريا أيضا أن محمداً قد « أدخل مفهوما أكثر إلزاما بالأخلاق فى الزواج وأعلى شأن المرأة لا سيما فى منحها حق الميراث .

(جـ) أكد خلافاً لما أكد أسلافه « شبرنجر » و « بول » « أننا نجهل موضوعياً إذا كان معاصرو محمد قد رأوا فى سلوكه شيئاً مصدماً أو أقل قبولاً » ، وبهذا فقد رفض التصور الخيالى لأسلافه

(د) وقد عدل عن رأيه بصدد الحديث عن سورة الأحزاب آية ٥٢ والتى رأى فيها « تنازلاً لنساء محمد لسبب نجهله حيث كان على خلاف معهن وكان قد عقد العزم على طلاقهن جميعاً »

(هـ) وقد كان على حق أن يوضح أن « الأخلاق المسيحية فى العصور الوسطى وهى وريثه التنسك القديم وقد بالغوا فى الخطيئة المتعلقة بالغريزة الجنسية . وكانت الأخطاء المرتكبة فى هذا الصدد عبارة عن مجرد خطيئة .

ولذلك كان التنكر للمتعة الجنسية لا يعد فضيلة . ولم يكن يستحق التوبيخ فى هذا الصدد سوى الازدياد من النساء بشكل مفرط مثله فى ذلك مثل الإفراط فى أى شىء . فى الرهبنة ، وفى التشدد الدينى وفى التعصب .. إلخ وقد أدان مارتن لوثر المصلح الكبير الرغبة فى التنسك لأنه صعب التحقيق لأن لذة الجسد كما يقول لا تقاوم [1] وقد دلل على رأيه بأن يسوع المسيح لم يوص بالرهبنة أو التبتل بل على

---

(١) دينفل لوثر (ص ٩) الطبعة الثانية ، (١٩٠٤)

العكس فقد أدانهما (السابق ص ٨٠) لذلك فإنه من المدهش من جانب مستشرقى أوربا حسب قانون لوثر أن يلوموا محمداً فى هذا الموضوع . وعلى أى حال فإن المفهوم الكاثوليكى للأخلاق الجنسية مفهوم ضيق ومستحيل التحقيق ولا يمكن لأى رجل عاقل أن يوافق عليه . لأنه حسب هذا المفهوم يجب الامتناع مطلقا عن كل لذة جسدية حتى « المسموح بها فى حالة الزواج [١] وقد وصل الأمر بالقديس بولس أن يشرع التبتل للجنسين [٢] وستكون النتيجةالحتمية لذلك هى فناء الجنس البشرى . فعلى أى أخلاق يرتكز بولس فى هذه النصيحة ؟

(و) ولكن « تور أندريا » يقول بعد ذلك أن « اليهود بالمدينة وجدوا أن سلوك محمد فى هذه النقطة يعد صدمة وكانوا يقولون « ما هذا النبى الغريب الذى لا يفكر سوى فى الزواج » (السابق ص ١٨٧) .

ولم يحدد « تور أندريا » أى مصدر لهذا الادعاء من جانب يهود المدينة ونحن بدورنا لم نعثر على أى مصدر . وعلى أى حال فإنه من الغريب أن يدلى يهود المدينة بتلك الملاحظة .

أولاً : لأن شريعة موسى تسمح بالتعدد . وكان لإبراهيم زوجتان على الأقل : سارة وهاجر (سفر التكوين ، ١٦ ، ٢) . وقد تزوج يعقوب بأختين فى وقت واحد (سفر التكوين ، ٢٣ ، ٣٠) ، كما كان له كثيرات ملك اليمين هن إماء زوجاته (سفر التكوين ، ٣٠ ، ٤ ، ٩) ، كما كان من ضمن القضاة كثير من المعددين (القضاه ، ٨ ، ٣٠ ، ١ ، وقائع ، ٢ ، ٢٦ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨) ، وقد كانت قبيلة « إيسا كار » معروفة بممارستها للتعدد (الوقائع ، ٧ ، ٤) وقبل ذلك يجب أن نذكر حالة داود وسليمان .

وهذا ما أورده العهد القديم فى هذا الموضوع :

(أ) صموئيل (٥ - ١٩) « وقد اتخذ داود أيضا نساء وسرارى بأورشليم بعد رحيله من « هيبرون » وولدن له بنين وبنات » .

(ب) الملوك ، ١١ ، ١ - ٣ « لقد أحب الملك سليمان ابنة فرعون بشغف ،

---

(١) توماس الأكوينى - أصول الدين ، ١٥ ط ٣ .

(٢) القديس بولس - رسول إلى الكورنثيين مج ١ آيات ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣

وكان له عدد كبير من النساء الأجنبيات : المؤابين ، والأمونيين ، الأديميين ، والسودانيين والحيثيين . . . وقد كان له سبعمائة زوجة وثلثمائة أمة » .

وهذه العادة من اتخاذ عدد كبير من الزوجات والسرارى كانت عند كل الملوك السابقين على « جودة » و « إسرائيل » (انظر - سفر الملوك ٢٠ ، ٣) .

وخلال العصور الوسطى كان التعدد مباحاً بين اليهود وبرغم صيحات بعض الأحبار منذ القرن الحادى عشر مثل الربى « جرشوم ابن جوده (٩٦٠ - ١٠٢٨) - فإن اليهود لم يتركوا تعدد الزوجات حتى بعد تحريم السريين فى مؤتمر الإصلاح الذى عقد فى فلادليفيا عام (١٨٦٩) .

وبالنظر إلى تلك الحجج يتبين أنه من المستحيل أن يكون يهود المدينة قد أخذوا تلك الملاحظة على النبى .

« أى بحث عن الشهوانية »

نستعرض الآن زيجات محمد ونبحث عما إذا كان فيها شهوانية جسدية أم لا .

١ - أول زوجات النبى محمد كانت خديجة بنت خويلد وقد استمر هذا الزواج ٢٤ عاما ولم يتخذ النبى معها زوجة أخرى . وقد ماتت عام ٦١٩م عن ٦٥ عاما وكان عمرها ٣٩ عاما حينما تزوجها النبى وقد ولدت له سبع بنات .

ولو كان النبى شهوانياً كما يزعمون هل كان يحتمل هذه الفترة الطويلة مع زوجة واحدة ؟ وهذا دليل لا يدحض على أن النبى لم يكن شهوانيا ولم يبحث عن المتعة الجنسية . لا سيما إذا اعتبرنا أن خديجة كانت فى سن متقدمة ومهما كانت جميلة فلا يمكن أن تحتفظ بجمالها وسحرها فى العمر من ٥٠ إلى ٦٥ عاما .

٢ - وكانت الزوجة الثانية هى « سودة بنت زمعة » وكانت زوجة « سكران بن عمرو » أخى « سهيل بن عمرو » وقد هاجر سكران إلى الحبشة مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى هناك ويقول ابن إسحاق أنه رجع إلى مكة بعد ذلك ومات هناك وقد أصحبت زوجته سودة أرملة . وقد تزوجها النبى بعد شهرين من وفاة خديجة فى إبريل (٦١٩م (عند ابن إسحاق) وماتت حوالى عام (٦٤٣) ولكن ابن سعد يروى أنها ماتت عام (٦٧٤) .

وقد كانت سودة بنت زمعة متقدمة فى السن حين تزوجها النبى : ولكنها كانت قد رحلت مع زوجها سكران ضمن جماعة المسلمين التى هاجرت إلى الحبشة . وقد كانت مؤمنة قوية الإيمان وسيدة بيت من الدرجة الأولى . ولهاتين الميزتين تزوجها النبى لأنه كان بحاجة إلى امرأة عاملة وجادة لتربى بناته الأربع اللائى تركتهن خديجة . ولم يكن لأى سبب جنسى دخل فى زواج النبى من سودة بنت زمعة ولأنها كانت عجوزاً فقد رأى النبى أنه من الشاق عليها أن يخصص لها يوما. ولما أحست بعنت النبى قالت له « لم يعد لى أرب فيما تريده النساء من الدنيا ولكنى أريد أن أحشر يوم القيامة مع زوجاتك وقد تنازلت عن ليلتى لعائشة » .

٣ - كانت الزوجة الثالثة هى « عائشة » بنت صديقه الحميم « أبى بكر » الخليفة الأول . وقد خطبها النبى وهى فى السادسة من عمرها وبنى بها عندما بلغت تسع سنين . وقد كان النبى فى الخمسين من عمره إبان الخطبة وفى الثالثة والخمسين وقت الدخول بها . وهى المرأة الوحيدة البكر التى تزوجها النبى حيث كانت بقية نسائه كلهن قد سبق لهن الزواج . وكانت هى الوحيدة بينهن التى يمكن أن تثيره وتشبع حاجاته الجنسية . ولكن النبى فى هذا الوقت كان قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره وهو سن لا يحتمل الإفراط فى الحاجات الجنسية ، وفى الحقيقة إن النبى حين تزوج عائشة فكر فى توطيد صداقته بأبى بكر أكثر مما فكر فى إشباع حاجة جنسية .

٤ - وكانت الزوجة الرابعة هى « زينب بنت خزيمة » من قبيلة « هلال » من بطون هوازن . وكانت قبل زواجها من النبى زوجة لطفيل بن الحارث ثم تزوجت أخاه عبيدة بن الحارث الذى قتل فى غزوة بدر . وعندئذ تزوجها النبى فى شهر رمضان من السنة الثالثة للهجرة (فبراير ٦٢٥م) ، وكان عمرها ٢٨ عاما ولكنها ماتت بعد ثمانية عشر شهرا ولا يمكن القول بأن هذا الزواج كان لباعث جنسى من جانب النبى لأنها كانت تكبر زوجته الجديدة عائشة بسبع عشرة سنة وكان قد تزوج بعائشة منذ سنتين . ولا تكفى سنتان ليمل الرجل من امرأة شابة وجميلة مثل هذه .

ولكن هذا الزواج كان لسببين : تضميد آلام أرملة شهيد سقط فى معركة مجيدة وحاسمة هى معركة بدر والارتباط بقبيلة هوازن القوية .

٥ - والزوجة الخامسة كانت « حفصة » بنت « الفاروق عمر بن الخطاب » الخليفة الثانى وكانت قبل ذلك زوجة « خنيس بن حذافة » الذى مات متأثراً بجراجه فى غزوتى بدر وأحد . وقد تزوجها النبى فى يناير (٦٢٥) حيث كانت تبلغ من العمر (٢٢) عاما تقريبا وقد ماتت فى سنة (٤٥ أو ٤١) هجرية (اكتوبر ٦٦٥ أو ٦٦٦ م) .

ويمكن أن يقال عن هذا الزواج ما قيل عن زواج عائشة وهو : توطيد الصلة مع صديق حميم وصادق وقوى .

٦ - والزوجة السادسة هى « أم سلمة » من قبيلة « بنى مخزوم » وكان زوجها الأول « أبو سلمة » ، وقد كان أخا فى الرضاعة وقريبا للنبى لأن أمه « براح » هى بنت « عبد المطلب » وقد كان « أبو سلمة » أحد المسلمين العشرة الأوائل. وقد هاجر مع زوجته إلى الحبشة وقد رجع وأدرك النبى قبل الهجرة إلى المدينة بشهرين . وقد جرح فى غزوة أحد ومع ذلك قاد سرية إلى « بنى سعد » ولكن بعد رجوعه أثخنته الجراح التى جرحها فى أحد ومات فى ١٠ جمادى الآخرة من العام الرابع للهجرة . وبعد ١٣٣ يوماً تزوج النبى زوجته « أم سلمة » والتى كان لها من زوجها الأول ولدان وبنتان . وكان هذا الزواج فى مارس (٦٢٦م) .

وكان ذلك لتخفيف آلام أرملة أحد أصحاب النبى والذى قاتل فى سبيل نشر الإسلام وقد تزوج محمد هذه المرأة الشجاعة وهى أم لأربعة أطفال فى مارس (٦٢٦) وقد ماتت بعد ذلك بنحو (٥٥ أو ٥٦) عاماً فى شهر ذى القعدة عام (٥٩ أو ٦٢هـ) عن (٨٤) عاما .

٧ - وكانت زوجته السابعة هى « جويرية بنت الحارث » . وكانت قبل ذلك زوجة قصافى » من قبيلة بنى المصطلق . وخلال غزوة « المريسيع » (يناير ٦٢٦) أسر كثير من نساء بنى المصطلق بأيدى جيش المسلمين وكانت « جويرية » ضمن هؤلاء الأسرى وكانت من نصيب « ثابت بن قيس » الذى طلب لقاء إطلاق سراحها ١٠ أوقيات من الذهب . وقد ذهبت إلى محمد تستعطفه . فقبل الرسول شفاعتها ودفع فديتها واتخذها زوجة . وعندئذ أطلق كل من كان لديه أسرى من المسلمين أسيره وقد ماتت جويرية عام (٥٦) هجرية (٦٧٦م) .

إذاً فقد تزوجها النبى شفقه وتوطيداً لعلاقته بقبيلتها حيث كانت بنت زعيم قبيلة بنى المصطلق .

٨ - وصلنا إلى الزوجة الثامنة من زوجات النبى وهى الحالة التى أطلق فيها الكتاب الأوربيون العنان لخيالهم بداية من القرن السابع عشر على الأقل . وهى «زينب بنت جحش » من قبيلة « بنى أسد » ، وكان اسمها الحقيقى « براح » ، وقد سماها النبى زينب . وقد كانت ابنة عمة النبى « أميمة بنت عبد المطلب » إذاً فقد كانت من عائلة أرستقراطية . وقد اعتنقت الإسلام مبكراً وكانت من الأتقياء. وهذا يفسر خضوعها لرغبة النبى حين اقترح عليها الزواج من زيد بن حارثة مولى النبى وولده بالتبنى ، وقد وافقت فقط من أجل تنفيذ رغبة النبى التى جاءت فى شكل أمر إلهى فى آية ٣٦ من سورة الأحزاب التى تقول : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ ، ولذلك فقد كان زواجها من زيد على غير رضاء ولم تقبله عن طيب خاطر وكان بالنسبة لها مصدر شقاء لا ينتهى وكانت تشتكى منه دائماً . ولم يكن من الممكن أن يصم النبى أذنه إلى الأبد عن شكوى ابنة عمته لا سيما وأنه كان المسئول عن هذه الزيجة . ولذلك فقد صرح النبى بما يجب أن يقوله وهو أن هذا الزواج كان من المستحيل استمراره فطلب من زيد أن يطلق زينب ولكى يصلح خطأه فى فرض هذا الزواج تزوج من زينب . وهذا كل ما فى الموضوع .

ولكن الخيال السقيم والغير منضبط لا سيما من جانب الكتاب الأوربيين قد جعل من هذا الزواج « رواية عاطفية » ومن هؤلاء (جودفروا ديموبين) فى كتابه محمد (ص ٢٢٥) « شبرنجر » فى كتابه حياة محمد وعلمه (ص ٢٦) و « فرانتس بول » فى كتابه « حياة محمد » (ص ٣٦٠) رقم (٥) ويلخص جودفروا ديموبين هذا الإدعاء بوجود قصة عاطفية بهذه الكلمات « تؤكد السنة أن محمداً لم يكن يعرف مطلقاً ابنة عمته وأنه منذ زواجها من زيد لم تسنح لمحمد أى فرصة لمقابلتها وفى يوم من الأيام لم يكن زيد فى بيته ولأن محمدا قد كلم زينب من وراء حجاب وكان هذا الحجاب عبارة عن ستارة سرعان ما لفحتها الرياح فظهرت زينب أمام عينيه المتعطشتين وهى عارية ومغرية فتراجع ولكن الزوج الذى شك فى الحادث أعلن لأبيه بالتبنى عن نيته فى طلاق زوجته ودون أن يلومه فقد أوصاه بألا يفعل ولم ينس أن يخفى مشاعر الغيرة فى قلبه ولكن وبلا شك فقد انتشرت شائعة عن النوايا السرية للنبى وتقول لنا السنة أن اليهود والمنافقين قد اغتابوا النبى

لأنهم قالوا أن التبنى يورث نفس حقوق البنوة الشرعية ولذلك فلا يجوز للرجل أن يتزوج امرأة ابنه بالتبنى وعلى ذلك فكان لا بد أن يتدخل الوحى ويلغى التبنى ويؤكد طلاق زينب ويرمى بها بين زراعى النبى » (المرجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦) .

وفى رأينا أن هذه القصة ساقطة للأسباب التالية :

(أ) لا يمكن أن يكون محمد لم ير ابنة عمته مطلقا لأنهم كانوا ذوى قرابة وثيقة ويعيشون فى نفس المدينة وقد اعتنقت زينب الإسلام منذ زمن مبكر وأصبحت مسلمة تقية .

(ب) إذا كان محمد لم ير ابنة عمته فكيف يمكن أن يعرض عليها الزواج من زيد بل ويفرض عليها هذا الزواج ؟

(جـ) هل يمكن أن يكون النبى لم تسنح له أية فرصة لمقابلة زينب منذ أن تزوجت من زيد ؟ لقد كان زيد حبه فكيف لا يجد الرسول فرصة لمقابلة زوجة زيد التى كانت ابنة عمته وكان الزواج على مسئولية النبى نفسه .

(د) هذا التفصيل بشكل مغرى هو اختراع محض لكبت جنسى محرج .

هذه الحجج الأربعة تكفى كما نظن فى هدم هذه الرواية العاطفية المختلقة من أساسها .

وتبقى النقطة الثانية فى هذا المعرض وهى حق محمد فى الزواج بامرأة ابنه بالتبنى زيد بن حارثة (١)

وفيما يتعلق بهذه النقطة يجب أولا أن نوضح أن التبنى الشرعى لم يكن معروفا فى الجزيرة العربية قبل الإسلام وفى مقال حول التبنى فى موسوعة الدين والأخلاق (جـ١ ص ١١٥ ب) يؤكد جـ - هـ بوكس أن « التبنى كشعيرة معترف بها بين العرب لا يوجد ما يوضح أو يؤكد وجوده . لقد كان تعدد الزوجات كافياً لتلبية الاحتياجات التى يمكن للتبنى أن يشبعها وهى الرغبة فى الأولاد » .

ويجب أن نوضح فى نقطة أخرى « أنه لا شىء يذكر عن ممارسة التبنى فى

---

(١) ويكتبه جودفروا ديمومبين زيد بن ثابت

أحكام الشريعة اليهودية كما لا يوجد شيء يتعلق بالتبنى فى النصوص اليهودية الأصلية ولا فى ترجماتها اليونانية (موسوعة الدين والأخلاق جـ١ ص ١١٥ أ) وإذا كان الأمر كذلك فهل كان يمكن لليهود أن ينعوا على محمد رغبته فى الزواج من امرأة ابنه بالتبنى ؟

وحتى العرب المعاصرون لمحمد لم يكن لهم نظام خاص فى موضوع التبنى ولم يحرموا من باب أولى الزواج من مطلقة ابنه بالتبنى ولكن القرآن هو الذى نظم للمرة الأولى حالة الأبناء بالتبنى بالشكل التالى :

١ - سورة الأحزاب آية ٤ ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** ﴾ .

٢ - سورة الأحزاب آية ٥ ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم** ﴾ .

٣ - سورة الأحزاب آية ٣٧ ﴿ **فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا** ﴾.

وبهذه الآيات الواضحة ألغى الإسلام عادة التبنى فلم يعد التبنى جائزا فى الإسلام وليس للولد بالتبنى نفس حقوق الولد الحقيقى لا فى الميراث ولا فى الزواج ولا فى أى حق من حقوق البنوة الحقيقية باختصار ليس هناك تبنى فى الإسلام وهذا القانون الإسلامى الذى يحرم التبنى لا علاقة له مطلقا بموضوع زواج النبى من زينب بنت جحش .

٩ - وكانت الزوجة التاسعة للرسول هى اليهودية « ريحانة » من قبيلة بنى قريظة والتى كانت أسيرة مع نساء من بنى قريظة حين أغار عليهم الرسول بعد غزوة الخندق بسبب خيانتهم حيث قدموا خدمات جليلة للقريشيين الذين جاؤا فى جيش عرمرم يقودهم أبو سفيان لمهاجمة المدينة فى أبريل (٦٢٧) . وقد أعتقت ريحانة بعد تردد وبعد ذلك تزوجها النبى وتقول مصادر أخرى أنه اتخذها ملك يمين وقد ماتت سنة ٦٣٢ قبل النبى بقليل .

١٠ - وكانت الزوجة العاشرة هى « أم حبيبة بنت أبى سفيان » وكانت زوجة عبيد الله بن جحش الذى اعتنق الإسلام واصطحب زوجته فيمن هاجر الهجرة

الثانية إلى الحبشة ولكن عبيد الله تحول فى الحبشة إلى المسيحية ومات هناك بينما بقيت أم حبيبة على إسلامها (هكذا تسمى لأنها كان لها إبنة تدعى حبيبة) وقد أرسل النبى رسولاً إلى النجاشى (ملك الحبشة) هو عمر بن أمية الضمرى يطلب يد أم حبيبة وقد توكل النجاشى لأم حبيبة وتم عقد القران فى الحبشة . ورحلت أم حبيبة إلى المدينة عام (٦٢٨م) وماتت فى (٤١ أو ٤٤ هـ) فى خلافة أخيها معاوية .

١١ – وكانت اليهودية « صفية بنت حيى » هى الزوجة الحادية عشرة للنبى وقد كانت قبل ذلك متزوجة من زوجين أولهما سلام بن مشكم ثم الشاعر اليهودى « خناعة » وقد كانت من قبيلة بنى النضير اليهودية التى كانت تسكن المدينة وقد طردهم النبى منها لأنهم دبروا لاغتياله : وقد رحلت هذه القبيلة إلى خيبر وفى معركة خيبر (٦٢٩م) قتل خناعة زوج صفية فوقعت أسيرة فى أيدى المسلمين. ولكن الرسول أطلقها وتزوجها وقد ماتت عام (٥٢ هـ) .

١٢ – وكانت الزوجة الثانية عشرة للنبى هى « ميمونة » من قبيلة بنى هلال وقد تزوجت مرتين قبل النبى وقد تزوجها النبى فى شوال أو ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة (يناير ٦٢٩) وماتت سنة ٦١ هـ (٦٨٠م) عن ثمانين عاما وهى آخر من مات من أرامل النبى وقد كانت أخت زوجة العباس عم الرسول وخالة الخلفاء العباسيين .

١٣ – وكانت الزوجة الثالثة عشرة للرسول هى « فاطمة بنت الدهاق بن سفيان» من قبيلة كلاب . وقد قيل أن النبى تركها بسبب برص رآه فيها . وقد قيل أيضا أنها هى التى تركته . وقد حدث هذا الزواج فى ذى القعدة من عام (٨هـ) بعد العودة من معركة « الجعرانة » .

١٤ – وقد تزوج النبى فى شهر ربيع الأول سنة (٩هـ) بأسماء بنت النعمان الجوانية ولكن الزواج لم يستمر لأنها أنفت ذلك الزواج .

ولو استعرضنا هذه الزيجات الأربع عشرة فسنجد أن هدفها كان كالتالى :

(أ) إما لتقوية أواصر المحبة بين النبى وكبار الصحابة وهذا ينطبق على زواجه بعائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر بن الخطاب .

(ب) وإما للارتباط بكبرى القبائل العربية وتلك حالة جويرية بنت الحارث

والتى كان أبوها رئيس قبيلة بنى المصطلق بن خزاعة وكذلك حالة ميمونة بنت الحارث من قبيلة بنى هلال وقد كان هذا الزواج سبباً فى دخول خالد بن الوليد فى الإسلام وهو القائد العسكرى الكبير حيث كانت ميمونة خالته .

(جـ) أو ليحمى الأسيرات اللائى كن يتمتعن بمكانة عالية فى قومهن وتلك حالة « ريحانة بنت زيد بن عمر » و « صفية بنت حيى بن أخطب » و « أم حبيبة بنت أبى سفيان » أحد أكبر زعماء قريش الذين حاربوا النبى .

(د) وأخيراً ليحفظ مركزاً اجتماعيا لامرأة فى غير مركزها اللائق بها وتلك حالة زينب بنت جحش بنت أمامة بنت عبد المطلب عمة النبى . وقد درسنا تلك الحالة بما فيه الكفاية بما لا يحتاج منا إلى إعادة تكراره .

وتلك هى البواعث الأساسية لزيجات النبى بعد موت زوجته الأولى خديجة . وكما رأيت فإنه ليس فيها أى باعث يمكن أن يدخل فى نطاق الشهوانية الجنسية . وكل هذه البواعث تنبع من مهمته كنبى ومؤسس دولة سياسية فى نفس الوقت لأن محمدا لم يكن نبيا عاديا ومتفردا ولكنه كان نبيا ومؤسس دولة سياسية .

ولهذه الأسباب أيضاً لم يطلق النبى أياً من زوجاته لأن الطلاق كان لا بد أن ينتج عنه فصم لرباطه بالقبيلة أو الشخص القوى الذى تنتمى إليه المرأة المطلقة . وهذا السلوك كان من نتيجته أن النبى تجاوز عدد النساء الأربع المسموح بهن فى وقت واحد . ولكن هذه كانت ميزة للنبي وحده دون سائر المؤمنين لأن محمداً كنبى مؤسس دولة سياسية كان حالة خاصة تماماً ولا يمكن أن تتكرر لا سيما وهو آخر الأنبياء .

« مبررات التعدد »

فى رأينا أن تعدد الزوجات مبرر فى الحالات الآتية :

١ - عندما تصاب الزوجة الأولى بمرض لا يرجى برؤه يعكر صفو سعادة الزوجين .

٢ - عندما تكون الزوجة الأولى عاقراً .

٣ - عندما تصبح الزوجة الأولى عجوزاً قميئة بشكل تصبح معه عقبة أمام العلاقات الاجتماعية ومصدر ملل دائم للزوج .

فى الحقيقة يجب أن نسأل ما هو الأكثر براً فى هذه الحالة : طلاق المرأة أو الاحتفاظ بها مع أخرى أو أخريات مع توفير المسكن لها والمأكل والمعاملة الحسنة والحياة مع أولادها ؟ إن الإجابة واضحة تماما وهى أن الحل الثانى أفضل ألف مره وعلى أى حال فإن المرأة لو فضلت الحل الأول فليس أمامها إلا طلب الطلاق ولو دخلت فى الزواج بهذه النية فليس عليها سوى أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون لها الحق فى طلاق نفسها إن تزوج زوجها بأخرى . . وهذا الشرط جائز فى الفقه الإسلامى .

إن مبدأ التعدد متطابق أكثر مع هدف الزواج وهو إنجاب الأولاد واستبقاء النوع البشرى والقانون الطبيعى يثبت بل ويتطلب التعدد وهذا لا يمس بسوء القانون الوضعى والحجج التى يسوقها أعداء تعدد الزوجات واهية جداً وهى :

(أ) يقولون إن التعدد لا يحقق المساواة بين الرجل والمرأة .

ولا نرد على ذلك بشىء سوى أن المساواة مسألة خيالية لأن دور الرجل فى الزواج ليس هو بالضبط دور المرأة . فى الحقيقة إن لكل منهما مهمته الخاصة ومن الزيف أن نتحدث عن المساواة التامة بين الزوجين .

(ب) يقولون أيضا إن التعدد مصدر للغيرة والحقد والخصومات وكذلك التفضيل الذى لا يمكن تحاشيه من جانب الزوج لإحدى زوجاته على الأخريات.

ونجيب على هذا بالآتى :

إن الحقد والغيرة والخصومات هى عواطف إنسانية طبيعية ولا يمكن تفاديها حين يجتمع شخصان أو أكثر . وهذه رذائل يجب محاربتها أخلاقيا وليس بقانون يجب احترامه إلا إذا تطلب الأمر زواجاً لا ينتج سوى طفل أو طفلة لأنه أيضا سيكون هناك حقد بين الأبناء بعضهم البعض وستكون بينهم الغيرة والشحناء . ولن يطلب أحد تجمع عدد من الأطفال وسيكون ضرب من الجنون الخالص .

إذاً فى رأينا أن الزواج بواحدة مثله مثل طلب إنجاب طفل واحد .

وبملاحظاتى الشخصية قمت بعمل إحصائيات موسعة لهذه الظاهرة . فلاحظت أن أولاد الزوجة الثانية أو الثالثة أكثر ذكاء وأكثر جدية ويشرفون آباءهم أكثر من أبناء الزوجة الأولى

بالتأكيد هناك أحيانا تعسف فى تعدد الزوجات ولكن التعسف موجود فى كل شىء وهو دائما مذموم ويجب تحاشيه فى كل الأحوال وليس فقط فى تعدد الزوجات .

باختصار . إننا مع بقاء النظامين تعدد الزوجات والزواج بواحدة والظروف وحدها هى التى تقرر ما يفضل الأخذ به من النظامين .

والقرآن صريح فى منع التعسف فى تعدد الزوجات يقول تعالى : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ [سورة النساء آية ٣] إذاً فالمعاملة بالمساواة بين الزوجات شرط ضرورى لممارسة حق التعدد فى الإسلام . ولأن هذا الشرط صعب - إن لم يكن مستحيلا - تحقيقه ، فإن هذا يساوى منع التعدد . ولكن أنصار التعدد فى الإسلام يمكن أن يقولوا إن المساواة هى فى النهاية مسألة تقديرية وبذلك يخرجون من هذا المقياس الصارم .

ويمكن أن نتساءل هنا هل هناك فرق جوهرى بين تعدد الزوجات والزواج بنساء الواحدة بعد طلاق الأخرى . فى رأيى أن الفرق واهٍ . ومع ذلك فإن القانون فى كل البلاد التى تتشدق بأنها دول عصرية ومتقدمة يمنع التعدد ولكنه يجيز الزواج بنساء متعاقبات مهما كان عددهن أليس هذا نفاق واضح حين يمنع تعدد الزوجات بينما يسمح بتعدد الزيجات المتعاقبة ؟ أليس من المنطق منع الاثنين أو إباحتهما معاً؟ الإجابة بنعم بالتأكيد .

* * *

الفصل الثالث

« سياسة محمد تجاه خصومه »

(أ) محمد واليهود .

(ب) محمد والمسيحية .

(جـ) سياسة محمد تجاه العرب .

(أ) محمد واليهود

وهذا موضوع آخر أطلق فيه المستشرقون العنان لنقدهم مع كثير أو قليل من سوء النية والعنف حسب اتجاه كل طائفة من أعداء محمد من العرب الوثنيين واليهود والنصارى . ولنبدأ باليهود لأن صراع النبى معهم بالذات لأسباب واضحة أثارت سخط هؤلاء المستشرقين بشكل واضح أو خفى .

(أ) الصراع مع اليهود :

لقد بدأ الصراع مع اليهود بعد الهجرة لأنه لا شيء يدل على وجود صراع حقيقى بين محمد واليهود حين كان بمكه لأنه لم يكن يوجد بمكة أية جماعة يهودية أما فى المدينة فعلى العكس كان هناك يهود أثرياء وأقوياء يتميز من ضمن أكبر قبائلهم ثلاثة : بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير .

وقد كان بنو قينقاع صاغة وليست لهم أراض زراعية . على العكس من ذلك بنو قريظة وبنو النضير الذين كانوا يملكون أطيانا زراعية وكان النخيل محصولهم الرئيسى .

من أين أتى يهود المدينة هؤلاء ؟ هل أتوا من فلسطين بعد سحق تمرد «باركوخبا » على يد القائد الرومانى « جيوليوس سرفيروس » عام (١٣٥م) ؟ لا تؤكد ذلك أية وثيقة تاريخية . هل أتوا من يهود العرب باليمن والذين فروا بعد احتلال يهود الحبشة لبلادهم ؟ هذا هو الاحتمال الأكثر تصديقاً .

ولا نعرف على وجه الدقة متى استوطن عرب قبيلتى الأوس والخزرج بيثرب «وهو الاسم الأصلى للمدينة » وقد جاؤا من جنوب الجزيرة العربية . يرى البعض أن الأوس والخزرج ذهبوا إلى يثرب وهى تحت سيطرة اليهود وأن اليهود سمحوا لهم بالإقامة فيها. ولكن هذه القضية لا تستقيم لأننا لم نجد فى أى وقت أن الأوس والخزرج كانوا خاضعين أو حتى موالين لليهود بالمدينة . وإنما تؤكد

المصادر التى بين أيدينا على عكس ذلك أن اليهود كانوا تحت حماية الأوس والخزرج أو على الأقل متحالفين معهم فقد كان بنو قينقاع مثلاً حلفاء عبد الله ابن أبى وعبادة بن الصامت

ومما لا شك فيه أن أى يهودى لم يعتنق الإسلام قبل وصول محمد إلى المدينة وإقامته بها . وحتى بعد وصول محمد إلى يثرب دخل عدد قليل من اليهود فى الإسلام نذكر منهم : عبد الله بن سلام من بنى قينقاع ومجموعة ثانية من الرجال يرجع أصلها إلى تلك القبيلة وقد أصبحوا منافقين مثل زعيمهم « عبد الله بن أبى» ثم بعد ذلك دخل بعض اليهود فى الإسلام فى أعقاب غزوة أحد (١) أو أثناء غزو النبى لبنى النضير (٢) وبنى قريظة (٣) .

وليست لدينا أية معلومات عن موقف اليهـود من الدين الإسـلامى قبل الهجرة. ويبدو أنه فى مكة إما لم يكن يوجد أى يهود أو ربما كان يوجد البعض منهم ولكنهم لم يتدخلوا فى الشئون الدينية ولم يشتركوا فى المناقشات المثارة حول الدين الجديد . وهكذا فكل الآيات القرآنية المتعلقة باليهود لا تقصد سوى يهود المدينة.

قضية أخرى : هل اتخذ اليهود موقفا محددا من محمد ودينه الجديد قبل وصول محمد إلى المدينة ؟ إذا كان الميثاق بين المهاجرين والأنصار والذى يشمل أيضا مسالمة مع يهود يثرب قد أملاه النبى فور وصوله إلى المدينة فى سبتمبر ، ٦٢ فيمكن أن نؤكد أن يهود المدينة (يثرب) لم يبدوا أى عداوة لمحمد .

ويقول ابن إسحاق عن هذا الميثاق :

« كتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار حيث وضع الهدنة مع اليهود وعقد معاهدة معهم وأقر لهم بحقهم فى البقاء على دينهم وأمنهم على أموالهم وأخذ منهم العهد وأعطاهم العهد (٤)

---

(١) انظر : ابن هشام (ص ٣٥٤) ط . فوستنفيلد . أوتمن (١٨٥٩ - ١٨٦٠) .

(٢) الواقدى - كتاب المغازى (ص ١٦٤) ترجمة يوليوس فلهوزن للمختصر، برلين ، (١٨٣٢) .

(٣) ابن هشام (ص ٣٨٧ - ٦٨٧) .

(٤) ابن هشام سيرة سيدنا محمد ط . د/ فرديناند فيستفلد (Wustendeld) جـ١ (ص ٣٤١) ، جوتنج، (١٨٥٨)

ونسوق ما يخص اليهود فى هذا الميثاق :

١ - « اليهود الذين يتبعونا لهم منا النصر والأسوة ولا يؤذون ولا يعان عليهم من يحاربونهم » (السابق ، ص ٣٤٢ ، ص ٨٠٩) .

٢ - « يقدم اليهود المؤن والزاد للمسلمين حالة الحرب » .

٣ - « يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين » .

٤ - « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » .

٥ - يهود بنى النجار لهم ما ليهود بنى عوف ، ويهود بنى الحارث لهم ما ليهود بنى عوف ، ويهود بنى ساعدة لهم ما ليهود بنى عوف . ويهود بنى جوشم لهم ما ليهود بنى عوف . ويهود بنى الأوس لهم ما ليهود بنى عوف ، إلا من ارتكب إثماً فإثمه على نفسه وأهل بيته . والجفرة حى من ثعلبة ، لهم ما لهم وبنى شطية لهم ما ليهود بنى عوف .

٦ - موالى ثعلبة لهم ما لثعلبة .

٧ - « بطانة اليهود لهم ما لليهود » .

٨ - « لا يحارب أحد منهم إلا بإذن محمد ولكنهم لا يمنعون من الأخذ بثأرهم فى الدماء ، ولكن من يتجرأ منهم على أحد من المسلمين فلا يلومن إلا نفسه وإثمه عليه وعلى أهل بيته إلا إذا أوذى والله شديد العقاب » .

٩ - يتحمل اليهود نفقة أنفسهم وكذلك المسلمون .

١٠ - « يتحالف اليهود والمسلمون ضد من يحارب أحداً منهم ويتبادلون النصح والمشورة فى الخير لا فى الشر . ولا يجوز لأحد أن يضر حليفه . وتكون المساعدة على قدر الأذى » .

١١ - « لا يقدم اليهود الحماية لا لقريش ولا لأعوانها » .

١٢ - « يساعدون المسلمين على دفع من يغزوا المدينة » .

١٣ - « إذا دعوا إلى عقد سلام أو المحافظة عليه عقدوه وحافظوا عليه » .

١٤ - اليهود موالى الأوس لهم حقوق وواجبات يهود الميثاق مع الإحسان إليهم» .

ويجدر بنا أن نسوق الملاحظات الآتية على هذا الميثاق :

١ - كما لاحظ « فلهوزن » [١] فإن هذه الصحيفة لا تشتمل على معاهدة مع اليهود لأن اليهود ذكروا فى هذا النص فقط لأنهم موالون للأنصار والعلاقة بين محمد واليهود كانت غير مباشرة وعبر الأنصار .

٢ - وهذا يفسر لماذا يذكر اسم قبائل اليهود التى دخل محمد معهم بعد ذلك فى صراع وهم ، بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . وفى الواقع إن هذه القبائل كانت موالية للأنصار ولذلك دخلت فى حكم يهود بنى عوف بجهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جوشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة بن هشام (ص ٣٧٢) ، وهذا يدلنا على أن يهود المدينة كانوا منقسمين إلى قسمين كبيرين المجموعة الأولى تضم « بنى قينقاع » ، وكانوا حلفاء الخزرج والثانيه تضم بنى النضير وبنى قريظة وكانوا حلفاء الأوس وكما لاحظ « كاتانى Caetani [٢] فإن « أسماء قبائل اليهود لم تذكر فى الميثاق لأن محمدا لم يكن له علاقه مباشرة مع اليهود باعتبارهم يهودا ولكن فقط بشكل غير مباشر باعتبارهم حلفاء الأنصار» .

٣ - « يؤمن » فلهوزن (المرجع السابق) بصحة تلك الوثيقة للأسباب التالية :

(أ) لا يمكن أن يسمح أى شخص من العصر الأموى أو العباسى أبداً بأن يكون القرشيون أعداء الله لأن أجداد الأمويين والعباسيين أيضا وثنيون وأعداء لمحمد فى مكة .

(ب) لا يمكن أن يسمح أى فريق من العصر العباسى أو الأموى أن يكون المسلمون والوثنيون واليهود جماعة واحدة على قدم المساواه ولهم نفس الحقوق ونفس الواجبات .

(جـ) لا يمكن أن يعتمد شخص نظاماً سياسيا حتى وإن كان واضعه محمد دون أن يعطى للنبى صفاته اللائقة به من حيث كونه نائبا عن الله .

(د) أما عن تاريخ هذه الصحيفة فإن فلهوزن (ص ٨٠) يزعم أنها تعود إلى

---

(١) يوليوس فلهوزن Skizzen Und Vorarbeiten الطبعة الرابعة (ص ٦٧ - ٨٣) .
(٢) ليون كاتانى ، حوليات الإسلام ، جـ١ (ص ٤٠٠) .

بداية العهد المدنى قبل معركة بدر لأنه محمدا بدا خلالها متسامحا متواضعا ولم يدعم تلك الوثيقة أى وحى إلهى ويشك فلهاوزن فى أن هذا النص يشتمل على ريبة من اليهود : وينهي قوله بأن هذه الوثيقة تعود إلى فترة سابقه على غزوة بدر وليس إلى بداية إقامة محمد فى المدينة لأنه كان ما يزال يأمل فى دخول اليهود فى الإسلام .

ولكن « جريم »[1] فى ملاحظة طويلة يحاول تفنيد قضية فلهاوزن ويؤكد أن الوثيقة ترجع إلى ما بعد غزوة بدر . وحسب قوله فإن محمدا لا يمكن أن ينصب من نفسه حكماً وقاضي وقائد حرب على قدر كبير من الأهمية إلا إذا كان قد حاز سلطانا كبيرا وقوة يعرفها الجميع ويحسب حسابها وهو شيء لا يمكن أن يتحقق إلا بعد نصر بدر - وهناك حجة أخرى لجريم وهى الإشارة إلى الصراع من أجل « قضية الإيمان » والذى لم يكن له معنى سوى بعد الأحداث الحقيقية والحروب. الحجه الثالثة هى الكراهية المحمومة للقرشيين والتى لم تفرض نفسها على الأنصار إلا بعد غزوة بدر . حيث لم يكن لدى الأنصار قيل ذلك مبرراً لتغيير موقفهم تجاه القرشيين .

ومع اعترافه بقوة حجج « جريم » إلا أن كاتانى (حوليات الإسلام جـ١ ص ٤٠٤) يرى أن حجج فلهوزن أقوى ويسوق حجته الخاصة ليدعم حجج فلهوزن، وتلك هى حجج كاتانى

(أ) الفقرات (٢٣ ، ٣٦) من المعاهدة لا يبدو أنها تفرض الاعتراف بمحمد حاكماً أعلى وقائداً للجيش .

(ب) الفقرات الخاصة بإبرام السلام (١٧ ، ٤٦) لا تعنى أبداً أن تكون تلك وظيفة محمد . ولكن إذا كان لمحمد حق إعلان الحرب فسيكون من حقه بالضرورة إبرام السلام فأحدهما لا يسير بدون الآخر .

(جـ) يشير كاتانى (من الفقرات ١٩ ، ٤٦) إلى أن « فى الدين إشارات عابرة ومهمة ولا يمكن أن تعنى مفهوم الجهاد (الحرب المقدمة) .

(د) عداوة القرشيين (فقرات ٢٠ ، ٤٤) مذكورة بشكل متواضع ومتعقل ولا

---

(١) هربرت جريم - محمد - جـ١ ، (ص ٧٦) .

تمنع (كل المدينة من أن يكون لهم علاقات ودية مع القرشيين فى وقت السلم . إنها تمنع فقط أن يبرم معهم أى اتفقات علنية لحماية الأفراد أو الأموال .

(هـ) وأخيراً ، لو أن هذه الصحيفة قد كتبت بعد بدر لكان من الممكن أن نرى فيها روح الغطرسة وموضوعات أخرى على جانب كبير من الأهمية مثل تقسيم الغنائم .

بهذه الحجج إضافة إلى حجج فلهاوزن يتضح أن تاريخ تلك الصحيفة يعود إلى ما قبل غزوة بدر بوقت قصير تلك الغزوة التى وقعت أحداثها فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (مارس ٦٢٤ م) .

« اليهود ينقضون المعاهدة »

لقد فهم كل المؤرخين المسلمين أن هذه الصحيفة - دون ذكر نصها الحرفى . كانت فى نفس الوقت عهداً مع يهود المدينة وهذه أقوال هؤلاء المؤرخين كما ذكرها: كاتانى « بنفسه (ص ٤٠٤ ، ٧) .

(أ) الواقدى - كتاب المغازى ط . كريت ١٨٥٦) « عندما وصل رسول الله إلى المدينة وادعته اليهود وقد كتب صحيفة بينه وبينهم تؤكد على توحد كل قبيلة مع حلفائها وتفرض بينهم وبين الرسول عهد أمان وتفرض عليهم تلك الشروط : لا يجوز أن يقدم اليهود العون لأعداء محمد) .. وبعد غزوة بدر كاد اليهود لمحمد ونقضوا الميثاق فرد عليهم محمد بقوه ...

(ب) الطبرى - تاريخ جـ١ ص ١٣٥٩ ، ٢٢١) .. حينما قدم الرسول المدينة وادع يهود المدينة على ألا يكونوا عونا لأحد عليه وأن يساعدوه إذا غزا أحد المدينة وحينما انتصر النبى على كفار قريش أظهر اليهود العداوة والبغضاء للمسلمين وأظهروا نواياهم فى نقض الميثاق) .

(جـ) البلاذرى (فتوح البلدان) [1] (ص ١٧) « عندما وصل النبى إلى المدينة كتب كتاباً بينه وبين يهود يثرب وعقد معاهدة معهم وكان أول من نقض تلك المعاهدة هم يهود بنى قينقاع » .

(د) ابن خلدون - كتاب العبر جـ٢ ط . ١٨٧٦ القاهرة « عقد محمد

---

(١) طبعة جوخ ، ليدن ، ١٨٦٦ ، تحت عنوان آخر هو « الغزوات » .

معاهدة سلام مع اليهود وكتب كتاب صلح بينه وبينهم وميثاق موادعة للحقوق والواجبات المتبادلة .

(هـ) حنين ابن محمد الحسن الديار بكرى - « عبرات الخميس » ط . بولاق - القاهرة (١٣٠٢) هـ جـ٣ ، ص(ص ٣٩٨) « فى هذه السنة الأولى من الهجرة وبعد خمسة أشهر من وصوله إلى المدينة وادع النبى اليهود وعاهدهم على أن يترك لهم حرية ممارسة شعائرهم وأمنهم على أموالهم على أن لا يكونوا عونا عليه مع أعدائه » .

(و) السيرة الحلبية كتاب « إنسان العيون بسيرة النبى الميمون » : تأليف نور الدين على الحلبى القاهرة (١٢٨٠هـ) جـ٢ (ص ٢٤٥) : « كتب النبى كتابا بين مهاجرى مكة والأنصار وادع فيه اليهود أي بني قينقاع وبنى النضير وصالحهم على الشروط الآتية . يمتنع اليهود عن الحروب الداخلية والمؤامرات ويمتنع محمد عن حربهم أو إيذائهم ولا يكون اليهود عوناً لأحد على محمد ولا يقدمون يد المساعدة لأعدائه وعاهدهم محمد على منحهم حرية ممارسة شعائرهم والتمتع بأموالهم » .

كل هذه المصادر المتقدمة تلخص مضمون ما ذكره ابن هشام بالتفصيل . وقد فهموا تماما معنى ومضمون تلك الصحيفة .

إنه لمن الغريب إذا أن نرى « ليون كاتانى جـ١ ص ٤٠٧ - ٨) يقول : إن الكتاب المسلمين قد أساءوا فهم معنى وقيمة هذه الوثيقة . ويواصل قائلا فى صلف « إن الأحكام المسبقة المغرضة أربكت قرائحهم مما جعلهم يعتبرون فقرات هذه الصحيفة التى قرأوها بشكل سطحى مواثيق معاهدة مع اليهود . إنهم لم يستطيعوا أن يفسروا بطريقة أخرى وجود تلك الوثيقة حيث بدت موادها لهم باعتبارهم مؤمنين غير مفهومة : أي أنهم لم يستطيعوا أن يسمحوا بكون النبى قد عقد ميثاقاً مع الكفار أعداء الله وفهموا الصحيفة على أنها موادعة مع اليهود وحدهم . ولذلك فقد توصلوا بالكاد إلى هذا المفهوم المغلوط الذى أعاد كتابته المورخون بنفس « الشكل ويرددونه كلّ عن غيره بنفس الثقة العمياء وغير العقلية التى يتسم بها الشرقيون دون أن يحاولوا تمحيصها أو تحقيقها وهو شىء مع ذلك سهل جدا إذا درسنا الصحيفة بإمعان .

وهذا الخطأ مثل دفعة كبيرة لأنه استخدم كحجة لصالح محمد فى سننه المغرضة التى أرادت أن تصف اليهود بأنهم يحنثون بأيمانهم وينقضون المعاهدات وأنهم يضرون بالسلام العام »

إنه « كاتانى » يبدو هنا هو أو من كتب له هذه الفقره - وقد وقع فى بلاهة نادرة أو صحية خياله الجامح .

(أ) لأن هذه الصحيفة كانت ميثاقاً بين محمد والمهاجرين من جانب والأنصار ومعهم مواليهم أو حلفاؤهم من اليهود من جانب آخر ولا يمكن لأحد أن يشك فى ذلك لأنه حتى ابن إسحاق نفسه حين عرض هذه الوثيقة وهو المصدر الوحيد الذى نقلت عنه بالتفصيل ويعتبر المصدر الذى نقل عنه المؤرخون من بعده يقول نصاً أن هذه الصحيفة اشترطت وعداً لليهود (انظر عند كاتانى نفسه جـ١ ص ٣٩٢ ، ٢ ، ١٩ ، ٢٠) ، إذاً بأى حق يأتى وينكر هذا الحدث فى الفقرة التى ساقها .

(ب) والأغرب من ذلك تأكيده على أن المؤرخين المسلمين لا يمكن أن يتقبلوا أن يكون النبى قد عقد ميثاقاً مع « الكفار أعداء الله » ، ولكن من قال أن الصحيفة كانت ميثاقاً مع أعداء الله الكفار . إن الصحيفة كانت ميثاقاً بين محمد من جانب والأنصار وحلفائهم اليهود من جانب آخر ، فهل كان الأنصار وثنيين وأعداء الله ؟ إن كاتانى أو من كتب له تلك الفقره لا بد أن يكون مختلاً عقلياً ليقول هذا الكلام إن الشتائم التى يكيلها « للكتاب الشرقيين » يجب أن تكال له هو نفسه وليس « للكتاب الشرقيين » .

لقد قلنا « أو من كتب له هذه الفقره » لأن الأمير « ليون كتانى » أتهم على رؤس الأشهاد بأنه ليس هو مؤلف هذا الكتاب « حوليات الإسلام » وأن هذا الكتاب قد كتبه مجموعة من العلماء الإيطاليين المستشرقين وكان على رأسهم «ليفى دولافيدا » وقد نظرت القضية أمام المحاكم الإيطالية وحضرها الكتاب الأصليون كشهود. وقد اعترف ليفى دولافيدا بأنه عمل فى إعداد هذا الكتاب وذلك بترجمة النصوص العربية المتعلقة بهذا الفصل أو ذاك ولكن حتى يحافظ على شرف أستاذه فإنه لم يتجرأ على الاعتراف بأنه كتب بعض الفقرات فى هذا الكتاب.

ولكن الفقرة محل البحث فى رأينا لا يمكن أن يكون أحد ، قد كتبها غير ليفى

دولافيدا والذى كان مهتما بتقريظ أخوانه القدماء فى الدين . كما أن النظره الحماسية والعاطفة فى الدفاع والشتائم المتكررة لا يمكن أن تتفق إلا مع طبيعة رجل تعز عليه مصلحة اليهود إلى أبعد حد . ولا يمكن أن ينطبق هذا على أمير كاثوليكى من عائلة بطريركية مرموقة فى روما مثل الأمير « دتيانو ليون كاتانى » .

« بنو قنيقاع ينقضون العهد »

نستعرض الآن بالتفصيل نقض هذه المعاهدة من جانب القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث .

كان أول من نقض هذا العهد هم بنو قينقاع . . ويقول ابن إسحاق (١) «حدثنى عثيم ابن عمر بن قتيبة أن بنى قينقاع كانوا أول من نقضوا من اليهود ما بينهم وبين رسول الله وناصبوه العداء ما بين غزوة بدر وغزوة أحد » .

ويورد ابن إسحاق سبب الحرب المباشر بين النبى وبنى قينقاع هكذا :

« كان سبب ما وقع بين محمد وبنى قينقاع أن امرأة عربية جاءت إلى سوق بنى قينقاع لتبيع حليها وجلست أمام صائغ يهودى وأراد اليهود أن يجبروها على كشف وجهها فأبت فربط الصائغ طرف ثوبها فى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فصاحت فأسرع أحد المسلمين إلى الصائغ اليهودى فقتله فأسرع اليهود إلى ذلك المسلم فقتلوه فاستنجدت عائلة المسلم بالمسلمين فلبى المسلمون النداء وهنا قامت الحرب بين المسلمين وبنى قينقاع ووضع محمد الحصار عليهم حتى يخضعوا لشروطه (ص ٥٤٥ - ٥٤٦) .

وكان الجيش الذى بعثه محمد لحصار بنى قينقاع تحت قيادة « بشير بن عبد المنذر» واستمر الحصار خمسة عشر يوماً وكان عدد محاربى بنى قينقاع ثلثمائة مدرعين وأربعمائة بلا دروع .

وعندما قامت الحرب ذهب عبد الله بن أبى بن سلول والذى كان حليفا لبنى قينقاع إلى النبى ليسأله أن يفك الحصار قائلا للنبى « لا تؤذ حلفائى » وقد كان بنو قينقاع فى الواقع حلفاء الخزرج ولكن النبى لم يجبه إلى طلبه » ولكن عبادة بن

---

(١) ابن إسحاق - سيرة رسول الله جـ٢ (ص ٥٤٥) ط . فوستنفيلد ، جوتنجن (١٨٥٩) .

الصامت من بنى عوف وقد كانوا أيضا حلفاء بنى قينقاع فذهب إلى النبى ليعلن تحلله من حلفه مع اليهود قائلاً : « يا رسول الله إنى حليف الله وحليف نبيه وأنى تحللت من تحالفى مع هؤلاء الكفار ومن حمايتهم . والآيات التالية من سورة المائدة نزلت فى شأن عبد الله بن أبى وعبادة بن الصمت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾ [المائدة ٥١ - ٥٢] وهذه العبارة الأخيرة نزلت فى شأن عبد الله بن أبى الذى قال أخشى أن تحيق بى الدوائر وتقول الآية (٦٠) ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ ، وهذه الآية نزلت فى شأن عبادة بن الصامت الذى تخلى عن حلف بنى قريظة ودخل فى حلف الله ﴿ **فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ آية (٦١) .

وهذه القصة التى يرويها ابن إسحاق فى الجزء الثانى (ص ٥٤٥ - ٥٤٦) موجودة أيضاً عند الواقدى (ص ١٧٧ - ١٧٨) وعند ابن الأثير جـ٢ (ص ١٠٦ - ١٠٧) ، وكون الطبرى لم يوردها فذلك لا يعنى شيئاً لأن هناك مئات الروايات مذكورة عند ابن إسحاق أو الواقدى والبلاذرى ولم يذكرها الطبرى ويريد كاتانى [(١)] مع مستشرقين آخرين أن يشككوا فى هذه القصة لأن إسنادها يرجع إلى محمد بن كعب القرظى الذى مات سنة ١١٨ هـ والذى يتهمه كايتانى بأن اخترع كثيرا من الأساطير (٥ المقدمة ص ٢٨١) ، ولكن كايتانى نفسه هو الذى يخترع هنا أسطورة وهى أن إسناد حادثة المرأة العربية التى هاجمها الصائغ اليهودى يرجع إلى محمد بن كعب القرظى فهى عند ابن هشام (ص ٥٤٥ ، ١، ١٥) تنسب إلى أبى عوف وليس إلى القرظى .

ولكن ماذا قرر النبى بعد استسلام بنى قينقاع ؟ لا يعطينا ابن إسحاق معلومات مباشرة وكل ما نخرج به من روايته هو وساطة عبد الله بن أبى عند النبى لصالح اليهود حيث كان النبى ينوى أن يطبق عليهم ما هو معتاد وهو قتل المحاربين

---

(١) حوليات لإسلام جـ١ (ص ٥٢١) ملحوظة رقم ١ .

وأسر غير المحاربين من النساء والأطفال والشيوخ ولكن بعد إلحاح بن أبى على الرسول أن يحقن دماء بنى قريظة قائلا له لن أبرح مكانى حتى تهبنى حلفائى الأربعمائة غير المدرعين والثلثمائة المدرعين الذين طالما منعونى من الناس وإنى أخشى أن تفتك بى وإنى والله أخشى الدوائر فقال له النبى « هم لك » .

ويعطينا الواقدى [1] مزيداً من المعلومات حيث يقول : إن من بين الشروط التى وضعها الرسول مصادرة جميع أموال اليهود لصالح المسلمين ولأن بنى قينقاع لم يكن لديهم أى أرض زراعية فإن أموالهم كانت تتركز فى الحلى والسلاح ومن الفدية أخذ النبى لنفسه ثلاثة سهام ودرعان وثلاثة سيوف وثلاث حراب وخمس الغنيمة ثم وزع أربعة أخماس على المسلمين ، والشرط الثانى هو أنه يجب على بنى قينقاع أن يرحلوا من المدينة نهائيا فى غضون ثلاثة أيام وحتى يتأكد رحيلهم فقد اصطحبهم عبادة بن الصامت إلى الغاب وسمح لهم فقط أن يأخذوا معهم الأموال التى يمكن أن يسددوا بها ديونهم وقد أقاموا لمدة شهر فى وادى الأنسة حيث أمدهم يهود هذا المكان بالمؤن والخيل ليستأنفوا سيرهم إلى أذرعات بالشام حيث ظلوا هناك .

هذه كل قضية النبى مع بنى قينقاع ولكن من السذاجة والخطأ أن نعتبر أن سبب هذه القضية ينحصر فقط فى حادثة المرأة العربية التى ذكرناها آنفاً .

فى الواقع لقد كان لمحمد مآخذ كثيرة على بنى قريظة وقد كان هذا جزءاً من الصراع بين النبى ويهود المدينة وهو الموضوع الذى سوف نتناوله بالتفصيل بعد أن نفرغ من الصراعات المسلحة بين النبى وقبائل اليهود الثلاثة ونكتفى هنا بذكر حادثة تتعلق ببنى قينقاع .

يروى ابن إسحاق (ص ٣٨٣) « أنه بعد أن أخذ الله قريش فى غزوة بدر جمع رسول الله فور رجوعه إلى المدينة اليهود في سوق بنى قينقاع قائلاً : « يا معشر يهود أسلموا قبل أن يخزيكم الله كما أخزى قريش » فرد عليه اليهود « يا محمد لا يغرنك أنك قتلت عصابة من قريش لا خبرة لهم بالحرب والله لأن لقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس وترى أنك ما لقيت مثلنا » ، وقد أنزل الله ردا على كلامهم

---

(١) الواقدى - المغازى (ص ١٧٩ ١٨١) - الطبرى جـ١ (ص ١٣٦١ - ٢) .

الآيات التالية ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ [آل عمران آيتى ١٢ - ١٣] .

ويذكر ابن إسحاق من بين اليهود المعروفين بالمنافقين رجلاً يسمى زيد بن اللثيات وهو الذى دخل فى عراك مع عمر بن الخطاب فى سوق بنى قريظة وهو أيضا من هذه القبيلة وعندما شردت ناقة النبى ذات يوم قال زيد بن اللثيات «يدعى محمد أن الوحى أنزل عليه من السماء ولا يعرف أين ناقته ولما وصل هذا الكلام إلى النبى قال : « قال أحدكم أن محمد يزعم أن الوحى يأتيه من السماء بينما لا يعرف أين ناقته وأيم الله إنى لادرى إلا ما أعلمنيه الله وإن الله قد دلنى على مكان ناقتى وإنها فى هذا الشعب معقولة فى شجرة » ، وحينئذٍ ذهب بعض المسلمين إلى هذا الشعب ووجدوها كما قال النبى (١) .

ومن بين منافقى بنى قينقاع هؤلاء الأحبار سعد بن حسين والنعمان بن عوف ابن عمرو وعثمان بن عوف ورافع بن حريملة ورفاعة بن زيد بن التابوت وعندما مات الاثنان الأخيران قال النبى « اليوم مات أشر الكفار » ويضيف إليهم ابن إسحاق اثنين آخرين هم سلسلة بن برهم وكنانة بين ثرية « وهؤلاء المنافقون كان من عادتهم أن يأتوا إلى المسجد ويسمعوا أحاديث المسلمين ويسخروا منهم ومن دينهم » (السابق ص ٣٦٢) .

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن بنى قينقاع قد شنوا حملة على النبى وعلى الدين الإسلامى فى المدينة ولم يكفوا عن معارضة المهاجرين والأنصار بالقول والفعل - وحيث أنهم كانوا برجوازيين صانعين ولم يكونوا فلاحين مثل إخوانهم فى الدين فقد أخذوا على عاتقهم مهاجمة الإسلام عقائديا بالدعاية المسمومة حيث استخدموا أسلحة الوشاية والوقيعة بين المهاجرين والأنصار وبين الأنصار بعضهم البعض.

وبعد كل ذلك كيف تريدون من النبى أن يظل سلبيا ولا يرد على عدائهم ؟ إن أى رجل عاقل لا يمكن أن يحتمل أكثر من ذلك .

---

(١) ابن إسحاق سيرة رسول الله (ص ٣٦١) .

لقد كان النبى على حق ألف مرة فى أن يضع نهاية لعدوان بنى قريظة حين تسنح فرصة حقيقية وكانت هى حادثة المرأة العربية التى طعنت فى شرفها وقتل الرجل المسلم الذى ثأر لها . ولذلك فقد قرر النبى أن يصفى حساباته مع قبيلة اليهودى الشريرة والمعتدية والخطيرة من أجل وجود الإسلام نفسه فى المدينة .

إذاً فدموع التماسيح التى يذرفها بعض المستشرفين على مصير بنى قيقاع هى شىء مثير للضحك ومخزى ويثبت تعصبهم الأعمى والظالم .

« محاولة بنى النضير قتل النبى » (١)

وأما قضية بنى النضير فقد وقعت أحداثها فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة (أغسطس - سبتمبر ٦٢٥م ولها علاقة بحادثة بئر معونة التى حدثت فى صفر من السنة الرابعة للهجرة يوليو - أغسطس ٦٢٥م) .

وتتلخص تلك الحادثة فى أن النبى أرسل بناء على طلب أبى براء عامر بن مالك أربعين رجلاً إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام فلما وصولوا إلى مكان يسمى بئر معونة وهو أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم فنزلوا وأرسلوا رسولا مع كتاب النبى إلى عامر بن الطيفل من قبيلة بنى عامر فأبى أن يقرأ الكتاب وقتل الرسول ثم دعا بنى عامر لقتل الباقين فلم يجيبوه قائلين أننا لا يمكن أن نخون جوار وأمان أبى براء فاستنفر ابن الطفيل قبائل بنى سليم فأجابته (عصية ورعل وذكوان) ، فقتلوا وفـد النبى فيما عدا كعب بن زيد بن النجار وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر فى مؤخرة المسلمين فرأيا الطير من بعيد تحوم على موضع الوقعة . فنزلا وقاتل المنذر حتى قتل مع أصحابه وأما عمر بن أمية الضمرى فقد أسر ولما قال لهم أنه من مضر أطلق عمر بن الطفيل سراحه ورحل عمرو بن أمية على بعيره فلقى رجلين من بنى عامر فقتلهما وهما نائمان وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه ، بينما كان هذان الرجلان معهما عهد من رسول الله لم يعلم به عمرو بن أمية وبعقد الجوار هذا يكون على النبى أن يدفع دية هذين القتيلين فذهب النبى إلى

---

(١) انظر ابن هشام (ص ٦٥٢) ، الواقدى (٣٥٣ - ٣٦٢) - الطبرى الجزء الأول (ص ١٤٤٨ ، ١٤٥٣)

يهود بنى النضير ليسا عدوه فى دفع الدية فأجابوه « أجل يا أبا القاسم إن علينا أن نساعدك كما تريد » ، ثم ذهبوا بعيداً عن النبى وقالوا لبعضهم البعض : « إننا لن نظفر بمحمد فى موقف أفضل من هذا لنتخلص منه وكان النبى يجلس إلى جدار من بيوتهم ، فقالوا أيكم يأخذ هذه الرحى ويصعد بها فيلقيها على رأسه فيشدخه بها ، فقال أحدهم وهو عمر بن جحاش أنا أفعل وجهز نفسه للقيام بهذه المهمة وكان النبى يجلس ومعه بعض الصحابة منهم أبو بكر الصديق وعمر وعلى ابن أبى طالب فقام من مجلسه فجأة ورجع إلى المدينة ورجعوا وراءه وسألوه عن انصرافه فجأة فقال لهم النبى : إنه أوحى إليه أن اليهود كانوا يريدون قتله غيلة .

فأمر النبى بالتجهيز لحرب بنى النضير وسار على رأس جيش حتى بلغ حصونهم وحاصرها لمدة سبعة أيام ليجبرهم على الخروج ثم أمر بتقطيع وإحراق النخيل ولذلك أرسلت جماعة من بنى عوف بن الخزرجى منهم عبد الله بن أبى ابن سلول ووداعة ومالك بن أبى قوقال وسويد وداعس أرسلوا رسلهم إلى بنى النضير يحثونهم على المقاومة والبقاء فى حصونهم قائلين لهم : « لن نخونكم فإن قوتلتم لننصرنكم ولئن أخرجتم لنخرجن معكم » ، ولكنهم حين قامت الحرب لم يفعلوا شيئا . وهنا دب الخوف والفزع فى نفوس بنى النضير فحملوا أمتعتهم وما استطاعوا حمله على بعيرهم وأخذوا يدمرون بيوتهم حتى يأخذوا أبوابها ويحولوها على بعيرهم وهكذا رحل بنو النضير .

وقد رحل بنو النضير نهائيا عن المدينة واستقر أغلبهم فى خيبر والآخرون واصلوا السير حتى الشام ومن بين أشرافهم الذين استقروا فى خيبر نذكر « سلام ابن أبى الحقيقة وكنانة بن أبى الربيع بن أبى الحقيقة وحيى بن أخطب وخرجت المنشدات خلفهن ينشدن الأناشيد ويضربن بالدفوف ويقلن « شىء غريب ما رأينا مثله . من أمة بين الأمم » ابن هشام (ص ٦٥٤) وقد حملت أموال بنى النضير إلى النبى فقسمها بين المهاجرين الأوائل خاصة ولم يعط من الأنصار سوى سهل ابن حنيفة وأبى دجانة سماك بن خراشه لفقرهما فأعطاهما جزءاً ولم يبق من أموال بنى النضير سوى مال رجلين يمين بن عمير بن كعب بن عم عمر بن جحاش وأبى سعد بن وهب لأنهما دخلا فى الإسلام . ويقال إن النبى عنف يمينا

قائلا : « أرأيت ما كان يريد ابن عمك أن يفعله بى ؟ وهنا عهد يمين إلى رجل بقتل عمر بن جحاش فقتله .

وكان تقسيم الغنائم بهذه الطريقة بهدف إلى إعطاء المهاجرين ما يقيم أودهم دون الاحتياج إلى الأنصار الذى كانوا حتى ذلك الوقت يساهمون فى سد حاجة المهاجرين ولذلك كان الأنصار متفقين على هذا الشكل من التوزيع .

وبخلاف العقارات من منازل وأراض فقد خلف بنو النضير وراءهم خمسين زرداً وخمسين خوذه - وثلثمائة وأربعين سهماً . وقد كانت أراضى بنى النضير خصبة يزرع فيها بجانب النخيل القمح والشعير . وقد وهب النبى لسعد بن معاذ سيف ابن أبى الحقيقة المشهور .

ولم يحدث سفك لأية دماء إبان رحيل بنى النضير لأنهم نزلوا على شروط النبى حتى يخرجوا ويهاجروا إلى خيبر .

وقد نزلت سورة الحشر بأكملها تتحدث عن طرد بنى النضير وحسبما يقول ابن هشام [1] ومفسروا القرآن فإنه يمكن تقسيم تلك السورة إلى جزأين : ١ - من الآية ٢ حتى ٩ ، ٢ - من الآية ١١ حتى ١٧ ، والجزء الأول يرتبط مباشرة بإخراج يهود بنى النضير والجزء الثانى يتحدث عن موقف المنافقين أمثال عبد الله ابن أبى ومن على مشاكلته ، وهذا هو النص :

الجزء الأول : « سورة الحشر » :

﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعبتروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخره عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ، وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله شديد العقاب ، ما أفاء الله على

---

(١) ابن هشام (السابق) (ص ٦٥٢)

رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولةً بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (سورة الحشر : ٢ - ١٠).

الجزء الثانى : « فى شأن المنافقين » :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولئن قوتلتم لننصركم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبةً فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، كمثل الذين من قبلهم قريباً ذا قوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (سورة الحشر : ١١ - ١٧) .

كما نرى بوضوح فإن المسائل المتعلقة بقضية بنى النضير قد ناقشتها الآيات : سبب طرد بنى النضير ودافع المسلمين إلى قطع نخيلهم وسلطة الرسول المطلقه فى توزيع الغنيمة كما يريد حيث لم يعط الأنصار لا خيلا ولا ركابا بينما لم يشعر الأنصار بأى شىء من الحقد مما أخذه المهاجرون . وكذلك موقف المنافقين الغاضب وهم عبد الله بن أبى وزمرته الذين حرضوا بنى النضير على مقاومة النبى ووعدوهم بالوقوف بجانبهم ولكنهم تنصلوا وتركوا حلفاءهم اليهود فى موقف صعب أجبرهم على النزول على شروط قاسية .

ومن الجدير بالذكر أن كايتانى [١] وقد رأيناه متحفزاً ومتأهباً للدفاع عن بنى قينقاع لم يقل كلمة واحدة فى لوم الرسول فيما يخص وقعة بنى النضير . وهذا لأنه لم يجد أى سبب يبرر لومه .

وحتى نفهم سلوك النبى فى تلك القضية يجب أن نضع فى أذهاننا الاعتبارات الآتية :

(أ) حينما أراد أبو سفيان أن يثأر لهزيمة بدر خرج فيما بين الخامس والعاشر من ذى الحجة فى السنة الثانية للهجرة على رأس جيش قوامه من مائتين إلى أربعمائة محارب مكى يمتطون ظهور البعير وسلك الطريق الذى يمتد إلى هضبة نجد حتى وصل إلى أقرب مكان من قناه وعسكر قريباً من جبل ثيب على مسيرة يوم من المدينة وفى الليل ذهب إلى بنى النضير وتحدث إلى « سلام بن مشكم » الذى كان فى ذلك الوقت زعيم قبيلة بنى النضير وخازنها فاستقبله سلام وعرفه أخبار المدينة ومحمد ﷺ من المسلمين هناك ، وعند الفجر قفل أبو سفيان راجعاً إلى معسكره وأمر بغزو العريض ودمر المقاتلون المكيون بعض النخيل وأضرموا النار فى منزلين وقتلوا أنصارى ومعاونه فى الحقل ، ثم هرب أبو سفيان ورجاله وعندما علم النبى بما فعله أبو سفيان ورجاله خرج يطلبهم ولكنه لم يدركهم ووصل إلى قرقرة الكدر واتخذ طريقه للمدينة ووجد فى طريق عودته كمية من السويق فى حمل ثقيل تركها الفارون ليتخففوا منها أثناء الهرب وقد سميت هذه الغزوة « غزوة السويق » [٢]

إذن فقد علم أبو سفيان الأخبار من زعيم بنى النضير ليهاجم محمداً ﷺ فى المدينة وهذا يعد فعلاً فى قمة الخيانة يرتكبه هذا الزعيم لأنه حسب الميثاق بين محمد ﷺ ويهود المدينة يجب على اليهود ألا يساعدوا القرشيين ضد محمد ﷺ . إذاً فقد كان النبى على حق تام حين عاقب بنى النضير على هذه الخيانة الشنعاء .

(ب) وقد سنحت الفرصة لعقابهم وهذه الفرصة لاحت عندما ذهب النبى يطلب مساهمتهم فى دفع دية الرجلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمر بن أمية

---

(١) انظر حوليات الإسلام جـ١ (ص ٥٨٤ ، ٥٨٨)

(٢) انظر ابن هشام (ص ٥٤٣ - ٤) الواقدى (ص ١٨١ - ١٨٣) - الطبرى جزء واحد (١٣٦٤ - ١٣٦٧)

الضمرى ولم يعطه بنو النضير ولكنهم طلبوا من النبى أن يستريح إلى جوار جدار لهم وزعموا أنهم ذهبوا يتشاورون ولما تأخروا فى الرجوع شك النبى فى أنهم ربما يدبرون مؤامرة لقتله وذلك بقذف حجر من فوق الحائط الذى يسند إليه ظهره ليشدخوا رأسه وقد كان على حق فى شكه فى هذه المؤامرة ولذلك حينما رجع فجأة وعاد إلى المدينة أعطى أوامره لمحمد بن مسلمة الأوسى بأن يذهب إلى بنى النضير ويأمرهم بالهجرة لمكان بعيد عن المدينة وأن يكون رحيلهم خلال عشرة أيام وإلا أعمل التقتيل فيهم تاركاً لهم إمكانية أن يحملوا معهم ما استطاعوا من أموال وأن يأتوا كل عام ليجنوا ثمار نخيلهم . وأما بقية القصة فقد زكرناه آنفا .

وأما « ر . و . وت » ، فمع أنه كان عادلاً وموضوعياً وحسن النية تجاه النبى فإنه لم يكن على حق أن يقول : « إن مثل هذا التصرف القاسى يبدو غير مبرر إذا قيس بالجرم المرتكب أو ربما لا يتفق مع ما قيل من أشياء تعد تصرفات مبهمة فى موضوع تعمد الخيانة من جانب اليهود [(١)] لأنه بعد أن تآمر اليهود مع أبى سفيان ليلة غزوة السويق كان محمد على حق أن يفتك بهم ولكن أن ينتظر حتى تسنح له الفرصة لترحيلهم ، فليست هذه تصرفات مبهمة جداً بل هذه « حصافه وحسن تصرف تام » .

« الصراع مع بنى قريظة »

وقد كان الصراع مع ثالث قبائل يهود المدينة أكثر عنفاً وهو الصراع الوحيد الذى وصل إلى حد سفك الدماء وكان سبب ذلك أن بنى قريظة قد خانوا النبى ﷺ **خيانة عظمى وعرضوا للخطر وجود المسلمين أنفسهم والإسلام وقائده وتلك هى الأحداث .**

(أ) فى شهر شوال من العام الخامس للهجرة مارس ٦٢٧ ذهبت جماعة من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق من بنى النضير وحيي بن أخطب من بنى النضير وكنانه بن أبى الحقيق من بنى النضير وهوزة بن قيس من بنى وائل وأبى عمار من بنى وائل ومعهم حشد من بنى النضير وحشد من بنى وائل إلى القرشيين بمكه

---

(١) (و . م . وت) محمد فى المدينة - الترجمة الفرنسية (ص ٢٥٥) - باريس - مايو- (١٩٥٩م) .

وأغروهم بحرب رسول الله قائلين : « نحن معكم عليه حتى نستأصل شأفته » ، فقال لهم أهل مكة : « يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول وأنتم أهل للحكم بيننا وبين محمد فمن على حق ديننا أم دين محمد ؟ » ، فرد عليهم اليهود : «دينكم خير من دينه وأنتم على الحق دونه » ، وعندما سمع القرشيون ذلك تهللت أساريرهم وتحفزوا لقبول ما عرضوه عليهم من حرب رسول الله ﷺ وأبرموا إتفاقاً فيما بينهم وتواعدوا على الحرب .

« ثم رحل هؤلاء اليهود وذهبوا إلى قبيلة غطفان وهى من بطون قيس عيلان وأغروهم بحرب رسول الله ﷺ قائلين لهم : « سنكون معكم نحن وقريش وسار القرشيون يتقدمهم أبو سفيان بن حرب وخرجت قبيلة غطفان وعلى رأسهم عيينه بن حصن بن بدر . . إلخ [1] - ثم إن حيى بن أخطب اليهودى ذهب إلى كعب بن أسد زعيم بنى قريظة ودعاه إلى نقض حلفه مع النبى ومساعدة قريش وبنى غطفان عندما يأتون ويهاجمون المدينة . فنقض كعب بن أسد باسم يهود بنى قريظة عهده مع النبى ونزل على رأى حيى وأخذ يجهز المؤن لجيش قريش وبنى غطفان ولما علم النبى بهذه المؤامرة أرسل إلى بنى قريظة رسولين هما سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج ليعرفوا ما إذا كان ما وصلهم صحيح أم لا فذهب الرجلان إلى حى بنى قريظةوعلموا أن الأمر أسوأ مما يعلمون فقد قال لهم بنو قريظة : « ومن هو رسول الله ؟ ليس بيننا أى ميثاق و « عهد مع محمد» (ابن هشام ص ٦٧٥ وعندئذ عاد الرسولان إلى محمد يحملان إليه ما سمعاه من أخبار) .

ولما علم النبى بهذه الاستعدادات لغزو المدينة أمر بناء على نصيحة سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة وعندما وجد جيش قريش وحلفائهم هذا الخندف بدأ وفى حصـــار المدينة فى الثامن من ذى القعدة سنة ٥ هـ ٣١ مارس سنة ٦٢٧م وقد استمر الحصار خمسة عشر يوماً [1] . وتفاصيل هذه الغزوة المعروفة بغزوة الخندق لا مجال لها هنا وكل ما يهمنا هو دور بنى قريظة القبيلة الوحيدة التى كانت لا تزال بالمدينة .

كان بنو قريظة يسكنون فى بيوت فى جنوب المدينة وهدا الجزء لم يكن محاطاً

---

(١) ابن هشام (ص ٦٦٩ - ٦٧٠)

بالخندق المحفور حول المدينة ويبدو أن خطة القرشيين وحلفائهم من غطفان بالاتفاق مع بنى قريظة هى مهاجمة المدينة من الجزء الشمالى بينما يهاجم يهود بنى قريظة المسلمين من جهة الجنوب وكان معسكر القرشين يقع فى رماح فى وادى الحقيق على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة بينما كان معسكر غطفان فى غابة على مسافة مماثلة من المدينة .

ولأن بنى قريظة كانوا ضعافا فقد انتظروا أول لقاء بين الجيشين الكبيرين «الأحزاب والمسلمين » وقرروا أن لا يدخلوا المعركه إلا حين تلوح بشائر النصر . وعندما لم يدل شيء على أن هذا النصر يلوح فى الأفق ظل يهود بنى قريظة فى حالة ترقب حتى الانسحاب الكامل من جانب جيش الأحزاب ولأن بنى قريظة كانت عندهم النية لمهاجمة المسلمين من الخلف كما تثبت كل المصادر التى دللت على ذلك فإن بنى قريظة طلبوا من قريش ألف رجل ومثلهم من غطفان حتى ينفذوا الخطه المتفق عليها . وأحس محمد برائحة الخيانة فبعث سريتين بقيادة «سلام بن أسلم » «وزيد بن حارثة » للدفاع عن الجزء الجنوبى من المدينة حيث يوجد بنو قريظة .

ويجب أن نستبعد هذا الزعم الساذج والمثير للسخرية الذى يقوله كاتانى «جـ١ ص ٦٢٤ » والذى ردده م . و . وات (ص ٢٥٥) ، ويقول كاتانى : «إن بنى قريظه كانوا يحتلون موقعا على قدر كبير من الأهمية وكان يمكن للقرشين بالاتفاق معهم أن يهاجموا المدينة من الجزء الآخر أيضا أى من الجزء الذى لا يحميه الخندق وقد احتل بنو قريظة بحصونهم خلف المدينة موقعا على جانب كبيرمن الأهمية الاستراتيجية جعلهم يتسيدون الموقف « جـ١ ص ٦٢٤ وملحوظة ١ ص ٦٢٥ ».

ويردد م . و . وات بنفس السذاجة التى لا تصدق قائلاً : « إن هجوم بنى قريظة من الجنوب على مؤخرة المسلمين كان يمكن أن يستأصل شأفة محمد»[٢] .

---

(١) انظر ابن هشام (ص ٦٧٠ - ٦٧٧) ، ابن الأثير الجزء الثالث (ص ١٣٠ - ١٤١)، اليعقوبى الجزء الثانى (ص ٥٠ - ٥٢) ، الخميس جزء واحد (ص ٥٣٩ - ٥٥٤) - البخارى الجزء الثالث (ص ٩٣ - ٩٨) ، السيرة الحلبية (ص ٦٠ - ٨٥) ، الطبرى جزء واحد (ص ١٤٦٧ - ١٤٧٠) - الواقدى - فلهاوزن (ص ١٩٢ - ١٩٥) .

(٢) م . و . وات محمد فى المدينة - الترجمة الفرنسية (ص ٥٥) .

إن وات كايتانى ينسون أن السريتين اللتين بعث بهما النبى لحماية ظهور المسلمين من هجمات بنى قريظه كانتا كافيتين لإفشال هذه المحاولة من جانب بنى قريظة ونسوا أيضاً أن هؤلاء اليهود لم يشكلوا أية قوة قادرة على إلحاق ضرر فادح فى مؤخرة المسلمين وخضوعهم التام واستسلامهم أمام هجوم المسلمين فيما بعد لهو دليل واضح على ضعف قوتهم الحربية فهل ، أنا أيضاً أحمق فى أن أرى كاتانى وبالأخص وات يكتبون هذه السخافات » فى الواقع بعد أن انسحب القرشيون وحلفاؤهم من غطفان وفى نفس اليوم سار المسلمون إلى بنى قريظة ليعاقبوهم على خيانتهم فلما رأوا الهجوم انسحبوا إلى حصونهم وبعد صلاة الظهر بقليل سار المسلمون إلى تلك الحصون يحمل رايتهم على بن أبى طالب والرسول على فرس يقال له اللهيف على رأس جيش به ست وثلاثون فرساً ثم توقف ليستريح عند ماء أناس الذى يوجد أسفل حرة بنى قريظة وقد سبقه على وأبو قتادة مع بقية جيش المسلمين « ابن هشام ص ٦٨٤ - ٦٨٥ - الطبرى جـ١ ص ١٤٨٥ - ١٤٨٦ » وعندما تقدم على بمقدمة الجيش إلى حصونهم هب بنو قريظة يشتمون محمداً بأقذع الشتائم ولما علم النبى من على ما قالوه اقترب من حصونهم قائلاً : « يا إخوان القردة ألم يخزكم الله وينتقم منكم ؟ فردوا عليه » «لقد علمت » « ابن هشام ص ٦٨٤ » .

« وفرض رسول الله الحصار حول حصونهم لمدة خمسة وعشرين يوماً حتى أرهقهم الحصار قذف الله فى قلوبهم الرعب وقد دخل حيى بن أخطب مع بنى قريظة فى حصونهم وحينما نسجت قريش وغطفان مع ما كانوا عليه من عهدهم كبر بن أسد وعندما تيقن بنو قريظة أن رسول الله لن يرحل قبل أن يقضى عليهم قال لهم كعب بن أسد : « يا معشر يهود لقد ألم بكم ما ترون وإنى أعرض عليكم ثلاث خصال فاختاروا ما شئتم، فسألوه وما هى هذه الخصال فقال لهم : ندخل فى عهد هذا الرجل ونؤمن به فقد علمتم والله أنه لنبى مرسل وإنكم تجدون ذلك فى كتابكم وإن اتبعتموه ستأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم »، فقالوا له : لا نترك حكم التوراة أبداً ولا نرضى به بديلاً فقال لهم : فإن أبيتم فاقتلوا زراريكم ونسائكم بأيديكم ثم نخرج إلى محمد ورجاله بسيوف مصلتين لا نترك وراءنا أى شىء حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن متنا فقد متنا دون أن نترك ذرية من بعدنا نخاف عليهم وإن انتصرنا تزوجنا وأنجبنا ذرية أخرى فقالوا له

أنقتل هؤلاء المساكين ؟ ما قيمة الحياة بعدهم ؟ فقال لهم : فإن أبيتم فهذه ليلة السبت وقد يظن محمد وأصحابه أننا لن تفعل شيئاً فهيا نأخذ محمداً وأصحابه على غرة فأجابوا : أنعدو فى سبتنا ويحيق بنا ما حاق بأهلنا حين تجرؤا وعدو فى السبت مسخهم الله فقال بغضب « ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً »[1] .

وفى الصباح وبعد خمس وعشرين يوماً وقيل خمسة عشر يوماً من الحصار اتفقوا على أن يستسلموا للنبى فبعثوا نياسن بن قيس ليتفاوض مع النبى وطلبوا أن يرحلوا بنفس الشروط التى رحل بها بنو النضير ولكن النبى رفض لأن حالة بني النضير تختلف عن حالة بني قريظه وطلب منهم أن يستسلموا بلا شرط وعند ئذ طلبوا مقابلة لبابة بن عبد المنذر الأوسى حليفهم القديم فبعث الرسول إليهم أبا لبابة الذى نصحهم بأن يستسلموا دون شروط وأفهمهم بحركة من يده حول عنقه أن المصير الذى ينتظرهم هو الذبح وهى حركة ظل يؤنب نفسه عليها حتى سامحه النبى ولم يكن أمام بني قريظة إلا أن يستسلموا بلا شروط فربطوا الرجال فى حبل وسبقوا بواسطة محمد بن مسلمة وجمع النساء فى مكان آخر وعهد معهم إلى عبد الله بن سلام وغنم المسلمون كل ما فى بيوت بني قريظة من آنية وسلاح وملابس ومنقولات وغنموا فى ذلك (١٥٠٠ سيف و ٣٠٠ زرد و ١٠٠٠ رمح و ١٥٠٠ أوقية) ، وكثير من الزجاج وبعض الإبل والحمير .

أما عن مصير الأسرى فإن الأوس الذين كانوا حلفاء بني قريظة قد توسلوا إلى النبى ﷺ بأن يترك لهم التصرف فى مصيرهم كما فعل مع بنى قينقاع حلفاء الخزرج حين ترك مصيرهم فى أيدى الخزرج ومع أن النبى رأى أن الفرق كبير بين الموقفين إلا أنه أجابهم « ألا ترضون معشر الأوس أن نحكم فيهم رجلاً منكم قالوا نعم فقال النبى فذاك إلى سعد بن معاذ » « ابن هشام ص ٦٨٨ » .

فجيء بسعد بن معاذ إلى النبى فتوجه إلى المتحلقين حول النبى قائلاً : «تشهدون الله على أنكم ستنزلون على حكمى فى بنى قريظه ؟ قالوا نعم فقال النبى نعم ، فقال سعد : « أحكم فيهم بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال ».

---

(١) ابن هشام (ص ٦٨٥-٦٨٦) .

فقال النبى لسعد بن معاذ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات » « ابن هشام ص ٦٨٩ »

ويحكي ابن إسحاق أنهم أنزلوا من حصونهم وحبسهم رسول الله فى دار بنت الحارس وهى امرأة من بنى النجار وذهب الرسول إلى سوق المدينة وحفر لهم خنادق فى هذا السوق ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق وتضرب أعناقهم فى تلك الخنادق جماعة بعد الأخرى وكان من بينهم عدو الله حيى بن أخطب وزعيمهم كعب بن أسد وكان عددهم ما بين الستمائة إلى السبعمائة ومن بالغ فى عددهم قال : أنهم ما بين الثمانمائة والتسعمائة « ابن هشام ص ٦٩ » .

ولم يقتل أحد من نسائهم باستثناء امرأة واحدة لجريمة ارتكبتها لم يعرف ما هي « ابن هشام ص ٦٩٠ ، ١ ، ٢٢ هامش » (١)

وقد أمر النبى أن يقتل من الذكور من أنبت وبيع من لم ينبت أسيراً وقد روى ابن هشام أيضا ص ٦٩٢ أن سلامة بنت قيس عمة النبى أوصته أن يترك رفاعة بن صمؤيل القرظى لأنها زعمت أنه يقيم الصلاة ويأكل لحم الإبل أى أنه مسلم فتركه النبى .

وقسمت أموال بنى قريظة ونساؤهم وأطفالهم هكذا : للفارس ثلاثة أسهم اثنان للفرس وواحد له والمشاة سهم واحد وكان عدد الفرسان ست وثلاثون وقد خرج خمس الغنيمة للنبى قبل التقسيم وهذه هى المرة الأولى التى يخرج فيها خمس الغنيمة كلها ويعطى للنبى ومنذ ذلك الحين جرت القاعدة على إعطاء الخمس للرسول فى بقية الغزوات التالية وقد بعث النبى سعد بن زيد الأنصارى مع بعض نساء اليهود الأسرى إلى نجد فباعهم واشترى بثمنهن أسلحة وخيل .

وقد اصطفى رسول الله لنفسه من سبايا بنى قريظه ريحانه بنت عامر بن خناقة وهى امرأة من بنى عمرو بن قريظه وظلت عند النبى حتى مات عنها وحينما عرض عليها أن يتزوجها قالت له : « يا رسول الله أحب أن أظل ملك يمينك فهذا خير لى ولك » ، فتركها الرسول ولما أصرت رفضت أن تعتنق الإسلام وفضلت

---

(١) وفى بعض المصادر يقال أنها رمت حجراً كبيراً على أحد المحاصرين المسلمين

أن تظل يهوديه اعتزلها النبى ولكن بعد وقت قصير أعلنت إسلامها فضمها النبى إليه « ابن هشام ص ٦٩٣ » .

أما العقارات والتى كان أكثرها مزارع النخيل فلم تبع ولكنها قسمت إلى خمسة أقسام متساوية قسم للنبي والأقسام الأربعة لأربع من القبائل عن طريق القرعة .

وهذا كل ما يمكن أن يقال فى موضوع بني قريظه .

ولذلك فإنه من العجب أن نرى كثيراً من المستشرقين يذرفون دموع التماسيح على مصبر بنى قريظة مثل كايتانى الذى يزعم أن المذبحة التى راح ضحيتها ٩٠٠ من أبرياء اليهود كانت مدبرة وأن حكم سعد بن معاذ كان بناء على توجيهات من النبى وأن مسأله خيانة اليهود خيالية وأن محمداً وحده يتحمل مسؤلية تلك المذبحة[1] .

وفى كتاب صغير يتسم بالسوقيه بعنوان « محمد والفتح العربى الكبير » (ميلانو، ١٩٦٧) يردد فرانشيسكو جاريل اكيانفش مزاعم كايتانى .

ولكن ما لاحظ كاتانى فاسد للأسباب التاليه :

(أ) حكم سعد بن معاذ لم يكن بإملاء من النبى وهذه جلسة الحكم الذى نطقه سعد حين حمل إلى حيث يجلس النبى مع ممثلى المهاجرين والأنصار ومن بينهم الأوس وهم الحلفاء القدامى والمدافعون عن بنى قريظة والذين كانوا يريدون أن يساعدوهم وقد اتفق الجميع على أن ينزلوا على حكم سعد ولم ير أحد أن سعد تداول مع النبى قبل أن ينطق حكمه ولم يشك أحد من الأنصار فى حدوث مثل تلك المشاورة فبأى حق يزعم كايتانى ومن على شاكلته يتجرءون بالحديث عن أن الحكم كان بإيعاذ من النبى ؟ وهل شهد كايتانى وأمثاله جلسة الحكم هذه التى حدثت قبل ثلاثة عشر قرناً من ميلادهم ؟

(ب) لقد أوضحنا بما فيه الكفاية خيانة بنى قريظة للنبى إبان غزوة الخندق أليس من المثير للسخرية إذاً أن يتحدث كايتانى عن ٩٠٠ برىء ؟ وهل الذين يتآمرون مع الأعداء من قريش وغطفان ليهاجموا ظهور المسلمين بينما يهاجم

---

(١) كايتانى - حوليات الإسلام - جـ أ ص ، ٦٣ ملحوظة ٨ .

القريشيون وحلفاءهم شمال المدينة يكونون برءاء ؟ وأما كونهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بفضل السريتين اللتين بعث بهما النبى لإفشال المخطط وأيضا بسبب عدم وجود هجوم مجابه وحقيقى من جانب القرشيين فهذا لا يلغى شيئاً من إدانة اليهود باعتبارهم خائنين .

(جـ) بأى حق يتحدث كايتانى عن « المذبحة اللا إنسانية بعد اشتراك بنى قريظة فى الهجوم على النبى ومسلمى المدينة ؟ إن كاتانى نفسه يعترف فى الجزء الأول أن بنى قريظة كان لهم دور مهم فى مهاجمة محمد بالاتفاق مع قريش على أن يهاجم القرشيون الجزء الأعلى من المدينة بينما يهاجم اليهود الناحية الأخرى وفى ملاحظته فى هذا السياق يقول أيضا إن النتيجة الواضحة أن بنى قريظة كانوا سيحتلون حدود المدينة وسوف يكونون فى موقع غاية فى الأهمية الاستراتيجية وسوف يتحكمون فى الموقف وكان إخراج بنى قريظة لمهاجمة المدينة يعنى أن ينظم اليهود صفوفهم ليهاجموا الناحية المقابلة للمدينة والمسماة العالية والتى تقع ضمن حدودهم « المرجع السابق ص ٦٢٥» ، وهذا هو كلام كايتانى فكيف يتجرأ بعد ذلك على وصف بنى قريظه بأنهم أبرياء ؟ ولكنه التعصب الأعمى الذى جعله يقع فى هذه التناقضات .

إن حكم سعد وما تمخض عنه مما ليس للنبى فيه دخل ينبع من أن بنى قريظة اشتركوا فى هذا التحالف الذى جاء يهاجم المدينة بهدف استئصال شأفة المسلمين ومحمد والدين الإسلام . إذاً فقد كانوا محاربين أعداء بمعنى الكلمة وقانون الحرب يحتم قتل الرجال بالسلاح وأسر النساء والأطفال وقد كان حكم سعد بن معاذ تطبيقا دقيقاً لهذا القانون وإذا كان القانون فى حد ذاته غير عادل فهو قانون الحرب الذى يطبق فى كل زمان ومكان بمنتهى الظلم والقسوة كما أن العلماء المستشرقين الأوربيين يعرفون ذلك تماماً وقد طبقه الأوربيون آلاف وآلاف المرات فكيف يأتون اليوم ليلقنونا دروساً فى الأخلاق فى موضع الحرب !

وأما حكم « مكسيم رودنسون » فى هذا الموضوع فهو حكم رشيد حيث يقول « لقد كانت مذبحة بنى قريظة من ناحية أخرى ومن وجهة نظر سياسية أمراً مفروضاً فقد كان بنو قريظة يشكلون خطراً دائماً على المدينة وكان تركهم يرحلون يقوى مركز المؤامرات المضادة للمسلمين فى خيبر والموتى فقط هم الذين لا

يعودون وقتلهم من الممكن أن يساهم فى إضعاف الروح المعنوية لدى الأعداء وقد كان الحل الذى اختاره محمد هو الأمثل من الناحية السياسية ونعلم جيداً أن السياسيين لا يقبلون الاعتبارات إلا عندما تصبح لديهم عوامل سياسية مفيدة أو عندما لا يستطيعون أن يفعلوا غير ذلك » (١)

ولكن رأى و . م . وات (٢) مضطرب جداً فبدلاً من أن يسوق حكماً واضحاً فإنه يتخبط فيسوق أحياناً ملاحظات عن الولاء للإسلام الذى فضله سعد على ولائه القبلى الذى كان يتطلب منه أن يضع فى الاعتبار الحلف القديم بين بنى قريظه والأوس .

فتح خيبر

لقد تخلص محمد نهائياً من يهود المدينة ولكن ظل هناك بقية من اليهود يثيرون القلاقل ويدبرون المؤامرات مع أعداء المسلمين ويقومون بدعاية مضادة لدين الإسلام بين مختلف القبائل التى لم تكن قد دخلت الإسلام . لقد رأينا كيف أن اليهود الذين طردوا من المدينة ولجئوا إلى خيبر قد حرضوا قريشا وغطفان على أن يتحالفوا ويرسلوا بجيش جرار إلى المدينة وكان هذا أحد الأسباب التى جعلت النبى ينزل على حكم سعد بن معاذ ويقتل رجال بنى قريظة ليمنعهم من أن يتهيؤا لحربه مرة ثانية كما فعل بنو النضير .

وبعد يومين مما وقع لبنى قريظة - بدأ زعماء خيبر يتحركون . فقد اجتمع زعماء خيبر وزعيم بنى النضير اللاجئين إلى خيبر يجتمعون ليتشاوروا فيما يجب أن يفعلوه وأخذ النساء يصرخن ويمزقن ثيابهم ويقطعن عقودهن حداداً على بنى قريظة . وخطب سلام بن مشكم فى اليهود المجتمعين وعرض عليهم الدخول فى حلف مع يهود تيماء وفدك ووادى القرى ليتحالفوا ويغزوا المدينة قبل أن يهاجم محمد خيبر وهو الهجوم الذى قدروا أن يكون هجوماً وشيك الوقوع فقوبل اقتراحه بالترحاب من جانب المجتمعين سوى كنانة بن الربيع الذى أكد

---

(١) مكسيم رودنسون ، محمد ، (ص ٢٤٨) ، باريس ، ١٩٧٥ .

(٢) م . و . وات محمد فى المدينة الترجمة الفرنسية (ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) . وهذا الرأى مضطرب ويشم له رائحة الشرود وهو رأى دائم يردده وات فى كل مرة تظهر له مشكلة واضحة .

لهم أن الهجوم لن يكون وشيك الوقوع [1] وقد كان على حق فبينما حدثت غزوة خيبر فى شهر رمضان من السنة السابعة للهجرة بينما كان هذا الاجتماع فى ١١ ذو الحجة فى السنة الخامسة من الهجرة أى قبل فتح خيبر بأكثر من عام .

لقد سار النبى على رأس جيش المسلمين إلى خيبر فى الأيام الأخيرة من رمضان للسنة السابعة للهجرة (بداية مايو ٦٢٨ ميلادية) وكان على بن أبى طالب يحمل لواء الجيش ذى اللون الأبيض وقد استعمل النبى على المدينة غيله ابن عبد الله الليثى ومر بالجيش على الصهباء ونزل فى وادى يسمى الرجيع بين خيبر وغطفان لمنع غطفان من مساعدة خيبر لأن غطفان كانوا متحالفين مع أهل خيبر ضد النبى ، وعندما سمعت غطفان بقدوم النبى إلى خيبر كونوا جيشاً صغيراً ليساعدوا خيبر فى حربهم ضد النبى وبعد سيرهم بوقت قصير سمعوا سخطا وجلبة بين اليهود فاعتقدوا أن المسلمين هاجموا قومهم فقفلوا راجعين إلى منازلهم وتركوا الساحة خالية بين النبى وأهل خيبر .

واقترب المسلمون من حصون خيبر وأخذوا يسقطونها واحداً بعد الآخر وكان أول ما سقط من الحصون حصن ناعم وثانى الحصون كان يسمى حصن القاموص وكان لقبيلة بنى الحقيق .

ومن النساء اللاتى أسرن نذكر صفية بنت حيى بن أخطب التى كانت متزوجة من كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، وقد اصطفى النبى صفية لنفسه ثم تزوجها فى طريق العودة إلى المدينة وقسمت بقية السبايا بين المسلمين [2] وكان زوج صفية وهو كنانه بن الربيع خازن لبنى النضير وحارث خزائنهم وقد سأله النبى أين يوجد هذا الكنز فزعم كنانة أنه لا يعلم شيئاً عنه ولكن أحد اليهود قال للنبى إن كنانة يحوم كل يوم حول أنقاض بيته ، وهنا قال النبى لكنانة : « ولو وجدت الخزائن عندك أأقتلك ؟ فقال كنانة : نعم ، فأمر النبى بحفر الأنقاض فظهر جزء من الكنز فقال النبى لكنانة أين تخفى الكنز ؟ فرفض كنانة أن يرشد عن مكانه فأمر النبى الزبير بن العوام أن يعذبه حتى يعترف أين يخفى بقية الكنز ولما يئس منه قتله محمد بن مسلمة .

---

(١) الواقدى ، فلهوزن ، (ص ٢٢٤) .

(٢) ابن هشام (ص ٢٥٨) .

ثم استولى المسلمون على بقية الحصون فيما عدا حصن الواطة والسلالم فقد حاصرهم المسلمون ولما تأكدوا من أن الحصنين على وشك السقوط رجوا النبى أن يخلى بينهم وبين الرحيل فوافق النبى ، بينما سلم أهل فدك حصونهم وقد أرسلوا إلى النبى ليستبقيهم أيضاً مقابل أموالهم فوافق النبى ، وقد رجا أهل خيبر النبى أن يزرعوا الأرض مقابل نصف الخارج منها لأنهم يعرفون زراعة الأرض أفضل من المسلمين فوافق النبى على شرط أن يستطيع طردهم من الأرض حين يريد[1] .

وعلى هذا كانت خيبر غنيمة للمسلمين الذين شاركوا فى فتحها بينما كانت فدك خاصة للنبى لأن المسلمين لم يفتحوها بالقوة .

يهودية تدس السم للنبى

بعد أن انتهى النبى من فتح خيبر وفدك أهدت يهودية تدعى زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود كتف شاة مشوية إلى النبى ، وكانت تعلم أن النبى يفضل هذا الجزء من الشاة ، ولذلك حشته بالسم كما حشت بقيه الفخذ ووضعته أمام النبى الذى تذوق جزءاً من الكتف ، ولكنه لم يستسغها وكان رجل يؤاكل النبى ويدعى بشير بن البراء بن معرور قد ذاق قطعة فاستطابها وأكل جزءاً كبيراً من الكتف ولكن النبى تقيأ قطعة اللحم ، ثم قال : « إن هذا العظم يحدثنى أنه مسموم » استدعى زينب بنت الحارث فاعترفت فقال لها ما الذى حملك على ذلك ؟ » فقالت له « لقد فعلت بقومى ما لا يخفى على أحد فقلت لنفسى لو كان ملكاً أتخلص مه ، ولو كان نبياً فسوف يحميه الله من هذا فسامحها النبى ، ولكن بشير مات بالسم ، ويحكى أن النبى فى مرضه الأخير قبل الموت قال أنه منذ الأكلة التى أكلها فى خيبر يشعر أن عرقه يتقطع ، كما أن المسلمين يزعمون أن النبى مات شهيداً مع ما أولاه الله من النبوة [2] .

وقد ذكر ابن هشام أسماء المسلمين الثمانية عشر الذين استشهدوا فى خيبر (٧٦٨ ، ٧٦٩) ، وأما الغنائم فقد قسمت غنائم حصنى الشق ونطاه بين المحاربين المسلمين وغنائم حصن الكنيسة كان خمسها للنبى وذى القربى واليتامى ونساء النبى والوسطاء بين النبى وأهل فدك « المرجع السابق ص ٧٧٣» .

---

(١) ابن هشام (ص ٧٦٤ - ٧٦٥)

(٢) ابن هشام (٧٦٥) .

أما عن عقد المزارعة مع أهل خيبر فقد ظل سارى المفعول في حياة النبى وخليفته أبى بكر وكذلك فى عهد عمر بن الخطاب ، ولكن عمر سمع بحديث للنبى يقول لا يجمع دينان فى الجزيرة العربية » ومن ناحية أخرى فإن النبي حين منح ليهود خيبر حق استمرار زراعة أراضى خيبر وعاملهم على نصف الخراج قال لهم أن له الحق فى أى وقت أن تنزع منهم حق الزراعة ويطردهم من هذه الأراضى وهذا بالضبط ما ذكرهم به عمر حينما أمرهم بالرحيل عن الأرض فى سنة عشرين هجرية (٦٤٢) ميلادية .

وعلى ذلك فقد كان في غزو النبى لخيبر وفدك ووادى القرى مبرراً تماماً من الناحية السياسية والدينية وحتى الاقتصادية ولذلك فإنه لم يجرؤ أحد من المستشرقين حتى الحاقدين على الإسلام أن يرفع صوته بالاحتجاج على هذه الغزوة وما أحسن ما قاله بإنصاف مونتجومرى وات : « إذا كان يهود المدينة بعد تصفية بنى قريظة ظهروا بمظهر الموادعة فإن يهود خيبر ومن بينهم زعماء بنى النضير قد كانوا مثيرين للقلاقل ومعبئين ضد محمد دائماً بدافع الثأر وكانوا يوظفون ثرواتهم في جزء كبير منها لتحريض العرب المحاربين ولا سيما القبائل القوية مثل غطفان على التحالف معهم ضد المسلمين ولقد كان محمد على حق فى مهاجمة خيبر[1].

وعلى العكس من ذلك ما أورده جود فرواه ديمومبين [2] فى هذا الموضوع وهو متناقض ومبهم حيث يزعم أن محمداً قد بدأ حصاراً لم يكن مستعداً له (ص١٥٩) ولو لم يكن مستعداً من الناحية العسكرية فكيف استطاع الحصول على كل حصون خيبر فى خلال أربعين يوماً ؟ وهناك هراء آخر وهو « أن المسلمين كانوا قلقين من مهاجمة بقايا اليهود الذين كان بعضهم يجاورونهم فى المدينة (ص ١٥٣) ولكن هؤلاء المسلمين هم الذين طردوا اليهود من المدينة ، وقتلوا كثيراً منهم بالسلاح ويهود خيبر هؤلاء هم الذين ما فتئوا يتآمرون ويحرضون قريش وغطفان للخروج بجيش يهاجم محمداً والمسلمين فى المدينة إذاً لماذا يشعر هؤلاء المسلمون ببعض القلق لمهاجمة خيبر ؟ .

---

(١) م . و . وات محمد فى المدينة الترجمة الفرنسية (ص ٢٦٢) .

(٢) محمد (ص ١٥٨ ، ١٦٢) .

إن فتح جميع حصون خيبر لم يكلف المسلمين سوى ما يقرب من عشرين قتيلا[1] وهو رقم ضئيل جداً بعدد هذه الحصون وهى سبع حصون هى حصن القموص والناعم وأبو الحقيق وحصن الشق والنطاه والسلاليم وحصن الوطيم وحصن الكتيبة ويضيف اليعقوبى إليها أسماء أخرى « جزء ٥٦٢ » والبكرى (ص ٣٣٥) يضيف إليها حصناً عاشراً إن فتح خيبر كما يعترف بذلك فرانتسبول [2] قد أعطى محمداً كل الأسباب ليخطط بهذه الحملة التى منحته بضربة واحدة السيطرة على كل المستعمرات الهامة لليهود .

تصفية الشخصيات المزعجة

١ - كعب بن الأشرف :

من بين يهود المدينة كان هناك شعراء يجتهدون فى نظم القصائد يهاجمون بها النبى والمسلمين وبالأخص النساء المسلمات والإسلام كدين .

وكما قال كايتانى « جزء ١ ص ٥٣٤ » « من بين اليهود يتميز على وجه الخصوص الشاعر كعب بن الأشرف بالعنف وعداوته اللدود التى كان يبديها فى كل موقف باتجاه محمد والإسلام وهو من قبيلة بنى النضير وكان أحد الذين أبدوا قمة الحقد لنصر المسلمين فى بدر ولم يستطع أن يعزى نفسه للهزيمة الساحقة وللقرشيين الذين كان يسميهم « ملوك البشرية » وبدافع كراهيته للمسلمين رحل كعب إلى مكة وأقام عند المطلب بن أبى وداعة بن دبيرة السهمى زوج عاتكة بنت أبى العاص بن أمية فاستقبله هذان الروجان استقبالاً حاراً وقد نظم كعب قصيدة يحيى بها الأمل فى نفوس القرشيين ويلهب عواطفهم للثأر وقد بكى القرشيون القتلى وحرض أهل قريش بعنف ضد محمد وقد زاعت أشعار كعب فى مكة وأحدثت أثراً عظيماً وأثارت القرشيين ، وأعادت إليهم ما كانوا نسوه من المشاعر بعد هزيمة بدر ولم يترددوا فى إظهار ألمهم الفاجع وقد استمر زرف الدموع والشجن العام لمدة شهر فى مكه ، وما تزال قصائد كعب ترد حتى وصلت إلى مسامع محمد الذى تألم للمساوئ التى يسوقها الشاعر وقد أمر محمد بدافع أهمية قصائد هذا الشاعر أمر شاعره حسان بن ثابت أن يرد على جميع القصائد الساخرة التى نظمها أعداؤه شعراً وقد أمر حسان أن يسب ويشتم بالشعر كل الذين استضافوا الشاعر اليهودي فى مكة وقد انتصرت أشعار حسان فى النهاية

فلم يجرؤ أحد من القرشيين على استضافة هذا الشاعر حتى لا يتعرض لسباب وشتائم الشاعر المسلم حسان بن ثابت فلم يجد كعب بن الأشرف بدأ من العودة إلى المدينة حيث كتب أيضاً أشعاراً جديدة يهاجم بها محمد والدين الجديد، ويحاول أن يتهم النساء المسلمات فى شرفهن ، باختصار لقد حاول هذا الشاعر أن يبدو الأكثر جرأة والذى لا يمكن احتماله أمام أعين الناس .

ولما انزعج محمد من هذا العدو الخطير جداً طلب من أصحابه قائلاً : « من يخلصنى من ابن الأشرف ؟ » فهب محمد بن مسلمة ليقتله ، ولكنه حين وضع فى حسابه جميع المخاطر والصعاب لم يجرؤ أن ينفذ وعده وأصبح مضطرباً وامتنع عن الطعام والشراب ، ولما سأله محمد عن الباعث على سلوكه الغريب اعترف له محمد بن مسلمة أنه لم يستطع أن ينفذ وعده دون أن يقترف الكذب والخديعة فسمح له محمد بأن يسلك أى السبل ليحقق هدفه المنشود فاطمأن محمد بن مسلمه لكلام النبى ، وأسرع ينفذ مهمته وأخذ معه أربعة من المسلمين وهم أبو نائلة ابن سلامة بن واقش أخو كعب بن الأشرف فى الرضاعة وعباد بن بشر بن واقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عباس بن جابر « ابن هشام ص ٥٤٩ ، ٥٥١ ، الواقدى ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، الطبرى جـ١ ص ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ابن الأثير جـ٢ ص ١١٠ بن خلدون جـ٢ ص ٢٢» .

وهذا بالتفصيل ما ذكره « كايتانى » فى هذا الموضوع ليدلى بشهادة مستشرق فى صالح محمد على غير العادة ويكفى بالنسبة له تبرير أمر محمد بالتخلص من رجل خطير ومجرم إلى أقصى درجة ولم يكن بوسع النبى أن يفعل غير ذلك مع الرجل الذى :

(أ) ذهب إلى مكة يحرض القرشيين على الأخذ بثأرهم من هزيمة بدر .

(ب) رجع إلى المدينة ولم يكف عن مهاجمة النبى ودينه بأقطع قصائد السباب.

(جـ) نظم قصائد فاضحة تهدف إلى التشهير بالنساء المسلمات مما ألحق بهن الأذى (ابن هشام ص ٥٥٠) ومثل هذه الجرائم لا تستحق سوى القتل ، ولم يكن للنبى اختيار آخر سوى أن يحكم عليه بالإعدام . وقد عهد بالتنفيذ إلى محمد بن مسلمه الذى تطوع لتنفيذ المهمة وحتى ينفذها على خير وجه فقد استعان بسلكان بن سلامة (يقال له أبو نائلة) الذى كان أخاً لكعب من الرضاعة

ثم عباد بن بشر » ثم « الحارث بن أوس » ثم « أبو عباس بن جابر » وقد أرسلوا أول الأمر أبا نائله أخا كعب من الرضاعة وقد كان شاعراً أيضا فتناشدا ثم قال أبو نائلة لكعب « لقد جئتك لأمر أريدك أن تكتمه فيما بيننا فرد كعب : قل أسمع، فقال أبو نائلة : لقد كان قدوم هذا الرجل (محمد) علينا شؤما عظيما فلقد عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وتقطعت بنا السبل حتى هلك أبناؤنا وأزهقت أرواحنا وأصابنا القحط نحن وأبناؤنا » فقال له كعب : « لقد أنذرتكم وحذرتكم من ذلك » فقال أبو نائلة : « أريد أن أبتاع منك طعاماً مقابل رهن » فقال كعب : « أعطني أولادك رهناً » فرد أبو نائلة : « إنك لا يرضيك أن يعيرنا الناس ولى أصحاب ألم بهم ما ألم بي وأريد أن أحضرهم إليك ليبتاعوا منك طعاماً وسنعطيك تروسنا رهنا عندك » وكان أبو نائلة يريد من وراء ذلك أن لا يشك كعب إذا ما جاء هو أو أحد أصحابه بأسلحتهم فوافق كعب قائلا : «حسناً أنا أرضى بالسلاح رهنا » .

وبعد هذا اللقاء عاد أبو نائلة إلى أصحابه وقص عليهم ما كان منه مع كعب وأسر إليهم بأن يحملوا السلاح ويجتمعوا عند النبى وقد تبعهم النبى إلى « برق الغرقد » ثم قال لهم : « باسم الله انطلقوا ، اللهم أيدهم » ثم عاد النبى إلى بيته.

وفى ليلة قمراء . وصل الأربعة إلى حصن كعب ، فناداه أبو نائلة وكان كعب قد عَرس منذ وقت قريب فقفز مر على سريره فقالت امرأته إنك رجل حرب وأهل الحرب لا ينزلون فى تلك الساعة فرد كعب « هذا أبو نائلة ولو وجدنى نائماً لأيقظني فقالت امرأته : « والله إنى لأحس فى صوته بنازلة » فرد كعب «إن الشجاع إذا دعى إلى نزال أجاب » .

ثم نزل كعب من حصنه . وسأله الأربعة أن يذهب معهم إلى شعب العجوز ليتسامروا بقية ليلتهم فوافق فساروا حتى هناك وبعد ساعة أو ساعتين صاح أبو نائلة فى أصحابه « اقتلوا عدو الله » فتاسبقت سيوفهم إلى كعب دون أن تقتله فاستل محمد بن مسلمة خنجراً من جراب سيفه وبقر به بطن كعب (ما بين السرة

---

(١) كاتانى الجزء الأول سنه سبعة هجرية (ص ٤٣)

(٢) حياة محمد (ص ٢٩٤)

والعانة) فخر صريعا . وقد كان كعب حين هاجمه قد رفع عقيرته بصياح أسمع من حوله من الحى .

ورجعوا إلى المدينة فدخلوا على النبى وأخبروه بقتل كعب .

ولما أصبح الصباح ارتعد اليهود لقتل كعب حتى لم يعد بالمدينة يهودى لا يخاف على حياته (١) .

وقد امتدح كعب بن مالك فى قصيدة نظمها فى معركة بنى النضير قتل كعب ابن الأشرف بأبيات ذكرها ابن هشام (ص ٥٥٣) ، كما أن حسان بن ثابت قد نظم قصيدة أيضا فى قتل كعب بن الأشرف وكذلك قتل سلام بن أبى الحقيق جاء فيها :

لله در عصـــابة لا قيتهـــم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

يسرون بالبيض الخفاف إليكم مرحـا كأســـد فى عـــرين مغرف

وكما أورد الواقدى فإن قتل كعب بن الأشرف فى ١٣ - ١٤ ربيع الأول من السنه الثالثة للهجرة (٣ - ٤ ديسمبر ٦٢٤م) وهذا التاريخ لا يتفق فقط مع ما أورده الواقدى كتاريخ لغزوة أبى عمار فى ١٢ - ١٣ ربيع الأول وهى الغزوة التى شارك فيها النبى بنفسه .

٢ - أبو رافع بن أبى الحقيق :

(٤ - ١٤ ذى الحجة سنة ٤ هـ) .

وقد أمر النبى بقتل شخص آخر هو أبو رافع بن أبى الحقيق من بنى النضير وقد هاجر مع قبيلته بنى النضير إلى خيبر حين طردوا من المدينة وهناك أخذ يحرض قبيلة غطفان والقبائل العربية المجاورة ليعلنوا الحرب على المسلمين ويمنيها الأمانى وأمام الخطر الذى شكله نشاط أبى رافع كان على النبى أن يتصرف بحسم فاختار خمسة من المسلمين ليقتلوا هذا الرجل الخطير وكان هؤلاء الخمسة هم عبدالله بن أنيس وأبو قتادة والأسود بن الخزاعى وعبد الله بن عاتك (٢) ومسعود بن سنان . وقد غادر هؤلاء الخمسة المدينة فى الرابع من ذى

---

(١) ابن هشام (ص ٥٥٢) .

(٢) بعض المصادر تقول بدل (ابن عاتك) (عبد الله بن عقبة) انظر الطبرى جـ١ (ص ١٣٧٥) .

الحجة سنة أربع من الهجرة وتوجهوا إلى خيبر وذهبوا خلسة إلى بيت المرضعة القديمة لعبد الله بن عاتك حيث اختفوا هناك ، وفى ليلة من الليالى خرجوا من مخبئهم وتوجهوا إلى بيت أبى رافع بن أبى الحقيق وقد حرصوا أثناء مرورهم على المنازل فى طريقهم أن يغلقوا أبوابها حتى يصعب على من فيها الخروج ولما وصلوا إلى بيت أبى رافع صعدوا السلم الخارجى المؤدى إلى حيث ينام أبو رافع وقد طلبوا من امرأته أن تتركهم يدخلوا ليقدموا عطية لأبى رافع ، وكان عبد الله ابن عاتك يعرف قليلاً من العبرية مم مكنه من أن يتحدث مع هذه المرأة بالعبرية وهنا وافقت المرأة ففتحت الباب ولكنها فزعت حين رأت الرجال الخمسة مدججين بالسلاح فطعنها أحدهم بخنجر فى رقبتها ثم توجهوا إلى أبى رافع الذى كان نائماً فى سريره وغرز أحدهم سيفه فى صدر أبى رافع وسحبه بقوة بعد أن فصل جثة أبى رفع إلى جزئين وقد كان أبو رافع عجوزاً فمات من فوره وهرب المسلمون الخمسة وصاحت زوجة أبى رافع بعد رحيلهم فخرج اليهود بعد مشقة من منازلهم ولكن هيهات فقد هرب المسلمون الذين كانوا يختبئون فى كهف لمدة يومين حتى أوقف اليهود البحث .

ورجع المسلمون الخمسة إلى المدينة دون أن يمسسهم سوء بعد غياب استمر عشرة أيام من أربعة إلى ١٤ من ذى الحجة للسنة الرابعة للهجرة الموافق ٧ - ١٧ مايو ٦٢٦ (١) وهذه هى قصة قتل ابى رافع بن أبى الحقيق وكانت جريمته أشنع من جريمة كعب بن الأشرف لأنه كان يحرض غطفان والقبائل العربية الأخرى لمحاربة محمد والمسلمين وقد وعدهم بالمال والسلاح .

وقد نظم حسان بن ثابت قصيدة مدح فيها قتل أبى رافع (٢)

وفى هذا الصدد نذكر هنا إحدى شطحات « جودفروا ديموميين » حيث يزعم فى كتابه « محمد» (ص ١٢٨) أن حسان بن ثابت كان فقيراً قرزاماً (ينظم الشعر

---

(١) انظر الواقدى - فلهوزن (ص ١٧٠ ، ١٧٢) - الطبرى جـ١ (ص ١٣٧٥) إلى (١٣٨٣) ابن الأثير (ص ٩٣١) وقد ذكر ابن هشام هذا الحدث بشكل عابر (ص ٣١) ولم يذكر التاريخ .

(٢) انظر الطبرى جـ١ (ص ١٣٧٦) وابن سعد (٢ ، ١ ، ٦٦) .

الردىء) ، لأنه امتدح قيمة كعب بن الأشرف والشعراء الآخرين الذين كانوا يسبون النبى . وهذا يؤكد :

(أ) أن جودفروا ديمومبين لا يفهم الشعر العربى لأن المؤرخين للأدب العربى القدامى والمحدثون يحكمون بأن شعر حسان بن ثابت يتفوق على شعر كعب بن الأشرف مائة ذراع وكذلك على شعر بن الزبعرى وكل الشعراء الآخرين الذين سبوا النبى ولا يمكن أن يحكم على الشعر العربى إلا فاهم لغته الأم اللغة العربية.

(ب) وهذا يؤكد أيضاً أن جود فروا ديمومبين كان متعصباً سيء النية ضد النبى والإسلام .

ولم يفعل مكسيم رودنسون [1] سوى أن يردد آليا نفس السخافات ولم يكن كتابه سوى ترديد لآراء المستشرقين الآخرين دون أن يفكر هو نفسه فى القضايا محل الخلاف إلا فى حالات نادرة .

٣ - اليسير بن رزام :

بعد قتل أبى رافع أراد يهود خيبر أن يختاروا سلام بن مشكم زعيما لهم ولكنه رفض ، فاختاروا اليسير بن رزام الذى حرض غطفان على حرب النبى ويقول ابن هشام : « إن اليسير بن رزام حاول أن يدفع غطفان إلى حرب رسول الله فبعث النبى إليه عبد الله بن رواحة على رأس جماعة من أصحابه فيهم عبد الله بن أنيس حليف بنى سلامة ولما وصلوا إلى اليسير بن رزام تحدثوا معه وقدموا له العطايا وقالوا له لو جئت إلى النبى فسوف يستعملك ويعلى قدرك وما زالوا به حتى رضى أن يسير معهم ومعه مجموعة من اليهود فحمله عبد الله بن أنيس على بعيره ولما وصلوا إلى قرقرة وهى مكان على بعد ستة أميال من خيبر وقد كاد اليسير بن رزام أن يوافق على الذهاب إلى النبى شعر عبد الله بن أنيس أن اليسير حاول أن يستولى منه على سيفه فهجم عليه وضربه بسيفه فقطع ساقه فضربه اليسير بعصا غليظه من شجر يقال له الشوحط فجرحه فهجم كل من صاحبى النبى على اليهود وقد قتل اليهود واحداً أخذ يعدوهارباً [2] .

---

(١) مكسيم رودنسون « محمد » (ص ٢٢٧) حيث يتكلم عن الشعراء الرديئين للنبى .
(٢) ابن هشام (ص ٩٨٠ ، ٩٨١) انظر الواقدى - فلهوزن (ص ٢٣٩ ، ٢٤٠) .

٤ - خالد بن سفيان بن نبيح الهزلى .

لقد كان الأشخاص الثلاثة الذين تحدثنا عنهم يهود وهذا شخص رابع لم يكن يهوديا وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى . وقد شرع فى جمع القبائل لحرب النبى وكان الحى الذى يسكن فيه يقع فى نخلة أو عرقة .

ولما علم النبى بتحركات خالد بن سفيان أحضر « عبد الله بن أنيس » بطل الاغتيالين السابقين وقال له : « لقد جاءنى أن ابن سفيان بن نبيح الهذلى يؤلب القبائل على وهو بنخلة أو عرقه فاذهب إليه واقتله » ، فقال عبد الله بن أنيس «يا رسول الله صفه لى حتى أعرفه » فقال له النبى : « حين تراه كأنك رأيت الشيطان والعلامة التى بينك وبينه أنك حين تراه ترتعد » فقال عبد الله بن أنيس : « فخرجت بسيفى حتى رأيته مع نساء يبحث لهن عن مكان يقيلون فيه بعد الظهر لما رأيته أحسست بالرعدة التى حدثنى عنها رسول الله فاقتربت منه حتى كنا وجها لوجه فقال : « من أ نت ؟ » ، فقلت : « عربى سمع عنك وعما تحشد من القبائل فجاء ليكون عونا لك » ، فقال ابن سفيان : « نعم لقد عزمت على ذلك» ، فسرت معه قليلاً حتى اطمأن لى ثم عاجلته بضربة سيف فقتلته ثم تركته ونساءه عاكفات عليه ولما رجعت إلى رسول الله قال لى : « هل ظفرت » قلت : « أجل قتلته » فقال النبى : « أحقاً ؟ فقام وأدخلنى بيته وأعطانى عصا قائلاً : «احفظ هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس » فخرجت ومعى العصا فسألونى «ما هذه العصا ؟ » فقلت : « هذه عصا أعطانيها رسول الله وأمرنى أن أجعلها عندى » فقيل لى : « ألا تريد أن ترجع إلى رسول الله وتسأله لم هذه العصا فرجعت إلى النبى وسألته : « لم أعطيتنى تلك العصا » ؟ فقال النبى : هذه علامة بينى وبينك يوم القيامة وفى هذا اليوم لن يحمل عصا إلا قليل من الناس».

فجعل عبد الله بن أنيس العصا عنده حتى موته وأمر بأن توضع بين كفنه وجسده بعد الموت » .

* * *

(١) ابن هشام (ص ٩٨١ - ٩٨٢)

خـــاتمة

باختصار إن كل الإجراءات التى اتخذها النبى ضد اليهود سواءاً كانت فردية أو جماعية كانت تميلها اعتبارات حربية . فيهود المدينة منذ أن وطئت قدم النبى المدينة حاربوه حرب تخريب وحربا دينية وعقائدية وحرب أعصاب وأخيراً حرباً قصيرة . فقد حاولوا أن يؤلبوا القبائل العربية المحاربة على محمد والإسلام وعاصمته المدينة بالمؤامرات والمال والسلاح وعرضوا الأمة الإسلامية الناشئة للمخاطر المتواصلة . وحتى يحافظ على نفسه ودينه فإن محمداً لم يكن من الممكن أن يظل مكتوف الأيدى أمام الخطر اليهودى . ويالتعاسة من يرى مثل هذا الخطر ولا يسرع لاستئصاله بشتى الطرق !

والدموع التى يذرفها المستشرقون على مصير اليهود فى مختلف حلقات صراعهم مع النبى لا تنم إذاً إلا عن نفاق بواح لأنهم عندما يتعلق الأمر ببلادهم لا يذرف أى منهم دمعاً فى الظروف المشابهة لتلك الظروف . إن أيا من الإجراءات التى اتخذها محمد لم يكن بدافع دينى أو عنصرى . ولا حتى بدافع اقتصادى كما يحلو لبعض المستشرقين أن يذكروه مما يدل على ذلك أن القيمة التى حصلها المسلمون من وراء ذلك كانت تافهة وفى بعض الأحيان لا توجد غنيمه : فقافلة مكة حيث يعترضها المسلمون خيراً عشر أو مائة مرة من كل ما غنموه من اليهود .

* * *

ب - محمد والمسيحية

مفهوم عيسى فى القرآن وسوابق هذا المفهوم فى المسيحية :

من بين أكثر الآراء شيوعاً بين دارسى الإسلاميات الأوربيين ذلك الرأى القائل بأن مفهوم القرآن عن قضية صلب لمسيح مقتبس من المسيحية القديمة . ولكى نناقش هذا الرأى نبدأ بذكر الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع :

- ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما** ﴾ (سورة النساء الآياب من ١٥٦ إلى ١٥٨) .

ويؤكد القرآن فى هذه الآيات بقوة على أن اليهود لم يقتلوا المسيح ولم يصلبوه ولم يكن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله هو الذى قتل بل كان شخصاً مشابهاً له أو أنه كما حكى القرآن حرفيا « شبه لهم » أنهم صلبوا المسيح ولكن فى الحقيقه إن الذى صلب شخص آخر غير المسيح يشبه المسيح .

وحسبما يورد القرآن يتحدث عيسى عن نفسه قائلاً : ﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ (سورة مريم آيات من ٣٠ إلى ٣٣) ، ثم يؤكد القرآن ﴿**ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (سورة مريم ٣٤ - ٣٥) .

فعيسى ليس ابن الله ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل** ﴾ (الزخرف آية ٥٩) كما أن عيسى نفسه قال : ﴿ **إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ (الزخرف آية ٦٤) .

وحتى يؤكد القرآن على الوصف البشرى الخالص لطبيعة المسيح يقول : ﴿ **إن**

مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ (آل عمران آية ٥٩) .

أما عن بيت عيسى فإن القرآن يعرفه بهذه الألفاظ : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ (الصف آية ٦) .

كما أن القرآن يقف فى وجه دعوى التثليث بقوة حيث يقول : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ (سورة النساء آية ١٧١) .

أما الذين قالوا : إن المسيح هو الله فهم الكفار ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنه ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (سورة المائدة آية ٧٢) .

﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ (المائدة آية ٧٥) .

كما أن معجزات عيسى لم تكن إلا بأمر الله ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (المائدة ١١٠) ﴿ وإذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها

عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾ (سورة المائدة من آية ١٢ إلى ١٢٠ آخر السورة) .

كما تؤكد الآيات التالية نفس الأفكار ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلي يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين ءامنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ (سورة آل عمران من آية ٤٥ - إلى ٥٧) .

وهذه هى الآيات القرآنية الرئيسية المتعلقة بعيسى ويمكن أن نستخلص منها النتائج الآتية :

١ - إن عيسى ما هو إلا رسول من رسل الله مثله فى ذلك مثل بقية الرسل .

٢ - إن عيسى بشر لا أكثر ولا أقل مثله في ذلك مثل أى بشر آخر خلقه الله .

٣ - إذاً فهو ليس ابناً لله لأن الله لم يلد ولم يولد .

٤ - إذاً فعيسى ليس أحد أقانيم التثليث والتى هى الأب والابن والروح القدس .

٥ - خلق الله عيسى كما خلق الناس جميعاً أى بقوله : كن ، وكن هذه هى فعل الله وعلم ذلك ، فعندما يقول القرآن إن عيسى خلق بكلمة الله فهذا يعنى فقط بأمر الله أى بالنفحة الإلهية التى لا علاقة لها بالكلمة Logos المذكورة فى إنجيل القديس يوحنا «١٢١» والتى تطورت فيما بعد بشكل كبير فى اللاهوت المسيحى ولن أركز كثيراً على هذه النقطة فأى مسلم يفهم من كلمة « كلمة » فى الآيات ٣٩ ، ٤٥» من سورة آل عمران والآية ١٧١ من سورة النساء لم يفهم إلا المعنى الذى أوضحناه . وهو كلمة كن التى تنطبق على كل المخلوقات والله يقول كن لعيسى فيكون عيسى وهذا كل ما فى الأمر وأى تفسير آخر يعد فاسداً ولا يمكن قبوله .

٦ - لقد قام عيسى بمعجزاته ليس بقوته الذاتية ولا إرادة الذاتية ولكن بقدرة الله وتلك هى حالة بقية الأنبياء الآخرين فى معجزاتهم ، وهدف هذه المعجزات فى القرآن - وحسبما يقول الإسلام - هو أن تثبت أن الأنبياء الذين قاموا بها مرسلين من قبل الله ليؤدوا رسالة عهد بها إلى أناس أرسلهم الله إليهم وهذا مناقض تماماً لما فهمه آباء الكنيسة المسيحية من دور المعجزات التى قام بها يسوع المسيح فى الواقع لقد أكد آباء الكنيسة أن معجزات المسيح تثبت ألوهيته [١] ومن المعجزات المذكورة فى الأناجيل لا يذكر القرآن سوى ثلاثة [١] شفاء الأعمى «انظر متى ٨ - ٣٠ - ٣١ - : ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٤» .

---

(١) انظر كاردراتوس (quadratus) التاريخ الكنسى ١ ، ٤ - ١٠٠ ، ٣ الآباء اليونانيين مجلد ٢٠ رقم (٣٠٨) ملتون فريجم (٧) وقد أكدوا أن معجزات يسوع تثبت أنه ابن الله وهو نفس رأى يوحنا كريزوستونس وهيلارويس .

مرقص ٢ ، ١١ ، ١٢ ، ١٠ ، ٤٦ إلى ٥٢ لوقا ١٨ ، ٣٥ إلى ٤٣ وإبراء الأبرص « انظر متى ٢٨ من ٢ إلى ٤ مرقص ١ ، ٤٠ إلى ٤٥ لوقا ٥ ، ١٢ إلى ١٦ ، ١٧ ، ١١ إلى ١٩» .

وإحياء الموتى « لوقا ٢٧ من ١٢ إلى ٨٠١٥ ، ٤٩ إلى ٥٦ يوحنا ٩ ، ٣٢ إلى ٤٤» وعلى عكس ذلك فإن معجزة الطير المصنوعة من الطين ليست مذكورة فى الأناجيل الأربعة ، ومن بين المعجزات الثلاثين الذين ينسبونها إلى المسيح ويدرجونها تحت العناوين التالية : طرد الأرواح الشريرة وشفاء الأمراض التى لا شفاء منها (البرص والشلل الخ) وإحياء الموتى وتعدد الأطعمة والأشربة وخرق قوانين الطبيعة (المشى على ماء البحر والطيران فى الهواء .. الخ) إذاً فالقرآن مع اعترافه الكامل أن عيسى قام بمعجزات إلا أنه يعطى هذه المعجزات معنى آخر غير المذكور لدى آباء الكنيسة ، وبالنسبة للقرآن فتشهد المعجزات فقط على أن عيسى نبى وأنه رسول الله ليس إلا .

ويتفق القرآن فى ذلك مع كلام المسيح نفسه إذا كانت كلمة « أب » تفهم بالمعنى العام للكلمة وهو « رب » أى أبو الناس جميعاً ومربيهم . وهذا هو كلامه « إن الأفعال التى منحنيها الأب لأقوم بفضلها بتلك الأعمال تشهد فى ذلك أن الأب هو الذى أرسلنى » (يوحنا ٥ ، ٣٦٠) « والأفعال التى أقوم بها باسم أبى هى التى تشهد لى » (يوحنا ١٠ ، ٢٥) ولكن المشكلة كلها هى معرفة ما إذا كان علماء اللاهوت المسيحيون سيقبلون هذا التفسير لكلمة أب وهو الله الذى لم يلد !

٧ - وفيما يتعلق بموت يسوع المسيح فإن القرآن صريح فلم يقتل اليهود عيسى ولم يصلبوه إذاً فقد مات موتاً طبيعياً ولكن ما لم يوضحه القرآن فى هذا الصدد هو تعبير ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ (سورة النساء آية ١٥٨ ﴿ **يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى** ﴾ (سورة آل عمران آية ٥٥) فكلمة « رافعك » يمكن أن تؤدى إلى غموض . ولكن فى رأينا ليس هناك غموض . والغموض لا يحدث إلا إذا نسينا أن حرف العطف المستخدم هنا هو الواو التى تلحق بالموت مباشرة الرفع إلى الله. فى الحقيقة إن الواو لا تعنى التتابع ولكن تعنى مطلق الجمع دون أى تتابع.

ولو أراد القرآن أن يعبر عن التتابع المباشر لكان لا بد أن يستخدم حرف العطف الفاء وكان لا بد أن يقول متوفيك فرافعك إلى إذاً يجب أن نفهم الآية بمعنى أن أرواح البشر ترفع إلى الله بعد الموت وعيسى لا يعد استثناء من البشر فالله سيميته وسيرفع روحه إليه . تماماً كما يفعل بكل البشر .

* * *

السوابق المسيحية على المفهوم القرآنى للمسيح

وسنرى الآن ما إذا كان المفهوم القرآنى عن المسيح يتفق مع بعض المذاهب المسيحية التى وضعها علماء اللاهوت المسيحيون أم لا .

كون المسيح ليس إبناً لله وأنه من طبيعة أخرى غير طبيعة الله وأنه خلق من العدم فهذه تعاليم مجموعة من الآريين وعلى رأسهم « إنيوس وإنوميوس وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الأنوميبو « أنصار - اللا مشابهة بين الله والمسيح » فى الواقع إن كرابتيوس الانطاكى [1] « المولود حوالى سنه ٣٠٠ فى قيسارية والمتوفى حوالى ٣٦٦ فى القسطنطينية - وكان طبيباً وتعلم الجدل الأرسطى فى الإسكندرية وأصبح مطراناً فى سنة ٣٦٢ أنيوميوس من كيادوتش [2] « مات فى سنة ٣٩٢ أو ٣٩٥ فى صناحية داركولانى كابودوتش » وقضى شبابه فى القسطنطينة ثم أقام بمصر حيث أصبح تلميذاً لإتيوس ثم أصبح من نواب المطران عام (٣٥٨) ثم مطراناً لكريت عام (٣٦٠) وهو الذى وضع مذهب أوتيوس فى شكله الأخير وفى رأيه ورأى معلمه أونيوس فإن كلمة « مولود » هى الصفة الأساسية للطبيعة الإلهية كذلك فإن طبيعة يسوع ليست إلهية ، ويؤمن ايتوميوس بأن الله قوى وواحد لا شريك له كما يؤمن أن الله لا يمكن أن تكون له ذرية لأن أى ذرية تعنى بالضرورة الانتقال من مرحلة اللا وجود إلى مرحلة الوجود والولد يصير مولوداً من الأب أى كمخلوق خلق من مخلوق غير مخلوق ، وهنا لا بد أن يحدث بالضرورة تنوع فى الطبيعة كما ينفى إيتوميوس مطلقاً فكرة التثليث .

---

(١) انظر عنه p . G ٤٢ - رقم (٥٣٤) إلى (٥٤٦) ، يردنهاور ، جـ٣ (ص ٢٣) القاموس اللاهوتى الكاثوليكى جـ١ رقم (٥١٦) و (٢) انظر عنه - تلمونت جـ٦ (ص ٥٠١) إلى (٥١٦) ، يردنهاور جـ٣ ١٣٩ إلى ٩٨ كلوزى ، تاريخ وثقافة إينوميوس ، كيل ، ١٨٣٣ ، القاموس اللاهوتى الكاثوليكى جـ٥ ، رقم ١٥٥١ رلى ١٥١٤ ، رلينسكل ، اللاهوت والكنيسة الطبعة الثالثة ليبزج ، ١٨٩٨ جـ٥ ٥٩٧ - ٦٠١

(ب) وقد ذهب بعض آباء الكنيسة أبعد من ذلك أيضاً فقد قالوا إن عيسى «ليس إلا بشر » وعند جوستان فإن المسيح هو ولد يوسف ومريم وكان مجرد راع حتى سن الثانية عشرة حيث تلقى بواسطة باروخ وباسم وبأمر إيلوهيم رسالة السماء « الفلسفة جـ٥ ، من ٥ إلى ٢٦ مطبعة كيرويت ، باريس ١٨٦٠ ، ص ٢٣٦» ومنهم أيضا كربوكرات الذى لم ير فى أن يوسف الذى تربى فى أحضان اليهودية إلا عدواً للعهد القديم وداعية سلام يسخر من شريعة موسى « ترتوليا من عن الكتابة المقدسة ، ٩٨ ، بدل ، مجلد ٢ ، رقم (٦٧) ، الفلسفة (٧) ، من ٥ إلى ٣٢ ، ص ٣٨٥ » ومنهم أخيراً سيدنت الذى يميز بين شخصيته فى المخلص « يسوع » مؤيداً القول بأن عيسى ولد مثل بقية البشر دون أى تدخل معجز وأنه لم تظهر إلا بركة عابرة من المسيح منذ تعميده فى الأردن وحتى قبل نبوته . . . أما زعماء العلوم الروحية الآخرون مثل سيمون الساحر وشروميته ويازليد وفانتين وماريشيون الخ وبعدهم مانس فإنهم ينكرون بشرية المخلص يسوع المسيح ولا يريدون أن يروا فى الأحداث التى حدثت له عند مولده وموته وبعثه إلا ظواهر متشابهة دون أدنى حقيقة موضوعية (١) .

فى الواقع إن كربوكرات السكندرى الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثانى يقول : إن الله ولد (أرينى ، ٢٥ رقم ١ ، الفلسفة ، جـ٧ ، من ٥ إلى ٣٢، طبعة كرويس ، باريس (١٨٦٠) (ص ٣٨٥) » ويؤكد أن يسوع ليس إلها وليس إلا بشراً مثل بقية البشر وهو ابن يوسف النجار ومريم ولكنه من طبيعة سامية بفضل دمة واستقامة حياته « الفلسفة ص ٣٨٥» ويمتلك يسوع طبيعة صلبة وخالصة تذكرنا بما رآه فى حياته السابقة ، فلقد تربى على الشريعة والعادات اليهودية ولكنه سخر منها وأدت به هذه السخرية المتحررة إلى التخلية التى سمحت له بأن يتخلص من الملائكة الخالقين (الفلسفة السابق) وبهذه السخرية من شريعة موسى كان عيسى أداة للسلام بين البشرية وهذا هو كل موضوع الخلاص عند

---

(١) جـ١ بارى ، مقال فى Do SETISME (١ فى معجم اللاهوت الكاثوليكى مجلد ٤ رقم (١٤٨٥) - باريس (١٩٢٤) .

(٢) بارى ، مقال عن كربوكرات (Carporate) فى المعجم اللاهوتى الكاثوليكى المجلد الثانى (الجزء الثانى رقم (١٨٠٠) ، باريس ، (١٩٢٣)

كربوكرات الذى لا يتحدث لا عن ألوان المعاناة التى لاقاها يسوع ولا عن موته ويقتبس كربوكرات من أفلاطون نظرية أسبقية وجود الأرواح وينفى مطلقاً ألوهية يسوع .

أما سيرنت فقد ولد فى مصر وتكون علمياً بشكل معين فى الاسكندرية وتبحر فى الفلسفة اليونانية وفى الحكمة الشرقية ودرس أعمال فيلون ومحاولته المصالحة بين الفلسفة اليونانية وتعاليم موسى ولما ترك مصر نزح إلى فلسطين فى زمن التبشير الرسولي وأقام فى القدس ثم فى قيصرية ثم فى أنطاكية واستقر فى آسيا حيث أقام مدرسة وأسس مذهباً ، انظر أرينيه جـ١ ، ٢٦ ، ١ P . G ، مجلد ٧، رقم (٦٣٤) إبيفان ، الهرطقات ، ٢٨ ، ١ ، P . G ، مجلد ٤١ ، رقم (١٧٧) .

وفى دراسته للمسيح يميز سيدنت فى المخلص بين شخصيتى يسوع والمسيح ويؤكد أن يسوع ولد من يوحنا ومريم مثل بقية البشر « الفلسفة ٢٨ ص ٣٨٨، تير توليان ، الكتابة المقدسة ٤٨ رقم ٦٧ » وقد عانى ومات وقامت قيامته « بارنيه الهرطقات المضادة ، ١ ، ٢٦ ، ١ P . G مجلد ٧ رقم (٦٨٤)، الفلسفة ، ٧، ٥ ، ٣٣ ، ص ٣٨٩ » وكما يقول القديس أوجستين فإنه يجب أن يبعث ولكن يسوع ليس هو الله . إنه رجل خير بعقله وحكمته وفى لحظة تعميده تلقى فى شكل يمامة المسيح الذى أرسلته القوى السامية وتعلم منه وحى الله الغير معروف «إرينيه المرجع السابق » ولكن هذا الضيف الغريب « المسيح » الذى يستعصى على الألم ولا يمكن أن يعانى لم يحتفظ به يسوع حتى موته ولحظة عذابه . فى الحقيقة لقد ترك المسيح يسوع وصعد إلى السماء وقد عانى يسوع وحده ومات « الفلسفة ص ٣٨٩ » [١] إذن ففى رأى سيدنت فإن عيسى البشرى لم يكن إلا رجلاً حدثت له بركة عابرة دخل فى أثنائها المسيح لحظة تعميد يسوع التى قام بها القديس يوحنا وخرج قبل صلبه ويسوع البشرى هو وحده الذي عاش مثل بقية البشر ومات حقاً وصلب على الصليب إذاً ليست هناك طبيعتان عند سيدنت بل على العكس فإن سيدنت يؤكد « أن يسوع لم يولد من عذراء لأن هذا يبدو له

---

(١) بارى مقال عن سيدنت فى المعجم اللاهوتى الكاثوليكى مجلد ٢ جـ٢ رقم (٢١٥٣، ٢١٥٤)

مستحيلاً ، ولكنه ابن يوسف ومريم بإنجاب مشابه لبقية البشر وقد تفوق على جميع البشر بالعدل والحذر والحكمة وبعد تعميده جاءه المسيح مرسلاً من القدرة العليا التى هو فوق كل شيء ونزل على يسوع فى شكل يمامة وهنا أعلن هذا المسيح عن الأب الغير معروف وقام بالمعجزات حينما ترك يسوع وحده عانى يسوع وصلب وبقى الميسح لا يمكن المساس به لأنه مثل الهواء لا يمكن لمسه » .

إذا فالمفهوم الطبيعى للمسيح عند « سيرنت » يتشابه مع المفهوم القرآنى بينما يوجد بعض الشبه فقط بين مفهوم « جوستان ش وكربوكرات » والمفهوم القرآنى.

وعند علماء الروحانيات العظام مثل « بارلستيد » و « فالنتين » و « مارثيون » يجب أن نبحث عن أوجه شبه بين مفهومهم عن عيسى ومفهوم القرآن .

(أ) بازليد :

ولد « بازليد » في نهاية القرن الأول الميلادى وعاش وتعلم بالاسكندرية خلال فترة حكم الامبراطور هادرمين ١١٧ - ١٣٨) والامبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١) وحسب ما أكده كليمون السكندرى فإن علماء الهرطقة يضعونه بجانب استرنل الأنطاكى (چيستان) محاورة ، ٣٥) ويلحقون الاثنين بالملاحدة وهم ميتندر وسيمون الساحر (ايرينيه ، ضد الهرطقات ، ١ ، ٢٤ ، ١ هيبوليت، الهرطقات ، ٧ ، ٢٨١) وقد كتب تعليقاً على الإنجيل فى (٢٤) كتاب وكان عنوان التفسير (كليمون السكندرى ، علم الفلك ، ٤ ، ٨١ ، ١) ويقول أورچين أن بازليد نفسه قد ألف إنجيلاً خاصاً به كما أن له كتاباً آخر يشتمل على بعض المزامير .

كما أن معرفته بالكون قد أوردها القديس إرينيه فيما يلى : « من الأب ولد العقل أولاً ومن العقل ولدت الكلمة ثم من الكلمة ولد الخطر ومن الخطر ولدت الحكمة من القوه ومن القوه والحكمة ولدت الفضائل والملوك والملائكة والذين يسميهم الأوائل ومن أجلهم خلقت السماء الأولى ومنهم ولدت ملائكة آخرون .

إنهم يرفضون أن يعتقدوا بوجود المسيح كلمة الله وكلمة الأب (أو سبب ، التاريخ الكنسى ، جـ٣ ، ٢٧ ، ٢٧٣) كما أنهم يدرسون نفس الأراء التى قال بها سبرنت وكربوكرات فيما يخص يسوع .

وهذه النبذة عن الآراء المتعلقة بطبيعة المسيح فى القرنين الثانى والثالث تكفى لإيضاح أن المفهوم القرآنى ليسوع له سوابق عند بعض ممثلى الكنيسة المسيحية فى بدايتها أى حين كانت قريبة من منابعها الأولى قبل أن تحرف على نطاق واسع من قبل البيزنطيين وتدخل فى تفسيرات عقيمة وإذا كان المضطلعون بهذه الآراء يعتبرهم آباء الكنيسة ملاحدة وهراطقة ، فإن هذا لا يغير فى الأمر شيئاً ، فليس المطلوب أن ترضى عنهم المجامع المسماة الأرثوزوكسية. وما يهمنا هنا هو أن هذه الأفكار ظلت محل تقدير من جانب أكبر وجهاء المسيحية فى عهدها الأول ، ولذلك فهى تمثل العقائد المسيحية فى صفائها .

إذن فمن الخطأ اتهام القرآن بأنه أساء التصور عن المسيحية ومؤسسها وهو اتهام ردده تقريباً المستشرقون .

* * *

مريم التى تجعل منها الشعائر المسيحية إلهه تُعبد

يذكر القرآن أن بعض المسيحين يعتبرون مريم أم عيسى إلهة وهذه هى الآيات :
﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾ (سورة المائدة الآيات ١١٦ ، ١١٧) .

وفى معرض الحديث عن هذه الآيات يجب أن نوضح بدايةً رداً على النتائج الخاطئة والمستخلصة بشكل متسرع من جانب المستشرقين والمسيحيين الشرقين أنه ليس فى هذه الآيات ولا فى أى مكان فى القرآن ما يؤكد على أن مريم جزء من الثالوث أو أقنوم من هذا الثالوث إن كل ما قاله القرآن فى الآية ١١٦ من سورة المائدة هو أن هناك بعض المسيحيين ينظرون إلى مريم أم عيسى عى أنها إلهة وهذا كل ما فى الأمر .

بينما يؤكد المدافعون عن المسيحية أن هناك شعائر مسيحية تساند هذا الاعتقاد ومنهم إبيفان (ت ٤٠٣م) فى كتابه « عدو الهرطقه » ، الكتاب الثالث ، الهرطقه رقم (٧٩) ـ فى موسوعة الآباء اليونانية مجـ ٤٢ ، رقم (٧٣٩ - ٧٥٥) وقد خصص فصلاً كاملاً لما يسمون CollyridiEns وهم الذين يقدمون القرابين إلى مريم كما يذكر إبيفان أنه كتب بخصوص موضوعهم خطاباً إلى كنائس الجزيرة العربية وهذا يؤكد أولاً أن هذه الطائفة كانت موجوده فى زمنه كما كانت موجودة فى الجزيرة العربية وهذه الطائفة هى طائفة المونتانية أتباع منتانوس وهو الذى أسسها حوالى سنة (١٥٦م) فى منطقة فريجى ثم فى كل أسيا الصغرى وقد تنبأ مونتانس هو وتلميذيه الأولين بريسكلا (Priscila) وماكسيملا (Maximilla)

بالنهاية القريبة للعالم والتى تبدأ بسقوط أورشليم العيا على قرية فارسية صغيرة تسمى بييوذا وكانت تنبآتهم الروحية قد قادتهم إلى أن يكونوا ضمن النبوءة المذكورة فى الإنجيل عند القديس يوحنا (١٤ . ١٦٠ ، ٢٦ ، ١٥ ، ٢٦ ، ١٦ ، ٧) وكذلك مع الروح القدس

وكل الذى يهمنا فى هذا المقام هو الفرقة المونتانية التى ذكرها إبيفان والمسماة Collyridiens حيث يقول : « بعد أن ظهرت هذه الفرقة فى شداس انتشرت حتى وصلت للجزيرة العربيه فى شكل مذبح منقول وكان أصحاب هذه الفرقة يعرضون أمام الأنظار خبزاً ثم يقدمونه قرباناً باسم مريم ويوزعونه » ويذكر «بيسرد» « ولا بريول » فى رسالته الثانوية عن مصادر تاريخ المونتانية (باريس ١٩١٣) بالتفصيل المصادر التى تتحدث عن عقيدتهم المتعلقة بمريم أم يسوع باعتبارها إلهة ويناقش إبيفان إلحاد هذه الطائفة فى معرض حديثه عن القضية التالية وهى هل من حق النساء أن يصبحن قساوسة ومطارنة ؟ ويرفض إبيفان بشدة هذا الأمر ولا يعترف لهن بهذا الحق ولكنه يعترف لهن فقط بالحق فى أن يصبحن راهبات ويخلص إلى أن (جسد مريم مقدس ولكنها ليست إلهة) (موسوعة الآباء اليونانيون المجلد ٤٢ رقم ٧٤٦ ، ١ ، ٢٤ - ٤٥) .

كما يذكر يوحنا الدمشقى (توفى حوالى ٧٥) أيضاً هذه الطائفة التى تعبد مريم ولكنه يكتفى فقط بالقول أن هذه الطائفة تقدم إلى اسم مريم بعض الحلوى الصغيرة فى تاريخ محدد من كل عام ومن هنا اكتسبوا اسمهم Collyridiens أى الذين يقدمون Collrides وهى الحلوى الصغيرة أو الخبز الصغير[١] . كما يذكر ليون البيزنطى (من القرن السادس عشر لمحة عن الخبز الذى يقدم باسم مريم[٢]).

هذه الشهادات الثلاث تؤكد أن عبادة مريم باعتبارها إلهة انتشرت فى الشرق المسيحى بداية من القرن الرابع وكان لها أتباع من مسيحيى الجزيرة العربية .

---

(١) يوحنا الدمشقى ، عن الهرطقة فى موسوعة الآباء اليونانيين مجـ ٩٤ رقم (٧٢٧) .

(٢) ليون البيزنطى ، ضد النساطرة ، ٣ ، ٤ ، فى موسوعة الآباء اليونانين مجـ ٨٦ رقم (١٣٦٤)

ومن هنا نستخلص :

١ - أن القرآن قد ذكر الحقيقه حين نعى على المسيحيين (أو على بعض الطوائف المسيحية) أن يعبدوا مريم أم عيسى على أنها إلهة .

٢ - أن القرآن لم يقل إن مريم أحد أقانيم التثليث الثلاثة والقول بأن القرآن قال ذلك هو أكذوبة كبرى اخترعها المبشرون [١] والمستشرقون [٢] الذين هم فى نفس الوقت مبشرون ومسيحيون شرقيون سيئو النية مثل « أناواتى » ، مقال عن عيسى فى موسوعة الإسلام « وميخائيل هايك » فى رسالته المسيح فى الإسلام ، باريس، (١٩٢٩) .

وإذا اعترض علّى معترض وقال ما هو إذن الأقنوم الثالث للتثليث حسب ما يذكره القرآن فأقول : إن القرآن يعلم تماماً أن الأقنوم الثالث عن المسيحيين هو الروح القدس ولكن لأن الروح القدس هذا له وظيفة أخرى غير كونه أقنوم من أقانيم الثالوت الذى لا يعترف به القرآن فإن القرآن لا يمكن أن يذكره على أنه أقنوم . فى الواقع إن القرآن ذكر الروح القدس ثلاث مرات (البقرة ٨٧ ، ٢٥٣، المائدة ١١٠) فى معرض حديثه عن عيسى ولكن بهذه الألفاظ ﴿ **وأيدناه بروح القدس** ﴾ (البقرة ٨٧) ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ (البقرة ٢٥٣) ، ﴿ **إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا** ﴾ ، المائدة ١١٠ وفى هذه المواضع الثلاثة فإن روح القدس يعنى ببساطة الوحى الإلهى ، أو دعم من الله لنبى من الأنبياء ، أو لرجل عبقرى وهذا يؤكده قول الرسول للشاعر حسان بن ثابت « قل وروح القدس معك » إذن فروح القدس فى القرآن ليست لها علاقة بروح القدس ثالث أقنانيم الألوهية ولا يمكن أن يقول القرآن غير ذلك لأن القرآن يدين مذهب التثليث مطلقاً عند المسيحيين ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ولئن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ (المائدة ٧٣) .

ومن ناحية أخرى فإننا يمكن أن نعتبر أن تأليه مريم هو نتيجة حتمية لعبادة مريم

---

(١) مثل س . م زويمر ، المسيح المسلم ، ايدنبرج ، لندن (١٩١٢) . أ ج ريبسون المسيح فى الإسلام (١٩٢٩) .

(٢) مثل مرجليوث ، وديمتيو بارند .

التى بدأت منذ القرن الثانى وقد اعتبرها « جيستان وإيرنيه » حواء الجديدة ومعها يسوع المسيح آدم الجديد كما أن أبيفان يسميها أم الأحياء ومنذ مجمع إيفسيا عام (٤١٩) الذى عرف مريم على أنها أم الآلهة أخذت عبادتها تتأكد وتزدهر ويؤكد «سيفرين ديجابلا » (توفى ٤٣٠م) أن تمجيد مريم يجب أن يكون شعيرة يومية كما أن هناك بعض العملات من الرصاص من القرن الخامس والسادس الميلادى وما زالت موجودة حتى اليوم تحمل كتابه تقول : عبد مريم .

وقد اعتبرت مريم منذ ذلك الوقت مشاركة فى الخلاص أى أنها تشارك مع ابنها فى خلاص العالم ويعتقد أغلب علماء اللاهوت الكاثوليك أنها تتعاون مع ابنها يسوع مباشرة وبشكل دائم فى عملية خلاص البشرية « إن المسيح ومريم يشكلان كلاهما معا المبدأ الوحيد لخلاص الجنس البشرى عن طريق إعادة البشرية إلى المصالحة مع الله لأنها فنيت على الصليب وكان من نتيجة ذلك أن تقاسما مبدأ العلية المشتركة » [١] ومن هنا اعتبرت مثل ابنها أى كإله أو كأقنوم إلهى ولم يكن بين ما أعلنه عبادها وبين كثير من الطوائف المسيحية إلا خطوة واحدة وقد اعتبرت مريم «السبيل إلى كل النعم » وهذا اللقب شهد عليه القديس أندريه الكريتى (توفى سنة ٧٤٠) والقديس جير من القسطنطينى (توفى سنة ٧٣٣) والقديس تراسينس (توفى سنة ٨٠٧) ومن الشرق المسيحى انتقل هذا اللقب إلى الغرب فى حوالى القرن التاسع الميلادى من خلال ترجمة كتاب حياة تيوفيل الذى ألفه «بولس » الكاهن حيث يوجد فيه هذا العنوان أما المفهوم القرآنى عن الروح القدس باعتباره الوحى الإلهى فإننا نجده فيما يسمى « الوحى الكهنوتى » وكان أول من قال بهذا الرأى هم « بولس » من سامس (توفى بعد ٢٧٢) ، فوتينوس (توفى ٣٦٧) ، « ومارسيل ونسير » توفى حوالى ٣٧٤) وحسب هذا المذهب فإن يسوع المسيح يعتبر فقط رجلاً أوحى الله إليه أى أنه مبشر فقط وبشر خالص[٢] وقد هاجم أبوليونريوس [٣] هؤلاء المطارنة الثلاثة فى هذه النقطة من مذهبهم وهى أن عيسى أو يسوع المسيح لا يعدوا أن يكون مجرد بشر قد أوحى الله إليه[٤].

(١) ج . ب كارول مقال عن مريم فى الموسوعة الكاثوليكية الجزء التاسع (ص ٣٥٩) .

(٢) انظر و باردى بول الساموس ، ط ثانيه ، لوفان (١٩٢٩، ص ٣٣) .

(٣) انظر ديمونست . مقطوعة د

(٤) انظر أنقاض من هذا المذهب فى مقال جومشين ٣

وكان تيودونس البيزنطى الذى أقام فى روما يدرس فيها يقول أن « يسوع لم يكن إلا بشراً ولد من عذراء وقد عاش حياة دينية أكثر من قرنائه ومنذ تعميده فى الأردن دخل المسيح فى شكل يمامة ومنحه القوى التى كان يحتاجها لينجز مهمته » جـ بيتكرون « اللاهوت القديم » الطبعة التاسعة (ص ٣٥٠) [١] وهذا المفهوم قريب من المفهوم القرآنى لعيسى إن لم يكن مطابقاً له .

وهذا التيار فى المسيحية فى القرن الثانى والثالث والرابع الميلادى يسمى الملكانيين أو الوسيط وقد ظهر فى أسيا الوسطى فى العقد الأخير من القرن الثانى وكان أحد أشهر ممثليها هو « جيليوس » وكان من أصل ليبى وقد جاء إلى روما قبل سنة (٢١٧) بقليل حيث أصبح زعيماً لطائفة الملكانيين (براكسيس) «إيجنوس» تلميذ يفونس ، كليو ميوس ولم يترك هؤلاء كتباً ولم نعرف مذهبهم إلا من خلال الذين قاموا بالرد عليه وعلى رأسهم « إبيفان دوسلامس » و «هيبوليت أثينا سيوس » [٢] وقد أكدوا أن الأب والابن والروح القدس ليسوا إلا ظلالاً وطرقاً للتعبد عن الله .

وقد ألف مارسل مطران أنقرة وهى الآن عاصمة تركيا وقد توفى حوالى (٣٧٤) مذهبا مشابهاً وحسب قوله فإن الله واحد مطلق وهو وحدة مطلقة ولكن عند الخلق وعندما يصبح بشراً وعندما يرسل روحاً يتطور فى إطار وحدة واحدة وفى الأب تكمن الكلمة دون أن يكون لها جسم حقيقى وفى الاتحاد مع البشر تكون الكلمة يسمى يسوع ولأن الولد يسكن فى الأب وكذلك تسكن الروح القدس فى الكلمة عند إرسال الرسل تخرج الروح القدس من الله « المقطوعات ٦٧ ، ٧١ » [٣] ، وكان من بين هؤلاء الملكانيين الذين يقترب مفهومهم من القرآن نذكر « بولس الساموسى» وكان كاهناً لأنطاكية من سنة (٢٦٠ إلى ٢٦٨) وقد ولد

---

(١) هيبوليت الفلسفة (٧ ، ٣٥) طبعة فتدلاند (ص ٢٢٢) .

(٢) هيبوليت ، دحض (ص ١١) أثيناسيوس ، إيثان ، الهرطقات من (٦٢ ، ٦٩) انظرها نالت تاريخ العقائد ، (١ ص ٧٣٤ إلى ٧٩٦) برستيج ، الله فى الفكر الآياتى ، لندن ، (١٥٦) .

(٣) انظر عن مارسل جـ . م فوند فيلا الأفكار التثليثية فى المسيحية ر . مارسلو . مدريد (١٩٢٣) .

فى صميصات التى كانت عاصمة امبراطورية كوماچين وفى سنة (٧٢) أصبحت تحت الإدارة الرومانية ثم عادت بعد ذلك إلى سلطة الشام وكانت تتلقى أموال ملك يلميد أو دناتو الثانى ثم أموال أرملته زينوبيا التى خلفته على العرش عام (٢٦٧) .

ويلخص باردى مفهوم بول السموسى عن المسيح بقوله إن هذا البشر الذى يشبه الآخرين هذا الرجل الأرضى يشبهنا فى كل شىء إن فضله وعظمته قد آل إليه حسب الوعود والكتابات المقدسة وهذا الفضل هو فى شفائه للأمراض أو على الأقل فى أنه تنقى ما يستحقه من اسم المسيح ولكن فى أى وقت ظهر هذا النوع من البركة ؟ يمكن أن تكون هذه البركة معاصرة لمفهومه كمسيح ومن المؤكد أن التعميد لا يلعب أى دور فى كتابات الساموس وبفضيلة التعمد يعد يسوع أفضل من بقية البشر حتى من موسى ومن الأنبياء كلهم وقد تحلى كل الرسل بالحكمة الإلهية ولكن لم تكن هذه النعمة عند أحد منهم كما كانت عن ابن داود «عيسى» وحينما جاءه الوحى من أعلى كان فى أبهى صورة ومن ساعته توحد يسوع مع الحكمة أو مع الكلمة بما أن هذين التعبيرين لهما نفس المعنى والاتحاد بين الحكمة ويسوع هو اتحاد أخلاقى خالص وقد أقامت الحكمة مستقراً لها فى نفس يسوع وقد دخلت فى نفسه وأقامت لها محراباً وبفضل القوة التى كانت تفعل بها حكمه يسوع هذه الأفعال المعجزة علمنا أن موسى وبقية الأنبياء قاموا بمعجزات [1] .

أما عن مصير يسوع بعد الموت فإن الأقوال الأصلية التى بقيت لنا من بول الساموسى لا تقول شيئاً حتى عن مفهوم المسيح كمخلص ويقول باردى فى هذا الصدد « يمكن أن نعتقد أن بول الساموسى قد احتفظ باللفظ التقليدى للمخلص ولكنه قلص مفهوم الخلاص فى مثال عجيب من الكمال الذى قدمه هذا الرجل الكامل إلى البشر والذى لم يكن سوى يسوع المسيح وحين خضع للحكمة الإلهية التى ملأت قلبه استطاع يسوع أن يهزم الخطيئة ولا يمكن لأى إنسان فى نفس الموقف أن يزعم لنفسه أنه أحرز نفس النصر إذا خضع للنعمة واقتفى أثر مسيح الله» (المرجع السابق ص ٣٧٩) .

وهذا المفهوم مشابه تماماً لمفهوم القرآن فيما يتعلق بيسوع كما توضح الآيات

---

(١) جوستاف باروى بول الساموس ، (ص ٣٧٢ ، ٤ ، بروجس ١٩٢٣) .

القرآنية التالية : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ الزخرف آية رقم ٥٩ ، ﴿ إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصورا ونبيا من الصالحين ﴾ (سورة آل عمران آية ٣٩) ويجب أن نوضح أن القرآن لم يسند إلى عيسى دور المخلص لأن الخلاص لا يكون إلا من الله الواحد الأحد فهو وحده مخلص البشر .

باختصار فإن مذهب بولس الساموسى يتلخص فى تقرير أن هناك إلهاً واحداً من ضمن ما يتصف به الحكمة أو العقل ومسيح هو يسوع رجل بشر مثل كل البشر تلقى الحكمة الإلهية . وهذه هى العقلانية البحتة كما أن بولس يدعم تعاليمه بسلسلة من البراهين من الكتاب المقدس وكان يزعم أنه يهزم أعداءه بالكتاب المقدس ويكفى على الأقل ما قاله « فانسان دوليدنس » « اقرءوا كتيبات بولس الساموسى وسوف ترون جانباً عظيماً من الأمثلة ولا يمكن أن تفتحوا صفحة إلا وتجدوها مزركشة وملونة باستشهادات العهد القديم والجديد » [١] «چان باردي السابق ص ٣٨٠ » ومن بين البراهين التوراتية التى يستند عليها بولس الساموسى نذكر الأمثلة التالية [٢] .

(أ) فيما يخص وحدة الله نقرأ فى العهد القديم « الرب إلهك إله واحد » .

(دوتيرونوم ٤٢٦) وكذلك نقرأ فى رسالة بولس إلى الرومانيين « حتى لا يكون سوى إله واحد فوق الجميع » ولكن الأب عند بولس ليس له ولد .

(ب) وفيما يخص بشرية عيسى فهذه آية من إنجيل القديس لوقا (إصحاح ٣ آية ٢٣) (وبدأ عيسى يبلغ حوالى الثلاثين من عمره) إن كلمة بدأ تعنى بالضرورة أنه بشر وليس إله وهذه آية أخرى من إنجيل يوحنا (وقد منحه القدرة على الحكم لأنه ابن البشر) (إنجيل يوحنا إصحاح ٥ آية ٢٧) .

ولكن هذه الاستشهادات لا تعنى عند بولس أكثر من كونها زركشة . ولكن المهم عنده هو الحجج القائمة على العقل فمنذ عرفنا أن الله واحد وأن كل المسيحيين يجب أن يعترفوا بذلك لم يعد من الممكن أن يكون عيسى إلهاً بأى حال من الأحوال لأن مبدأ التناقض يعارض هذا القول لأنه لا يمكن للطبيعة البشرية أن

---

(١) فانسان دوليدنس (ص ٢٥) .

(٢) لأن بولس يؤكد أن الأب هو الإله الواحد انظر إلينا الهرطقة (٦٥ ، ٣) .

تقسم أو توزع على أصحاب نوازع متعددة لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتحد مع الطبيعة الإلهية بشكل وثيق حتى يسمح بأن نطلق اسم الإله على المسيح (باردى السابق ص ٣٩٣)

ولم ترد الكنيسة المسيحية الوصعية أن تستمع إلى هدا الصوت المتعقل ولم يعتمد مذهبه إلا من كنيسة أنطاكية حيث كان مطراناً لها ولكنه واجه أعداءاً شرسين وعلى رأسهم « داموس » الذى خلف « بولس » على عرش المطرانية بعد اعتزاله وما لشيون وهو عالم كان يدرس السفسطة كما كان قسيساً وقد لفتوا انتباه مطرانية الاسكندرية وروما حول الخطر الذى يشكله مذهب بولس على المسيحية .

وقد دعوا إلى مجمع عقد عام (٢٦٤) فى أنطاكية ولكنه اتفق بسرعة وظل بولس يمارس عمله كمطران ويدرس مذهبه كما كان يفعل قبل ذلك وحينئذ دعى إلى اجتماع آخر فى سنة (٢٦٨) اجتمع فيه عدد كبير من المطارنة لم يكن من بينهم أى ممن حضر الاجتماع الأول فى سنة (٢٦٤) وقد أعلنوا أن بولس الساموسى يدرس مذهباً مخالفاً لمذهب الكنيسة الكاثوليكية ويجب أن يجرد من منصبه وانتخبوا مكانه « دومينوس بن دميتريانوس » الذى سبق بولس فى كرسى المطرانية وبقية هذه القصةلا يفيد ولكنها توضح فقط ختاماً لذلك أن الكنيسة المسيحية حين أدانت مذهب بولس الساموسى ضيعت على نفسها فرصة جيدة لتصحيح مذهبها عن طبيعة المسيح ذلك المذهب الذى يضاد العقل والمنطق وحتى تحافظ على وحدة الإله فإن الكنيسة كان يجب عليها أن تعتمد مذهب بولس الساموسى

كذلك فإن مفهوم القرآن عن عيسى هو المفهوم الوحيد الذى يتطابق مع مذهب وحدة الإله

* * *

ج - سياسة محمد تجاه العرب

كان محمد يعرف تماماً العقليه اليهودية ولم يتعشم يوماً أن يدخل اليهود فى الإسلام وخلافاً لرأى بعض المستشرقين الذين يقولون : إن محمداً فى بداية إقامته بالمدينة أراد أن يدخل اليهود فى الإسلام فإننا نؤكد أن محمداً لم يكن يأمل فى ذلك لسبب بسيط لأنه كان يعرف تماماً أنه من غير المفيد إضاعة الوقت والجهد مع اليهود .

من المؤكد أن محمداً « قد دعا اليهود أهل الكتاب إلى الإسلام وبين لهم محاسن هذا الدين وحذرهم من انتقام الله وعقابه (١) » ، ولكن ذلك كان مجرد دعوة خالصة لأنه كان مقتنعاً أنهم لن يجيبوه إلى طلبه .

وروى (٢) أيضاً أن محمداً قد دخل أحياناً إلى بيت المدراسى أى المدرسة التلمودية ليهود المدينة وتناقش مع الأحبار الذين يدرسون فيها ولكننا نعتقد أن هذا كان من أجل الرد على الهجمات التى مافتىء اليهود يشنونها على الإسلام وليس من أجل أن يتحولوا إلى الإسلام ، ومن بين الموضوعات التى تناولها النقاش بين محمد والأحبار ما يلى .

(أ) على أى دين كان إبراهيم ؟

(ب) رجم الزانية .

(جـ) اليهود وإنكارهم نبوة عيسى .

(د) متى تقوم الساعة ؟ .

(هـ) الله الخالق فمن خلقه ؟

(و) الأطعمة المحرمة .

وفى جداله مع اليهود كان محمد متأكداً من أن هذا الجدل لا طائل تحته لأن اليهود لا يريدون أن يقتنعوا ولا يمكن أن يتركوا دينهم .

---

(١) ابن هشام (ص ٣٨٢) .

(٢) ابن هشام (ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٣) .

كما أن محمداً لم يول اهتمامًا لإسلام اليهود .

(أ) لأن عددهم كان قليلاً فقد كانوا عبارة عن ألفين فى المدينة وما حولها أى أنهم عدد لا يؤبه له كما أنهم من أخطر ما يمكن .

(ب) أنهم أصبحوا مصدر قلق من الناحية الدينية والعقائدية بسبب مجادلتهم ومشاغبتهم التى لا تنتهى

(جـ) أما من الناحية العسكرية فلم يكن لليهود أهمية ولذلك لم يكن من الممكن أن يدعموا الإسلام الناشىء

(د) لم يكن اليهود عرباً حقيقيين .

وكان الوضع مختلفاً بالنسبة للعرب الوثنيين لأنهم :

(أ) كانوا يشكلون أغلب سكان الجزيرة العربية ولذلك كانوا أول متلقى للدين الجديد .

(ب) كانوا أكثر استعداداً لاعتناق الدين الجديد لأن الوثنية لم تقدم لهم أى عقيدة ذات قيمة .

(جـ) بفضل عددهم وأهميتهم كمحاربين مستعدين للدفاع عن الدين الجديد ضد أى هجوم وكذلك لتأمين انتشاره وانتصاره .

(د) لأنهم وبعد كل هذا هم قوم محمد الحقيقيين وإن شئت فقل هم عائلته . ولذلك فكان من المنطقى جداً أن يختلف سلوك محمد تجاه العرب الوثنيين عنه تجاه اليهود ، ونذكر هنا شبهة لا تدل إلا على السذاجة الحمقاء حيث يقول م . و . وات « إنه لمن المفيد أن نخمن ما كان يمكن أن يحدث إذا كان اليهود قد تحالفوا مع محمد بدلاً من أن يصبحوا أعداءاً وفى فترات معينة كان يمكنهم أن يحصلوا منه على شروط ممتازة بما فيها أن يترك لهم دينهم وعلى هذا الأساس كان يمكن أن تكون إمبراطورية عربية يكون اليهود جزءاً منها ويكون الإسلام طائفة من الطوائف اليهودية ، ولكم كان وجه العالم يمكن أن يتغير الآن وخلال الأشهر الأولى التى قضاها محمد فى المدينة بذرت بذور مأساة مروعة اختفت معها هذه الفرصة الذهبية » (١) يا لها من قضية مضحكة ومثيرة للسخرية

---

(١) م و وات « محمد فى المدينة »

١ - ماذا يمكن أن تكون هذه الشروط الممتازة التى يمكن أن يحصل عليها اليهود من محمد ، لا يمكن أن تكون سوى أن يتركهم فى سلام وأن يترك لهم أموالهم ولكن على شرط أن يدفعوا الجزية ، وهو نفس ما حدث بعد فتح المسلمين لبعض البلاد التى توجد فيها أقليات يهودية ، ومن هنا فإن اليهود لم يتغير وضعهم مطلقا خلال تاريخ العالم الإسلامى كما لم يتغير وجه العالم .

٢ - ومن العبث أيضاً قوله بأن الإسلام كان يمكن أن يصبح طائفة من طوائف اليهود ، إننى أتساءل حقاً فى أى حالة كان م . و . وات حينما كتب هذه الجملة الأخيرة أنه حتى لو احتسى عشر زجاجات من الويسكى دفعة واحدة لما كان من الممكن أن يقول هذا الكلام

يا سيد وات إن الإسلام لا يمكن أن يصبح نحلة يهودية إلا إذا حدث المستحيل وتحول محمد إلى اليهودية وأى إنسان عنده ذرة من العقل لا يمكن أن يفترض هذا الافتراض ، ثم لماذا يفعل محمد دلك ؟ أمن أجل عدد محدود من اليهود لا يؤبه له وليس له أى تأثير ؟ ، ما هذا التخريف من الأفضل له ألف مرة أن يتبع دين آبائه وقومه ، دين أغلب سكان الجزيرة العربية .

ولو كان م . وات لم يكن حيا بعد ظهور كتابه وهو ما يزال يعيش إلى اليوم (١٩٨٩م) أى بعد ظهور كتابه (محمد فى المدينة) أكسفورد مطابع كلاريندون (١٥٦) لكان من الممكن أن يعتقد أى شخص ما سيء النية أراده أن يلعب معه لعبة قذرة حين أورد فى كتابه هذا السخف الذى لا يمكن تصديقه

٣ - لو كان هناك فرصة جيدة قد فقدت فهى فرصة يهود المدينة ويهود خيبر فقط فى أن يظلوا على الحياد أو يعتنقوا الإسلام

* * *

الفصل الرابع

وفاء محمد بالعهود المعقودة

في معرض حديثه عن الصلح الذى أبرمه محمد مع القرشيين بالحديبية فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة والذى زالت بمقتضاه العداوة بين الفريقين لمدة عشر سنوات يقول فرانتس بول : « أن الذى يعرف موقف محمد من عهوده واتفاقياته لا يشك أن نيته منذ البداية سوف تكون التحلل من هذا الالتزام حالما تسنح الفرصة » (١) .

هذا الزعم وهو أن محمداً لم يكن وفياً بالعهود والمواثيق التى يبرمها كاذب تماماً لأن محمداً لم يبرم أى اتفاق أو عهد أو ميثاق دون أن يحترمه حرفيا وكل خرق للاتفاق إنما جاء بداية من خصمه .

وأهم اتفاقية فى هذا الصدد هى الاتفاقية المعروفة بمعاهدة صلح الحديبية « من ١١ إلى ٢٠ ذى القعدة سنة ٦ هجرية ١٣ مارس إلى إبريل سنة ٦٢٨ » وحسب نص هذه المعاهدة « هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلح على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، ويسود بينهم الأمان على أنه من آتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، ويلتزم محمد بألا يدخل مكة هذا العام وإذا كان العام القادم خرجت قريش عن مكة فيدخلها محمد بأصحابه فيقيم بها ثلاث لا يحمل إلا سلاح الراكب السيوف فى الكرب ويدخلها بغيرها (٢) .

وعلى أثر ذلك دخلت خزاعة فى عقد محمد بينما دخل بنو بكر فى عقد قريش ولكن السلام لم يدم إلا عشرين شهراً ، فقد نقضت قريش المعاهدة بالشكل التالى :

---

(١) فرانتس بول ، حياة محمد (ص ٣٠٤) .

(٢) انظر ابن هشام (ص ٧٤٧) إلى (٧٤٨) ، الواقدى ، فلهوزن (ص ٢٥٥ إلى ٢٥٧)، الطبرى جـ١ (ص ١٥٤٥ إلى ١٥٤٧) .

(أ) بعد صلح الحديبية أرسل النبى كتاباً إلى بنى خزاعة إلى بديل بن ورقاء وبقية زعماء خزاعة ليعلن لهم تعهده بأمانهم وتصرفهم وأن لهم نفس حقوق المهاجرين (١) .

(ب) وعلى الجانب الآخر دخلت قبيلة بكر بن عبد مناة من قبيلة كنانة وكانت فى عداء دائم مع بنى خزاعة فى عقد قريش حتى تعينهم فى صراعهم مع خزاعة.

(جـ) ويقول ابن إسحاق (٢) « وعندما أبرم صلح الحديبية أراد أناس من قبيلة بنى بكر أن يستغلوا هذه الفرصة ليثأروا من بنى خزاعة الذين قتلوا بعضاً من رجالهم فسار نوفل بن أبى معاوية الديلى مع بعض أناس من بنى ديل وكان يتزعمهم ولم يكن يومئذ كبير بنى بكر ولكنه صنع كمينا لبنى خزاعة ، وكانوا حينئذ قريبين من الوتير وهى عين ماء تسمى بهذا الاسم فقتل أحدهم ثم قتل آخرون ثم صارت معركة وساعد القرشيون بنى بكر بإرسال السلاح إليهم والمحاربين الذين كانوا يحاربون فى صفوفهم بالليل حتى لا ينكشف أمرهم وقد ألجأوا بنى خزاعة إلى البيت الحرام .

ويقول ابن إسحاق : عندما تحالف بنو بكر وقريش ضد خزاعة قتلوا منهم ما استطاعوا أن يقتلوه ، وخرقوا ما كانوا أبرموه من عهود ومواثيق مع رسول الله حين هاجموا بنى خزاعة حلفاءه وحينئذ ذهب عمرو بن سالم الخزاعى وأحد بنى كعب إلى المدينة لمقابلة رسول الله ووجد النبى فى المسجد وحوله ناس من أصحابه فأنشد قصيدة يرجو فيها النبى أن يسرع إلى نجدة بنى خزاعه حلفاءه قائلاً :

إن قريشاً أخلفوك الموعد ونقضوا ميثاقك المؤكد

(المرجع السابق ص ٨٠٦)

كما خرج بديل بن ورقاء فى جماعة من خزاعة ليلقى الرسول بالمدينة فقصوا

---

(١) انظر الواقدى (٦٠٣) وابن سعد (٢ إلى ٢٥)

(٢) ابن هشام

على النبى كيف أن قريشا تحالفت مع بنى بكر على بنى خزاعة وقتلوا رجالاً منهم « وكان هذا أحد أسباب فتح مكة كما يقول ابن إسحاق » [1] .

ومن الواضح مما تقدم أن القرشيين كانوا هم الذين نقضوا صلح الحديبية ، فبأى حق إذن يتهم فرانتسبول النبى بعدم الوفاء بتلك المعاهدة ؟ ولكن كراهيته الشديدة وحقده على محمد والإسلام قد أعمياه تماماً .

وعلى الجانب الآخر يعترف ليون كايتانى أن القرشيين هم الذين نقضوا صلح الحديبية حيث يقول : استمرت المعاهدة لمدة ٢٢ شهرا ولكن نقضها جاء من الجانب المكى [2] وبما أن القرشيين هم الذين نقضوا صلح الحديبية ، فإن النبى أصبح فى حل من إعلان الحرب على القرشيين وستكون هذه الحرب هى آخر الحروب بينهم وهى ستنتهى بأعظم فتوحاته مجدا ، وهو فتح مكة من السنة الثامنة للهجرة يناير ٦٣٠ ميلادية .

وعلى عكس خيانة قريش لعهودها فقد احترم محمد بنود صلح الحديبية بطريقة حرفية كاملة وأعظم دليل على تصرفه حادثة أبى بصير .

وأبو بصير هو عتبة بن أسيد بن جر ، وقد أعاده أسياده إلى مكة وهم :

أزهر بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى ، ولأنه مسلم فقد نجح فى الهروب من مواليه ، ولحق بالنبى فى المدينة فأرسل مواليه أزهر والأخنس أرسلا رجلا من بنى عمير بن لؤى ومعه مولى لهم فقدما على رسول الله بكتاب الأزهر والأخنس وهم يطلبون منه أن يعطيهم أبا بصير ، فقال النبى لأبى بصير : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك ، قال : يا رسول الله أتردوننى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ، فقال النبى يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ومن معك من المستضعفين مخرجاً فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحليفة وجلس معه صاحباه فقال أبو بصير أصارم سيفك هذا يا أخا بنى عامر ، فقال نعم قال أنظر إليه، فقال: انظر إن شئت قال فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله، وخرج

---

(١) ابن هشام (ص ٨٠٥) السطر الأخير .

(٢) ل . كايتانى ، حوليات الإسلام (ص ٧٢٢) .

المولى سريعاً حتى آتى رسول الله وهو جالس فى المسجد فلما رآه الرسول طالعاً، قال إن هذا الرجل قد رأى فزعاً فلما انتهى إلى رسول الله قال : ويحك (مالك) قال : قتل صاحبكم صاحبى فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله فقال يا رسول الله وفت زمتك وأدى الله عنك أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى ، فقال رسول الله : « ويل أمه محسن حرب لو كان معه رجال ! » .

وبما أن النبى قد سلم أبا بصير إلى مولى سيديه اللذين جاءا يطلبانه فإنه قد أدى واجبه ولا يمكن أن يطلب من النبى أن يضمن تسليم أبى بصير إلى أيدى سيديه فى مكة فهذا واجب الذين يحرسونه حتى مكة .

ومع ذلك فإن النبى أراد أن يتحاشى أى صراع مع القرشيين فأمر أبا بصير أن يغادر المدينة فنزل أبو بصير على أمر النبى ، ورحل عن المدينة وأقام بالعيص القريبة من ذى المروة على ساحل البحر الأحمر على الطريق التى يسلكها القرشيون فى طريقهم إلى الشام ، وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكه قول رسول الله لأبى بصير : « ويل لأمه محسن حرب لو كان معه رجال » فخرجوا إلى أبى بصير بالعيص فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً وكانوا قد ضيقوا على قريش لا يعثرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها حتى أتت قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلا أواهم فلا حاجة لهم بهم فآواهم رسول الله فقدموا عليه المدينة .

وقصة أبى بصير (١) تثبت أن النبى التزم التزاماً دقيقاً ببنود صلح الحديبية برغم أن البند محل الكلام هنا غير عادل ومهين للمسلمين مما جعل عمر وآخرين من كبار الصحابه يعترضون بخصوص هذا البند .

مرة أخرى بأى حق إذاً يتحدث فرانتس بول ومن على شاكلته عما يزعمونه من نقض للميثاق أو العهد من جانب النبى ؟ بالتأكيد إن التعصب أعماه وأصمه . والأغرب من ذلك أنهم لم يوردوا أى حالة حدث فيها هذا الخرق المزعوم من جانب النبى إن أقل قواعد النقد والتمحيص التاريخى تنقصهم

---

(١) انظر عن قصه أبى بصير ابن هشام (ص ٧٥١ ، ٧٥٣)

ونذهب أبعد من ذلك .

فقد أبدى النبى مثالاً نادراً فى الرحمة ونبل النفس فى أبهى صورة حينما قهر أعداءه الذين طالما أزعجوه وآذوه وتآمروا عليه .

وأوضح الأمثلة على ذلك هو موقف النبى بعد فتح مكة فى عشرين رمضان من السنة الثامنة للهجرة ١١ يناير سنة ٦٣٠ ميلادية حيث أمر حملة الألوية من المسلمين عندما يدخلون مكة ألا يحاربوا إلا من حاربهم (١) ولكنه أمر فى نفس الوقت أن يقتل بعض الناس الذين حددهم بالاسم جزاء جرائمهم ضد الإسلام وهم :

١ - عبد الله بن سعد أخو بنى عامر بن لؤى وإنما آمر النبى بقتله لأنه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله الوحى فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش ففر إلى عثمان بن عفان وكان آخاه للرضاعة فغيبه حتى آتى به رسول الله بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة فاستأمن له ثم عاد إلى الإسلام ، وحينما أصبح عمر خليفة عينه والياً على بعض الأقاليم ثم عينه عثمان والياً على مصر .

٢ - عبد الله بن خطل وهو رجل من بنى تيم بن غالب وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله مصدقاً وبعث معه رجل من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاما فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدى عليه فقتله ثم ارتد مشركاً ، وكان له قينتان فرتنى وصاحبتها وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله فأمر رسول الله بقتلهما معه فقتل عبد الله بن خطل وإحدى القينتين بينما نجحت الأخرى فى الهرب ثم أتى بها إلى النبى ليؤمنها وهو ما حدث بعد ذلك ، والذى قتل عبد الله بن خطل هو سعد ابن حريث المخزومى وأبو برزة الأسلمى .

٣ - الحويرث بن نقيدة الذى كان يؤذى النبى بمكة وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم ابنتى رسول الله على بعير من مكة يريد بهما المدينة فهاجه بها الحويرث بن نقيدة فرمى بها إلى الأرض وقد قتله على بن أبى طالب .

---

(١) ابن هشام (ص ٨١٨) .

٤ - مقيس بن ضبابة وإنما أمر رسول الله بقتله لقتل الأنصارى الذى كان قتل أخاه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركاً وقد قتله غيلة بن عبد الله وهو رجل من قبيلته .

٥ - سارة وهى مولاة لبعض بنى عبد المطلب وكانت ممن يؤذى النبى بمكة فأتى بها إلى النبى فأمنها وعاشت حتى زمن عمر بن الخطاب « من سنة ١٣ إلى ٢٣ هجرية » .

٦ - عكرمة بن أبى جهل وقد هرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له من رسول الله فأمنه فخرجت فى طلبه إلى اليمن حتى آتت به رسول الله فأسلم .

هؤلاء هم الأشخاص الستة الذين أمر النبى بقتلهم بعد دخوله المظفر مكة ولم يقتل من هؤلاء الستة سوى اثنين (ومغنية واحدة وهم عبد الله بن خطل ومقيس ابن ضبابة) .

ثم عفا النبى عن كل أعدائه القرشيين الذين شنوا عليه حرباً شعواء لمدة عشرين سنة ولما وصل إلى باب الكعبة وتوجه إلى أعدائه القرشيين قائلا : «يامعشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال النبى اذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) .

وطوال تاريخ البشرية لم يبد أى منتصر مثل سمو ونبل النفس هذا الذى أبداه النبى حتى مع ألد أعدائه الذين حاربوه عشرين عاماً وآذوه أشد الإيذاء واشتدوا فى ألوان الإيذاء والاضطهاد التى لا يمكن تخيلها ضده ، وضد أصحابه فما كان منه إلا أن عفا عنهم حتى أبو سفيان الذى قاد كثيراً من الغزوات ضد النبى وزوجته هند التى « عبرت عن فرحتها بوحشية حين أكلت كبد حمزة عم النبى وسيد الشهداء » (٢) . وعكرمة بن أبى جهل الذى كان أكثر القرشيين تطرفاً وكان يشبه أباه فى ذلك ، وكذلك سهيل بن عمرو الذى أبدى كثيراً من الغرور والصلف خلال محادثات صلح الحديبية ، كل هؤلاء أطلق النبى سراحهم

---

(١) انظر ابن هشام (ص ٨١٨ إلى ٨٢١)

(٢) مكسيم ردونسون ، محمد ، (ص ٢٩٨) ، انظر ابن هشام (ص ٥٨ ، ٥٨١) .

وعاملهم بأعظم ألوان الرحمة والعفو ومع ذلك فإن أغلب المستشرقين لم يقدر هذه الرحمة حق قدرها وماذا أقول ؟ إنهم يحاولون حتى أن يبخسوا قيمة هذا النبل حين يذكرون بعض الحسابات النفعية فيزعم « رودنسون » أن العفو عن أبى سفيان ، وعن زوجته هند كان الباعث عليه باعث مادى ، ويذهب بهم التعصب الماركسى إلى حد الزعم بأن محمداً استفاد من عفوه أنه اقترض من أغنياء قريش مبالغ كبيرة يا لها من سفالة مادية تاريخية !

إن و . م . وات [1] لم يذكر هذا الحدث الدال على كرم النفس ونبلها ولم ينطق بهذه الكلمة ولا بالمرادف لها فى هذه المناسبة ولكنه كعادته ينبه فى اعتبارات خارجة عن الموضوع مثل التكتيك والدبلوماسية والمهارة من جانب محمد .

ويشعر فرانتس بول [2] بالدوار أمام هذا الفعل الكريم من جانب محمد والذى لا يمكن أن يلام على أى شىء منه ويحاول أن يجد أى شىء من اللوم حيث يقول : « بالنسبة لقوة محمد فقد كانت قوة كبيرة ولكن بالنسبة لصحة دينه باعتبار أن كثيراً من الناس الذين كانوا دنيويين قد دخلوا فى جماعة المسلمين من آجل الدنيا » منطق غريب ! هل كان على محمد ألا يقبل الدخول فى الإسلام من أى شخص غير الذين كانوا مسلمين قبل فتح مكة كما لو أن الإسلام انتهى بفتح مكة. هل هو رجل عاقل الذى يقول مثل هذا الكلام وهو بول ؟ .

وهذا هو موقف محمد من أعدائه بعد انتصاره العظيم عليهم .

فليشر لنا المستشرقون الأوربيون إلى أية شهامة مماثلة فى كل تاريخ أوربا حتى وقتنا هذا وحتى لا نعود إلى ما قبل عصرنا فإنه يكفى أن نذكرهم بما فعله المنتصرون فى الحرب العالمية الثانية بزعماء ألمانيا المهزومين ففى محاكمة نورمبرج المخزية التى بدأت فى العشرين من نوفمبر ١٩٤٥ وانتهت فى سبتمبر ١٩٤٦ حكم بالموت بالإعدام شنقاً على أكبر عشر شخصيات فى ألمانيا وهم (١) جورينج (٢) ربيندروب والجنرالات كايتل ويودل ، سيسى ، انكارت ، اشتريخر ، فرانك

---

(١) و م وات محمد فى المدينة (ص ٩٠ ٩١)

(٢) حياة محمد (ص ٩ ٣)

سوكل وروزمبرج كما حكم بالسجن مدى الحياة على هس وفونك وريدر وحكم بالسجن عشرين عاماً على أشبير وشيراخ و ١٥ عاماً على نيورت وعشرة أعوام على دونتس وفى ليلة ١٥ إلى ١٦ أكتوبر نفذ الحكم على كل المحكوم عليهم بالإعدام فيما عدا جورنج الذى انتحر قبل التنفيذ بساعة ، وهى العدالة الغريبة من جانب روسيا التى اشتركت مع بولندا وألمانيا فى سبتمبر ١٩٣٩م فى المحور السرى لمعاهدة موسكو فى ٢٣ أغسطس ١٩٣٩م والموقعة بين روسيا وألمانيا وقد دخلت فى عداء مع اليابان سنة ١٩٤٥م بعد أن نقضت من جانب واحد معاهدة عدم الاعتداء التى وقعتها سنة ١٩٤١ بمساعدة بريطانيا العظمى وفرنسا اللتين كانتا أول من أعلن الحرب على ألمانيا فى ٢ ، ٣ سبتمبر ١٩٣٩م والولايات المتحدة التى لم تتعرض لها ألمانيا بأى سوء .

ولكن أى مفكر أوربى برغم كثرة حديثهم فى موضوع حقوق الإنسان والعدل والسلام العالمى الخ لم يجرؤ أن يرفع صوته ضد انتهاك العدل حتى أكثر المفكرين جرأة مثل برتراند راسل وچان بول سارتر وكثيرون غيرهم .

لو أن هؤلاء المستشرقين البؤساء كان عندهم أقل أنواع الحياء لكفوا على الأقل عن أن يعطوا دروساً فى الأخلاق لمحمد والإسلام والمسلمين ولكن كما يقول الحديث النبوى « إن لم تستح فافعل ما شئت » .

باختصار - بما أن أيا من المستشرقين الذين تحدثوا عن حياة النبى لم يوضح سمو أخلاق محمد بعد فتح مكة فإننا يمكن أن نؤكد باطمئنان أنه لم يكن عادلاً ولا محايداً ولا موضوعياً ولا نزيهاً .

* * *

الفصل الخامس

النظم الإسلامية والتأسيس النهائى لها من الرسول

(أ) الصلاة .

(ب) الصيام .

(جـ) الحج .

(د) الزكاة .

من بين القضايا التى ناقشها المستشرقون مرات عديدة تأتى قضية الشعائر الإسلامية فى المقام الأول ونريد هنا أن نتحدث عن الصلاة والصيام والحج إلى مكة والزكاة ونناقش كلاً من أركان الإسلام الأربعة على حده .

(أ) الصلاة :

يقول كايتانى فى معرض حديثه عن الصلاة : « فلنرجع قبل كل شىء إلى القرآن فإن أول تعبير يقدمه لنا النص المقدس أنه بين التنفير واللوم والإرشادات تتفرع الأوامر الصريحة بالصلاة فى عدد قليل من الآيات الشائعة التى إن قارناها ببقية القرآن فلن تشغل إلا حيزاً عديم القيمة ومن ضمن آيات القرآن الـ ٦٢١٧ تتعلق بذات الله ولكن من بين بعض الآيات يوجد حوالى ١٢ آية فقط تتعلق بالأمر بالصلاة ومن يريد أن يتعرف عليها سيجدها فى السور المكية فى المواضع الآتية «هود آية ١١٠ ، العنكبوت آية ٤٥ ، الإسراء آية ٧٨ ، طه آية ١٣٠ ، الروم آيتى ١٧ ، ١٨ » وفى السور المدنية فى ثمانية مواضع « البقرة ٤٣ ، ٤٥ ، ١١٠ ، النساء ٤٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، التوبة آية ٥ ، النور آية ٣٧ ، المزمل آية ٢٠ » وفى الآيات المكية نلاحظ أن هناك إشارات إلى الصلاة وهى إشارات عابرة ومبهمة ولا تعبر عن أمر حاسم ولكن تعبر عن دعوة جادة للصلاة فى أوقات مختلفة ليست محددة طوال اليوم ودون تحديد للعدد فبينما يتحدث فى موضع عن صلاتين يتحدث فى موضع آخر عن ثلاث صلوات وأكبر عدد أشار إليه هو أربع صلوات وليس هناك أى ذكر لخمس صلوات بينما وجد المفسرون المسلمون بقليل من التفسير البهلوانى السبيل إلى ازدواجية معنى هذا التلميح وبهذا الشكل المتعسف وصلوا إلى العدد المراد وهو خمس صلوات وفى الآيات المدنية نجد الأمر بالصلاة حاسماً وقاطعاً ولكن بلا أى تحديد فى العدد أو الكيفية وهناك مقطوعة طويلة من سورة النساء من آية ١٠٢ ، ١٠٣ وهى تتعلق فقط بالحالة الخاصة من الصلاة فى مواجهة العدو وتعلن أنه من الجائز شرعاً قصر الصلاة حينما يكون هناك خطر يمكن العدو من الهجوم على المؤمنين بينما هم راكعون يؤدون شعائرهم الإجبارية » (١) .

---

(١) كايتانى حوليات الإسلام جـ١ (ص ٤٠٥) .

ثم ينتقل « كايتانى » إلى الأحاديث ويؤكد هنا أيضاً « إننا نجد نفس التصور فى الحجج المؤكدة بالنسبة لصدق الادعاءات المتعلقة بالشعائر المفروضة » وقد وجد كما يقول فى أصح كتب الحديث وهو صحيح البخارى ١٥٠ حديثاً متعلقة بالصلاه ولكنه يقول : « إن القراءة المتأنية لـ ١٥٠ حديث بدلاً من أن تخلق فى داخلنا اقتناعا تزيد من شكنا لأننا نلاحظ الغياب المطلق لأى حديث صحيح يأمر صراحة بخمس صلوات فى اليوم وكذلك باجتماع الجمعة الأسبوعى وهناك عدد لا حصر له من المتناقضات ولا الشكوك حول تحديد أوقات الصلوات» (المرجع السابق ص ٤٥٨) .

ثم ينتقل إلى الوثائق المحفوظة عند ابن سعد ويزعم أنه لم يجد « حتى ذكر ولو من بعيد لعدد الصلوات اليومية ولا وجوب صلاة الجمعة ولا الساعة المحددة لكل صلاة » .

وعندما وجد فى خطاب التعاليم الذي أعطاه النبى لعمرو بن حزم حين أرسله إلى اليمن أشياء محددة وواضحة جداً عن عدد الصلوات والأوقات التى يجب أن تؤدى فيها لم يقبل كاتانى هذا الخطاب [1] وزعم أنه ملفق ومن وضع علماء أصول الدين والفقهاء فى القرن الأول والثانى الهجرى .

لنتعرف الآن على قيمة الحجج التى يسوقها كايتانى .

(أ) يعترف كايتانى نفسه (ص ٤٥٢ ملحوظة ٤) أن « فى بعض الأبواب الأخرى من صحيح البخارى نجد مذكوراً وجوب أداء خمس صلوات فى اليوم».

ويذكر كمثال على هذا الجزء الأول (ص ١٩) السطر الأخير و (ص ٢٦ ، ١، ٨) الخ ولكن أمام هذا الأمر يقول : « ولكن أغلب هذه الأحاديث يبدو أنها موضوعة ولذلك فإنها لا تستحق حتى مجرد النقد » ! .

وهذه طريقة جيدة فى الجدل فهو يبرر حكمه قائلاً : « إن أغلب هذه الأحاديث مروى عن أنس بن مالك وهو دليل دامغ على الشك فيها كما أنه

---

(١) انظر نص الخطاب عند ابن هشام من (٦٦١ ، ٦٦٢)

بالنسبة لأغلب الأوامر فإنها تأتى فى إطار توصيات شفوية يقولها النبى للمرسلين إلى القبائل ».

ولكن هذين السببين فاسدان أولاً لأن أنس بن مالك كان ثقة ومصدقاً ولا يمكن أن نرد أحاديثه نتيجة كلام نسب إلى أبى حنيفة [1] ومن ناحية أخرى فإن كون تحديد خمس صلوات موجوداً ضمن وصايا النبى لسفرائه إلى القبائل لا يمكن أن يكون دليل كذب لتلك الأحاديث وإلا للزم على الأقل ألا نقبل جميع الرسائل والتوصيات التي رواها ابن سعد وابن هشام والمصادر الأخرى الأولى لسيرة النبى وماكان لا كاتانى ولا المستشرقون الآخرون المتطرفون قد ذهب بعيداً هكذا وإلا لما كان من الممكن أن يكتبوا هذه السير الكبيرة عن حياة النبى ومن ناحية أخرى فإننا نجد ذكر الخمس صلوات فى قصة وفد بنى سعد بن بكر فقد قال زعيمهم ديمام بن ثعلبة للنبى « آالله آمرك بأن نصلى خمس صلوات » [2] .

(ب) بعد أن قال « كايتانى » أنه متفق مع ما قاله القرآن وقع فى تناقض مع القرآن حين زعم أن القرآن لم يحدد أى عدد للصلوات فالعدد ٣ صلوات ذكر صراحة فى الآيات الثلاث التالية .

١ - سورة هود الآية ١١٤ ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل** ﴾ .

٢ - سورة الإسراء الآية ٧٨ ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ .

٣ - البقرة ٢٣٨ ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى** ﴾ .

وقد حاول المفسرون المسلمون أن يستخرجوا الخمس صلوات من الآيتين التاليتين الروم ١٦ ، ١٧ ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون** ﴾ .

وذلك لأنهم قالوا إن الآية ١٦ تعود على صلاة الفجر وصلاة المغرب وصلاة العشاء بينما تأمر الآية ١٧ بأداء صلاة العصر باستخدام كلمة عشياً وصلاة

---

(١) وهذا ما رواه كمال الدين الدوميرى ، حياة الحيوان (ص ٣٥٠ - ١) .

(٢) ابن هشام (ص ٩٤٤) ، ١ ، من (٤ إلى ٥) .

الظهر(١) بينما يقول آخرون : إن المطلوب هنا أربع صلوات وليس خمسة فحين تمسون تتعلق بصلاة العصر وحين تصبحون تتعلق بصلاة الصبح وحين تظهرون تتعلق بصلاة الظهر وعشياً تتعلق بصلاة العشاء (٢) والفرق بين التفسيرين هو فى تحديد صلاة العصر .

ولكن المستشرقين لم يعتمدوا هذا التفسير فى أى من شكليه لأنهم يريدون أن يفرضوا رأيهم بأى ثمن وهو أن محمداً عندما كان فى المدينة إما أنه لم يأمر بأى عدد محدد من الصلوات وإما أنه أمر بصلاتين فقط وهو الصبح والليل بينما صلاة الليل تعد اقتباساً من المسيحية وفى المدينة كانت صلاة الليل مذكورة فى سورة الإسراء آية ٧٨ وسورة المزمل آية ٢٠ وبدلاً من ذلك هناك صلاة ثالثة ذات تراتيل أمر بها تسمى الوسطى ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ البقرة آية ٢٣٨ وهكذا يكون عندنا ثلاث صلوات يومية وهى الصبح والظهر والليل وهو ما يتطابق تماماً مع الأوقات الثلاثة لصلاة اليهود (٣) ، وهكذا الأمر فى أعين المستشرقين فكل قضية كما يزعم « بول » أيضاً بسخافة قائلاً بعد ذلك « وهكذا فى نقطة أخرى تحتم على محمد أن يأخذ فى اعتباره أن يحذو حذو اليهود فى ممارستهم الصلاة اليهودية ولكنه تنكر لذلك » !

إذاً فكل الجهود تدور حول هذه القضية وهى أن محمداً أخذ عن اليهود طريقة وعدد الصلوات اليومية وبما أن اليهود لا يؤدون إلا ثلاث صلوات فى اليوم فقد حاول المستشرقون بكل السبل أن ينكروا أن عدد الصلوات عند المسلمين خمس وحتى يؤكدوا أن عدد الصلوات الخمس لم يكن موجوداً فى حياة النبى ولكن اخترع بعد حياة النبى ، فقد قال جود فروا ديمومبين (٤) فقد قال بتأكيد وقح « إن الصلوات الخمس وممارستها التقليدية فى الإسلام قد شرعت بعد وفاة النبى » .

ولم يسألوا أنفسهم ماذا سوف يستفيد المسلمون من زيادة عدد الصلوات من ثلاثة إلى خمسة ؟ هل كانوا يخافون أن يتهموا بتقليد اليهود ؟ ولكن أى يهود ألم يطرد هؤلاء اليهود نهائياً من الجزيرة العربية بأمر الخليفة عمر حوالى سنة

---

(١) انظر بلاشير ، ترجمة القرآن ، (ص ٤٣٠) ملحوظة على الآية ١٦ من سورة الروم.
(٢) انظر رودى بارت ، تفسير القرآن ، (ص ٣٨٩) .
(٣) فرانتس بول (ص ٢١٥) .
(٤) محمد (ص ٤٦٤) .

عشرين هجرية ؟ وسيراً على منهجه فى الحلول الوسطى وحتى لا يكون له علاقة ببقية المستشرقين المنافقين فإن مونتجومرى وات أمام نصوص القرآن والأحاديث التى تشهد على أن النبى حدد الصلوات الخمس اليومية ومع اعترافه بأن هذه النصوص صحيحة يقول مع ذلك : « من المحتمل أنه منذ السنوات الأخيرة فى حياة النبى لم تكن الصلوات الخمس يلتزم بها التزاما دائماً » (١) إذن فهو يعترف أن عدد الصلوات التى فى حياة النبى كان خمساً ولكن من أى مصدر أو مرجع يزعم أن للالتزام بأداء هذه الصلوات إذاً لم يكن محترماً خلال السنوات الأخيرة من حياة النبى ؟ أنه لم يعطنا هنا أى مرجع نرجع إليه كما أننا لم نجد أى إشارة بهذا المعنى فى المصادر التى بين أيدينا فهذا محض افتراض لا أساس له من جانب وات .

ماهية صلاة المسلمين

بعد هذا العرض لآراء المستشرقين نرى الآن على أى شىء ترتكز ماهية صلاة المسلمين وفى أى شىء تختلف تماماً عن الصلاة اليهودية والصلاة المسيحية .

١ - نلاحظ أولاً أنه من الخطأ التأكيد على أن هناك فريضة عند اليهود تفرض عليهم أن يؤدوا ثلاث صلوات فى اليوم فالصلاة ثلاث مرات فى اليوم قد ذكرت عرضاً ودون أن تكون إلزاماً ويقيناً شعائرياً وقد ذكرت فى موضعين :

(أ) المذمور ٥٥ آية ١٨ « فى المساء وفى الصباح وفى الظهر أشتكى وأنوح ».

(ب) سفر دنيال إصحاح ٦ آية ١١ « ودنيال حينما علم أن الأمر كتب دخل فنزل وكانت نوافذه مفتوحة فى حجرته العليا فاتجه إلى أورشليم وكان يركع على ركبته ثلاث مرات فى اليوم يدعو ربه ويمجده » من الواضح أن هذين النصين لا يتحدثان على أى قاعدة دينية ولا أى شعيرة يهودية ولم نجد فى العهد القديم أى شعيرة تأمر بالصلاة ثلاث مرات فى اليوم عند اليهود

من المؤكد أنه حتى الأيام الأخيرة من المعبد الأول لم تكن أى صلاة قد فرضت ولا حتى أمر عام للصلاة عند اليهود وفى سفر التثنية إصحاح ٢٦ من ٥ إلى ١٤ ، ١٣ ، ١٥ نجد للمرة الأولى صيغ للصلاة تنطق بمناسبة تقديم

(١) مونتجومرى وات « محمد فى المدينة » (ص ٣٧١)

الفاكهة والأموال وبعد ذلك أقيمت طقوس الصلوات اليهودية فى المعبد وهو مكان تجمع فى أيام العطلة وأيام السوق (كل يوم اثنين وثلاثاء) إذا فليس هناك حديث عن ثلاث صلوات فى اليوم ولكن لخدمة المعبد وكانت محددة ومعرفة تعريفاً عاماً وتبدأ بصيغة (استمع يا شعب إسرائيل) يتبعها قراءة للتوراة وقراءة لأسفار الأنبياء ثم البركات يتبعها الترجوم (وهو شرح بالأرمينية لما قرئ) وتنتهى بخطبة يكون موضوعها محتوى ما كانوا بصدد قراءته .

وما عرضناه يثبت أن هؤلاء المستشرقين الذين ادعوا أن محمداً اقتبس من يهود المدينة عدد وشكل الصلاة الإسلامية لا يعرفون شيئاً عن الصلاة عند اليهود .

٢ - أصبح من العادة ترجمة كلمة صلاة بكلمة دعاء Prayer فى اللغات الأوروبية ولكن هذه الترجمة غير دقيقة لأن هذه الكلمة وما يشبهها فى اللغات الأروبية معناه بالعربية دعاء وهو تمجيد الله ودعاؤه وحمده على نعمه والاعتراف بضعفنا كمخلوقات ورضوخنا المطلق لإرادة الله مالك يوم الدين وهذا ما تؤكده تماماً الفاتحة وهى أول سور القرآن والتى يجب أن يقرأ بها فى كل صلاة .

وحتى نوضح الفرق الجوهرى بين هذه الفاتحة وما يسمى فى المسيحية القداس الأبوى Pater Noser نقول :

الفاتحة	القداس الأبوى
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .	آبانا الذى فى السماء عرشه ، تقدس اسمك ، وتعالى مجدك وتحققت إرادتك على الأرض والسماء ، امنحنا اليوم الخبز الذى نحتاجه كل يوم واعف عن خطايانا كما نعفو عن من آذونا ولا تسلمنا للغواية وقنا من الشرور : آمين .

وهذه هى الفروق بين الآيتين :

(أ) فى الفاتحة الله هو المتعالى مطلقاً أما فى القداس فإن الله متعالى عن الكون ومحددة إقامته فى السماء .

(ب) فى الفاتحه الله هو الرحمن الرحيم بينما لا يوجد شيء من ذلك فى القداس .

(جـ) فى الفاتحة الله هو مالك يوم الدين أما فى القداس فإنه يأمر بأن يتقلس مجده وليس هناك أى كلمة عن اليوم الآخر .

(د) فى الفاتحة يدعو المسلمون الله بكل خضوع وانكسار أن يساعدهم أما فى القداس فإنهم يأمرون الله أن يعطيهم خبزهم اليومى .

(هـ) فى الفاتحة ندعو الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم أما فى القداس فيطلبون من الله أن يحط عنهم خطاياهم وأن يفعل مثل ما يفعلون من حط الخطايا عن المخطئين كما يأمرون الله ألا يتركهم فى الغواية وأن يخلصهم من الشرور إذاً فأننا فى القداس نحن الذين نأمر الله وهو الذى يطيعنا .

ومن هذه المقارنات يتضح أن روح الفاتحة متناقضة تماماً مع روح القداس المسيحى وبرغم هذا الاختلاف التام بين الاثنين فإننا نجد أن من المستشرقين أغبياء أكدوا أن الفاتحة مقتبسة من القداس الأبوى [(١)] .

٣ - وتعتمد الصلاة الإسلامية على ثلاثة أفعال قيام وركوع وسجود مع تلاوة آيات قرآنية فى القيام وتسبيح لله فى الركوع والسجود .

وبرغم الجهود الحثيثة من جانب المستشرقين [(٢)] ليعثروا على واحد من هذه الأركان عند العرب فى الجاهلية أو فى القصص التوراتية أو فى النسك المسيحية فإنه لا أحد منهم استطاع أن يثبت أن أركان الصلاة الإسلامية الثلاثة توجد مجتمعة فى أى صلاة فى الأديان الأخرى وكانت محاولتهم عبثية ومثيرة للسخرية .

ب - الصيام

ونتنقل الآن إلى فريضة أخرى من فرائض الإسلام وهى الصوم :

ويروى أن النبى أمر المسلمين فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بصيام يوم عاشوراء وهو العاشر من المحرم .

---

(١) انظر لمزيد من التفاصيل كتابنا دفاع عن القرآن ضد منتقديه صفحات ١١٥ إلى ١١٨ باريس ١٩٨٩م .

(٢) انظر على سبيل المثال جودفروا ديومبين ، محمد ، (ص ٤٧٢ ، ٤٧٣) .

وقد زعم كاتانى [1] ومستشرقون آخرون « أن فى هذا تشبها بصيام اليهود » .

(أ) ولكن هذا يقتضى أن الصيام لم يمارسه المسلمون أبداً خلال إقامة النبى فى مكة ولكن هناك حديث مسند إلى عائشة يقول : إن محمدا أمر أتباعه خلال إقامته فى مكة بصوم العاشر من المحرم [2] وهناك عدد من الأحاديث غير هذا الحديث.

(ب) العاشر من تشرين السنة اليهودية والذى يقابل السنة الثانية للهجرة لا يتفق مع العاشر من المحرم من السنة الثانية للهجرة [3] إذا كيف أمكن لمحمد إن كان قد أراد أن يقلد اليهود أن يختار يوماً غير يوم اليهود ؟ ومن المعروف أن العاشر من تشرين (هو الشهر السابع من السنة اليهودية) هو يوم الغفران ويجب صيامه عند اليهود .

صيام رمضان :

فى الواقع إن صيام رمضان كان موجوداً عند العرب قبل الإسلام وأن محمداً خلال إقامته فى مكة كان يحافظ على هذه الشعيرة العربية قبل الإسلام .

ولكن بعد الهجرة إلى المدينة وفى شعبان من السنة الثانية للهجرة أمر بصيام شهر رمضان وهذه هى الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الأمر :

﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون * شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ (سورة البقرة الآيات من ١٨٣ إلى ١٨٥).

وبعد أن فرض صيام شهر رمضان كله تنحى صيام يوم عاشوراء ولم يعد إجبارياً [4] ويشرح كايتانى [5] هذا التغير فى الصيام من يوم واحد مثل صيام

---

(١) حوليات الإسلام جـ١ (ص ٤٣١) .
(٢) صحيح البخارى جـ١ (ص ٤٧٣) طبعة كربل ، ليدن (١٨٦٢م) .
(٣) والعاشر من المحرم يوافق الخامس عشر من يوليو سنة ٦٢٣م و ١٠ تشرين يقع بين يوم ٢٠ سبتمبر و١٠ أكتوبر سنة ٦٢٣ .
(٤) انظر الطبرى جـ١ (ص ١٢٨١) . (٥) حوليات الإسلام جـ١ (ص ٤٧١) .

اليهود إلى صيام شهر كامل هذا التغير يعود إلى سببين : الأول لأنه لو كان على العرب أن يصوموا مثل اليهود لكان عليهم أن يتبعوا التقويم اليهودى أو يسألوا اليهود كل سنة فى أى يوم يوافق يوم عاشوراء ولكن اعتماد التقويم اليهودى كان مستحيلاً ، لأنه كان للعرب شهورهم الخاصة والتى توافق أعيادهم السنوية وتوافق الأسواق فى مختلف أنحاء الجزيرة العربية الوثنية ، وإذا لم يحن التقويم اليهودى فإن المسلمين من ناحية أخرى سوف يكونون فى وضع متدنى أمام اليهود الذين كان يمكن أن يكونوا وحدهم فى وضع يسمح لهم أن يحددوا بدقة بداية السنة الوثنية ، « اليهود » (شبرنجر ، جـ٣ ص ٥٤ ملحوظه) ولم يكن محمد ليستطيع أن يصل بخضوعه لشعائر اليهود إلى هذا الحد ويشعر إلى أى مدى يمكن أن يقوم بإصلاحاته والسبب الثانى لصيام شهر كامل بالنسبة للمسلمين منفصلين عن المسيحيين واليهود كان هو نفس السبب الذى يعرفه محمد وحده والذى دفعه إلى تحويل القبلة وهذا دليل جديد على عملية تحرير الإسلام الناشىء من المفاهيم التقليدية للحضارة اليهودية والدين اليهودى والذى جعله الآن فى تماسك معين مع قوانين الماضى »

وهذه خرافات وكلام غير متماسك فالقول بأن محمداً غير الصيام من صيام يوم إلى صيام ثلاثين يوماً حتى لا يضطر لاعتماد التقويم اليهودى هل يمكن أن يكون منطق رجل سليم العقل ؟ هل هناك أى علاقة من أى نوع بين الأمرين ولكن كاتانى لأنه غارق فى البحث فى قضيته المتعلقة باقتباس محمد الصيام من اليهود فإنه ومن على شاكلته مثل شبرنجر لا يمكن إلا أن يخرفوا .

والحقيقة أنه ليس هناك أية علاقة بين الصيام اليهودى والصيام الإسلامى وهذه هى الفروق

(أ) الصيام اليهودى محدد بخمسة أيام بعيدة جداً عن بعضها البعض وهى يوم الغفران (يوم كيبور) ويوم العاشر من تشرين ويوم التاسع من آب واليوم الموافق بصيحة تدبير المعبد الأول والثانى ويوم السابع عشر من تموز إحياءً لذكرى سقوط جدران أورشليم فى زمن المعبد الأول وسقوط هذه الجدران على يد نبوس من سنة ٧ ميلادية ويوم العاشر من توت ذكرى جلوس فايوشود ونور ملك بابليون على عرش أورشليم (٢ سفر الملوك ٢٥ - ١ - ٢) (سفر النواح ٥٢ ، ٤٠) ،

(سفر حزقيال ٢٤ من ١ إلى ٢) والثالث عشر من آزار وهو اليوم السابق على يوم بوريم (سفر رستر ٤٠٠٦١) ويستمر الصيام أربعاً وعشرين ساعة وعلى العكس من ذلك يستمر صيام المسلمين شهراً كاملاً .

(ب) وفى يوم صومهم يمزق اليهود ملابسهم ويلبسون ملابس من الخيش (سفر الملوك ٢١ - ٢٧٠) جوء ابيل (٢٠٠٣)، المزامير (٣٥ : ١٣) ، چوريت (٤ : ١٠) ، (٨ : ٥) ويضعون الرماد أو الطين على رءوسهم (إسحاق ٥٨ : ٥، نحر مباح ٩ : ١) ويزورون المقابر كما أنه من المحرم عليهم أن ينتقلوا .

وليس فى الصيام الإسلامى أى من هذا .

(جـ) وفى أثناء صيام اليهود يمتنع القيام بأى عمل (تاآن ١ : ٦ ، ٦٤) .

وعلى العكس من ذلك فى أثناء الصيام الإسلامى لا يسمح فقط بالعمل بل يحث عليه بشدة أما الصوم عند المسيحية فليس له أى علاقه لا مع الصوم اليهودى ولا مع الصوم الإسلامى وليس من المفيد أن نتوسع فى ذلك الأمر هنا ويكفى أن نلاحظ أن الصوم المسيحى والمسمى الصوم الكبير :

١ - يتراوح بين ٣٦ يوماً وستة أسابيع .

٢ - يشتمل بشكل بدائى على وجبة واحدة فى اليوم يتنوع وقتها بين ١١ صباحاً و٣ ظهراً .

٣ - لا يحرم فى هذا الصوم إلا لحم الحيوانات وأغلب الناس يأكلون البيض ومنتجات الأليان (انظر سقراط ، التاريخ الكنسى ، ٥ ، ٢٢) ولم تعد الخمر التى حرمت فى القرنين الثالث والخامس محرمة « وبداية من القرن السابع والثامن أصبح البيض واللبن والجبن والسمك تشكل وجبات الصوم الكبير في أنحاء كثيرة دون أن نجد فيها أى شيء من التحريم » (قاكاندرد ، قاموس اللاهوت الكاثوليكى) جـ٢ رقم (١٧٣٦) وكل المشروبات مباحة أثناء الصوم .

٤ - بينما الوجبة الرئيسية وقانون الصوم المسيحى تسمح بتناول بعض الأطعمة وهذا ما يسمى الصوم الصغير ووجبة المساء الصغيرة (انظر القانون الكنسى فقرة ١٢٥ ، ١) وهكذا نرى بوضوح أن الصوم المسيحى لا يعد صوما بالمعنى الحقيقى (أى الامتناع عن كل طعام وشراب) وليس له من الصوم إلا الاسم إذاً فمن العبث أن نقول مع جريم وشبرنجر أن فكرةصوم رمضان جاءت إلى محمد من

الصوم الكبير عند المسيحيين والذى يوافق سنة ٦٢٤ ميلادية مع صوم رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

وقد اتبع نفس العبث مستشرقون آخرون حيث حاولوا أن يثبتوا زعمهم الاقتباس من المانويين أو من الحاريثيين . فيما يتعلق بالمانويين قيل أنهم يصومون ثلاثين يوماً حين يبدأ القمر هلاله وحين تكون الشمس فى برج الحمل . وبعد أن يمضى ثمانية أيام من الشهر ويقطعون صيامهم عند غروب الشمس (١) أما الحرانين فيقال أنهم يصومون ثلاثين يوماً بدءاً من آزار تمجيداً للقمر .

وقد لخص فرانتس بول هذه القضية حيث قال فى هذا الصدد « كم من المانويين كان يوجد فى الجزيرة العربية قبل زمن محمد ؟ هذا هو الأمر محل الشك ومحاولة يعقوب لإثبات أن رمضان فى السنة الأولى من الهجرة يتفق مع شهر آزار (مارس) وبالتالى يوضح تبعية الحرانين التى تضادها المصادر الإسلامية التى تؤكد أن الصيام فى شهر رمضان قد بدء فى السنة الثانية من الهجرة (٢)

ولكنه لم يدحض قضية شبرنجر وجريم إلا أن بقيت قضية أخرى أكثر عبثاً قال بها فنسنك وهى أن رمضان هو يوم السنة الجديدة . ولكن لما لاحظ أن هذا لا يشرح فرضية الصيام لمدة ثلاثين يوماً طوال النهار وقع فرانتس بول فى نفس القضية التى ما فتىء يدحضها حيث زعم أن « هذا السلوك ربما يعزو إلى تقليد عربى وحيد جاء من تأثير المانويين أو من أى ملة أخرى » (٣)

ج - الحج

وهنا أيضاً أطلق المستشرقون العنان لخيالهم السقيم ويمكن أن نقسمهم فى هذا الصدد إلى طائفتين (٤) أولئك الذين أرجعوا الحج إلى مصدر يهودى (٥) وأولئك الذين وجدوا فيه إحياءً لشعائر وثنية قبل الإسلام .

(أ) الطائفة الأولى :

ويأتى على رأس هذه الطائفة « راين هرديت دودى» فى كتابه « الإسرائيليون فى مكة»

---

(١) انظر ابن هشام والفهرست لابن النديم طبعة فلوچل (ص ٣٣٣) .
(٢) فرانتس بول حياة محمد (ص ٢٢٧) . (٣) فرانتس بول «حياة محمد» (ص٢٢١) .
(٤) أ ز - هوتسما الكلام الخفى والأفعال عند مينا السلسلة الرابعة ، ١٤٥ .
(٥) مقال بعنوان الحجيج موسوعة الإسلام جـ١ ٢ مج ٣ (ص ٣٣ ، ٣٤) .

(وقد ظهر هذا الكتاب بالهولندية والألمانية) وقد ذهب إلى أبعد حد حيث زعم أن الحج يعود إلى مصدر يهودى .!

وقد أتى هوتسما الذى قرن بين الحج الإسلامى والأفعال اليهودية وقارن بين الوقوف بعرفة ووقوف اليهود على طور سيناء ويجب أن يستعد اليهود لهذا الوقوف بالامتناع عن جميع العلاقات الجنسية (سفر الخروج ١٩ ، ١٥) وكذلك بغسل ثيابهم (الخروج ٩ ، ١٠ ، ١٤) وكذلك المسلمون يمتنعون عن العلاقات الجنسية ويلبسون ملابس مقدسة وهى ملابس الإحرام ويرمون إبليس بجمرات فى منى وحسب رأى هوتسماه فإنهم يقصدون أصلا شيطان الشمس .

وأراد فنسنك أن يجد فى هذا الرجم ما يشبه يوم التكفير كما أن الكبش «الذى رماه عذرائيل من أعلى صخرة يعود بسهولة فى شكل شيطان الشمس » كما أنه رأى فى التروية (فعلاً يعتمد على إسالة مياه النبع المقدس فى سيلو) ويصل فنسنك بمزاعمه الساخرة إلى قمتها حيث يقول أيضاً « ويجب أيضاً أن نلاحظ أنه فى يوم التكفير يضاء المعبد وأيضاً فى موسم الحج تضاء المساجد بعرفات والمزدلفة»!

ونرى الآن أهمية هذه الآراء :

أما عن قضية دودى فإن فنسنك نفسه يعترف « أنها يمكن أن تعتبر منهدمة من أساسها من قبل سنوك هرجروتج فى كتابه « الأعياد فى مكة » .

وما يقوله هو تسماه عن موضوع الوقوف بعرفة شيء عبثى أولاً لأن وقوف الإسرائيليين بجبل سيناء هدفه تذكر صعود موسى على جبل سيناء ولقاءه مع ياوا واستقباله لألواح الشريعة ولا ينطبق أى من هذا على الوقوف بجبل عرفة . ومن ناحيه أخرى فإن الامتناع عن العلاقات الجنسية فى كل الشعائر الدينية لكل الأديان ليس خاصاً باليهود ومن ناحية ثالثة فإن الإحرام المطلوب من الحاج المسلم هو ملابس مخصصة للحج وليست ملابس لكل الأيام تغسل فى مناسبة واحدة كما هو الحال عند اليهود خلال وقوفهم بجبل سيناء .

---

(١) أ . ز . هو تسما « الكلام الخفى والأفعال عن مينا » السلسلة الرابعة ، (١٤٥) .

(٢) مقال بعنوان الحجيج موسوعة الإسلام جـ١ ٢٠ مج ٣ (ص ٣٣ ، ٣٤) .

باختصار ليس هناك أى شبه بين الوقوف بعرفة وهو ركن أساسى فى الحج حيث يقول النبى « الحج عرفة » إذا فالحج يتوقف أساساً على الوقوف بعرفة بينما يقف الإسرائيليون بجبل سيناء

أما تفسيره رجم إبليس فى منى فهو تفسير من ضمن تفسيرات كثيرة وكلها عديمة القيمة وعلى سبيل المثال فإن فيلوتن الذى « وضع رجم الشيطان والتعبير القرآنى الصفا والمروة فى علاقة ثعبان كان يقيم ضريحاً فى الكعبة » .

وكذلك شوقان الذى يزعم أن الرجم هو مثال على وضع الأحجار على الطريق القدسى للحج ليمنع أهل مكة من أن يفكوا رموزه وهذان الرأيان قد صخرهما هو تسماه بما فيه الكفاية

ونناقش الآن هذيان فنسنك .

(أ) ليس هناك أى وجه شبه بين رجم إبليس فى الحج ورمى كبش الفداء .

(ب) عزازيل (انظر سفر اللاويين ١٦) هو كبش يرمز إلى خطاب الشعب اليهودى وفى يوم كيبور العاشر من تشرين يطلق فى الصحراء أو يرمى بهم من أعلى جبل (يوما ٦٧ ، سفرة ، آزار ، ٢ ترجوم ، اللاويين ، ١٥ ، ١٠) وفى كتاب التنوخ (١٣) يوصف عزازيل بأنه زعيم المتمردين الأقوياء فى المعبد الذى سبق عصر الفيضان . وفى التلمود عزازيل هو اسم جبل أو إنسان رمى به فى الصحراء حيث يرمى بكبش الفداء وهناك مفهوم ما تكون عن عزازيل عند اليهود ولم يكن قد اعتبر أبداً شيطان الشمس كما زعم فينسينك .

(جـ) القول بأن إضاءة المساجد فى عرفات والمزدلفة هو تشبه بإضاءة المعبد فى عيد التكفير هو السفاهة بعينها فمعنى هذا أن إضاءة كنيسة أو معبد أو مسجد هى تشبه بإضاءة معبد اليهود كما لو كان يجب أن تمنع أى إضاءة فى أى دار من دور العبادة خلال الليل حتى لا تفهم بالتشبه إلى اليهود وحينما يرى فينسنك يفكر هكذا نعتقد أنه يحلم !

(ب) الطائفة الثانية :

وأما قضية الذين وجدوا فى شعائر الحج الإسلامى إحياءً لتقاليد وثنية من قبل الإسلام فهى قضية مستساغة وكل المصادر الإسلامية تعترف بذلك (انظر بالأخص ابن هشام ص ٧٦ - ٧٧) ، ولكن الإسلام أدخل عليها تعديلات مهمة .

١ - قبل الإسلام كانت الإفاضة من عرفات عند غروب الشمس وفى الإسلام يجب أن يكون بعد غروب الشمس بوقت قصير كذلك فإن الإفاضة من المزدلفة كانت تبدأ قبل الإسلام من طلوع الشمس وفى الإسلام يجب أن تكون قبل طلوع الشمس وهو وقت الوقوف بعرفة ومن خلال هذا الفرق يتضح أن الإسلام حرص على أن يتحاشى لحظة غروب الشمس وشروقها بما يستبعد أى شك فى عبادة الشمس .

٢ - كان الغوث بن مر بن عاد بن طبقان بن إلياس بن معز هو الذى يسمح بالحج للناس ليحجوا من عرفات ثم كان خلفاؤه يسمحون للناس بذلك وتبعه خلفاؤه وكان هو ومن بعده يسمون الصوفة . والصوفة هم الذين يدفعون الناس من عرفات ويسمحون لها حين ينطلق من مناخ يوم النحر عندما يأتون لرمى الجمار كانوا لا يستطيعون أن يرجموا إلا بعد أن يرجم الصوفة وعندما كان يأتيهم الناس على عجل ويقولون لهم قوموا وارجموا حتى نرجم معكم يقولون لا والله انتظروا حتى تنحرف الشمس وعندما ينتهون من الرجم ويريدون العودة إلى منى كان الصوفة يمنعونهم من الإفاضة قبلهم (١) وعندما هلك الصوفة انتقلت القيادة إلى الصفوة بن الحارث من قبيلة بنى سعد زيد بن مناه بن تميم . وكانت الإفاضة بين يدى عدوان الذين ورثوها زعيم بعد زعيم حتى الإسلام . وبعد فتح مكة كان النبى هو الذى يأمر بالحج وفى العام التاسع للهجرة كان أبو بكر ثم كان النبى من جديد فى حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة مارس ٦٣٢ ميلادية ثم كان الخلفاء الأربعة هم الذين ينظمون الحج .

٣ - ومكة هى نقطة الوصول . ويلاحظ فلهاوزن أن هذا التصحيح كان هدفه توثيق صلة الحاج بمكة والكعبة (٢) وفى ملحوظة من ملحوظاته يقول : « إن مكة فى الحقيقة لا تفعل شيئاً بالحج لأنه يمكن أن نخلص إلى أن إجازة الحج كان قد عهد بها إلى تميم وليس إلى قريش » .

٤ - قبل فتح مكة على يد محمد فى السنة الثامنة للهجرة ٦٣٠ ميلادية كان هناك كثير من الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية وربما كان لكل منها عيدها

---

(١) ابن هشام (ص ٧٦ ، ٧٧) .
(٢) انظر فلهوزن (ص ٨٣) برلين (١٨٩٧م) .

السنوى الخاص بها مع حج كبير إليه وتهليل له وربما كانت المشاركة فى هذا العيد محدودة ولكنها كانت منتشرة على نطاق واسع وعلى سبيل المثال فى أماكن مثل جوراش وطابالة كانت هناك مظاهر السلام الإلهى فى الأشهر الحرم وكان الاحتفال أيضاً فى نفس الوقت ولم يكن الاحتفال فى مكان واحد فقط وربما كان من التسرع بمكان الاعتقاد بأن الحكايات . يركوب ونونموسوس وحتى ديودور والمتعلقة بأزمنة وأماكن الأعياد العربية ترتبط بشكل صارم بالحج إلى مكة وحتى اسم الشهور آجاسل بايسى عند إفيفانوس (وهو الاحتفال بالعيد حول البيت) لا تدل بالضرورة على الحج بمكة فمثل هذا العيد كان موجوداً عند عرب الجزيرة العربية وفى فلسطين كما كان موجوداً فى أماكن أخرى بعيدة ومن المؤكد أنه قد وجد في هذه المنطقه أكثر من بيت مقدس وبالنسبة للسكان القريبين من مكة كان هناك البيت الحرام (١)

وقد وضع محمد نهاية لكل هذه الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية فيما عدا البيت الحرام بمكة . وهنا فالكل يجب أن يتوجهوا إليه ومن هنا تتحقق وحدة العالم الإسلامى والأمة الإسلامية جمعاء بشكل رمزى .

٥ - ويمكن أن نتساءل : لماذا اختار محمد مكة دون سائر الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية ؟

وتأتى الإجابة من جانب « سنوك هورچنوخ » Snouck Hurgronje حيث يقول فى المدينة أصبح محمد أكثر اتصالاً بمكة التى عاش فيها سنواته الأخيرة قبل هجرته نتيجة الاضطهاد الذى تعرض له من كل لون مر قبل أهلها وكان حينئذ للأماكن التى ترعرع فيها بالإضافة إلى أسباب سياسية وأسباب أخرى كل ذلك جعله يبحث فى مكة عن وسيلة تعيد الحج إلى الإسلام بكل ما يتعلق بالحج. ومن اللحظة التى علم فيها أن إبراهيم قد اصطحب إسماعيل وأمه إلى الجزيرة العربية لم يكن هناك أى سبب يمنعهم من أن يأتوا إلى مكة ويبنوا فيها الكعبة بأمر الله لأن إبراهيم أصبح بالنسبة لمحمد مصدر إلهام والنموذج الذى يحتذى وقد علم محمد أن التوراة تجعل مر إبراهيم جداً للعرب (المرجع السابق)

---

(١) فلهوزن السابق (ص ٨٥)

٦ - قبل الإسلام لم يكن الحج إلى عرفة شعيرة محددة وإنما كان محمد هو الذى حدد الشعائر بعد فتح مكة فى رمضان سنة ٨ هجرية أما أثناء الحج فى هذا العام أو ربما فى حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة .

العناصر المشتركة بين الحج قبل الإسلام والحج الإسلامى

وبعد أن أوضحنا هذه الاختلافات يجب علينا أن نذكر العناصر المشتركة بين الحج قبل الإسلام والحج الإسلامى .

١ - الطواف :

والعنصر الأساسى فى الحج هو الطواف أى القيام بالدوران حول البيت الحرام ويكون الطواف بأقدام حافية حاملين النعال فى أيديهم (انظر ابن هشام ص ٨٨٤، ١ ، ٤) .

وكانوا يقومون بالطواف قبل الإسلام وهم عرايا تماماً وهذه العادة أكدها القرآن (سورة الأعراف من ٢٦ إلى ٣٩) ، ولم يكن الطواف مقتصراً على الكعبة (انظر ابن هشام ص ٩٢١) ولكن كان يشمل كل الأماكن المقدسة فى الجزيرة العربية عامة .

٢ - الرجم :

وهو قذف حجارة صغيرة وقد كان موجوداً فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ويشهد على ذلك بيت للأعشى . وفى الإسلام كان الرجم فى اليوم العاشر من ذى الحجة والأيام الثلاثة التالية .

٣ - تقبيل الحجر الأسود :

يمثل تقبيل الحجر الأسود شعيرة من شعائر الحج وتبدأ الدورات السبعة حول الكعبة بدءا من الحجر الأسود الذى يقبله الحاج ولكن النبى فى عمرة سنة سبعة هجرية (٦٢٩) وكان يركب ناقته اكتفى بأن يلمس الحجر الأسود بطرف عصاه وقد أصبحت هذه شعيرة وعندما يكون الحاج راكباً دابة ولا يمنعه ركوبها من الطواف يفعل ذلك والحجر الأسود هو صخرة من البازلت .

ويروى أن عمر بن الخطاب الخليفة الثانى قال أمام الحجر الأسود : « لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

وبخلاف الحجر الأسود فى الكعبة لم يرو أن العرب كانوا يقبلون الأصنام فقد جرت عادتهم فقط قبل الإسلام على مداعبة الصنم بالأيدى (١) .

ويقول فلهاوزن أن قدسية الكعبة لم تأت من أن فيها صنم فلقد كان الحجر الأسود مشعراً حراماً وظل كذلك حتى بعد أن رسمت صورة سطحية له ووضعت فى داخل الكعبة وقد كانت الكعبة فقط عبارة عن امتداد فسيح لهذا الحجر وشاركته الحرمة لأنه وضع فيها وأخذت نفس سمته المقدسة . إذا فالكعبة لم تكن فقط موقعاً لصنم ولكنها هى نفسها كانت صنماً من الأحجار العظيمة المقدسة ».

٤ - السعى بين الصفا والمروة :

الصفا والمروة هما جبلان يعد كل منهما مشعراً حراماً وكل من كلمة الصفا والمروة تعنى حجر ويسعى الحاج بينهما عدة مرات ويتوقف عن كل منهما ويسمى المشى بينهما المسعى وهذه الشعيرة تسمى السعى بين الصفا والمروة . وفى سنة ٧ هجرية ذبح الرسول أثناء عمرته الأضحية فى المروة .

٥ - الحرم المكى :

والمنطقة المحيطة بمكة تعتبر حرم أى مكان محرم ويمتنع فى نطاق هذا الحرم قطع أى شجرة أو شجيرة أو أن يسفك دم أو يصطاد حيوانات ولذلك فإن اليمام والغزلان يشعرون بأمان تام (٢) وتوضح حدود الحرم بأحجار موضوعة على آخر الحدود (٢) .

٦ - الأضحية :

وسنتكلم عنها فيما بعد بالتفصيل .

الإسلام يضفى على الحاج معنى روحياً خالصاً

ولكن مع اعتماد الإسلام معظم شعائر الوثنى قبله فإن الإسلام أضفى عليه روحاً مختلفه فقد غير تماماً مضمون الحج عما كان عليه قبل الإسلام .

(أ) حينما دخل محمد الكعبة عام فتح مكة فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة كسر وأمر بتكسير أوثان الكعبة وكان عددها حوالى ٣٦٠ صنم ومحى ما

---

(١) الواقدى (ص ٣٥٠) . (٢ انظر الأغانى جـ٦ (ص ٢ ، ١ ، ١٤) .

(٣) الواقدى (ص ٣٤١) ، البلاذرى ، (ص ٥٥) .

كان من صور تمثل معتقدات العهد القديم [1] وفى كل مرة كان يهزم قبيلة من القبائل كان يدمر صنمها وهكذا لم يبق أى صنم فى الجزيرة العربية .

ومن وقتها لم تعد هناك أى شعيرة من شعائر الحج مخصصة لأى صنم ولكن كل الشعائر كانت خالصة لله الإله الواحد الأحد وهذا ما توضحه الآيات القرآنية الآتية :

(سورة البقرة من ١٩٨ إلى ٢٠٠) ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا** ﴾ .

ويردد الحاج لبيك يا ربى منذ إحرامه وحتى وصوله إلى منى وهذه هى التلبية وكل شعائر الحاج تؤدى إلى إرضاء الله عز وجل .

(ب) ويُفسر ذلك على النحو التالى .

١ - الرجم يستهدف إبليس العدو اللدود للبشر .

٢ - السعى بين الصفا والمروة يهدف إلى تخليص هذين المشعرين من الوثنية التى كانت تعتبرهما مكانين للعبادة وإدخالهم ضمن الطواف حول الكعبة وهما شعيرة واحدة فى الإسلام .

٣ - ذبح الهدى فى السلام له معنى مختلف عما كان عند العرب قبل الإسلام.

فقبل الإسلام كان العرب يقدمون لآلهتهم دماء الحيوانات التى يذبحونها قرباناً للآلهة وكانوا يسفكون الدماء أمام الصنم ويلطخون الصنم بهذا الدم وكانوا يلطخون أيضاً الحجر الأسود بالدم وكذلك جدران الكعبة وصخرة المروة وكانت الأضحيات إما من الإبل إذا كان الشخص ثرياً وإما من الماشية إذا كان الشخص فقيراً وقد ذكرت أمثلة على الكرم المبالغ فيه فكان هناك ثلاثة أمراء من أبناء تبع

---

(١) انظر البخارى (٦٤ ، ٤٨) ابن هشام (ص ٨٢١ ، ٨٢٢) وفى يوم فتح مكة دخل رسول الله البيت الحرام فوجد صوراً للملائكة ووجد إبراهيم مصوراً يستقسم بالأزلام فأمر بطمس هذه الصور .

اليمانى ذبحوا مائة من الإبل فى الحج وتركوا هياكل الذبائح فى كل شعاب الجبال (١) .

ومن بين القرابين كان هناك إبل يخصون بها الآلهة ويتركونها ترعى بحرية دون أن يمسسها أحد بسوء وقد حدد القرآن منها أربعة أنواع هى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وقد أدان القرآن هذه العادة .

﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ (المائدة آية ١٠٣) ولم يتفق على تفسير هذه الأسماء اى من المفسرين (عن سعيد بن المسيب) أن البحيرة هى أنثى البعير حين يترك لبنها فى ضرعها ويمتنع حلبها والسائبة هى الناقة التى تركت للآلهة والتى لا يجوز أن تحمل الأثقال . والوصيلة هى الناقة التى لا تلد إلا إناثاً وكانوا يتركونها للآلهة . والحامى هو فحل الإبل الذى ينزو على البعير فى وقت معين ثم بعد ذلك لا يحمل الأثقال وإنما يترك للآلهة ولكن ابن إسحاق يقول إن: « البحيرة هى بنت السائبة . والسائبة هى الناقة التى ولدت عشر نوق ليس بينهن ذكر ولذلك يتركونها حرة أى : لا تركب ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ولا يشرب لبنها إلا إذا كان نصيف وإذا ولدت ناقة أنثى بعد ذلك قطعت أذنها وتركت مع أمها ولا يحمل على ظهرها ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها إلى نصيف مثلها مثل أمها كما أن الشاة التى تلد عشر شياة إناثاً متتابعات فى خمس بطون ليس بينهن كبش ذكر تسمى أيضاً سائبة والحامى هو الفحل الذى يستولد عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ولذلك لا يحمل عليه ولا يجز صوفه ويترك بين الإناث اللائى ينزو عليهن وليس له فائدة غير ذلك ويقول ابن هشام أنه كان عند العرب شيء مختلف عما قاله ابن إسحاق إلا ما يخص الحامل فهو عند العرب كما فسره ابن إسحاق لأن البحيرة عند العرب هى الناقة التى تقطع أذنها ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ولا يشرب لبنها إلا نصيف أو على وجه الصدقة وكانوا يتركونها لآلهتهم . والسائبة هى الشاة ينذر الرجل أن يتركها حرة إذا شفى من مرض أو نجح فى تجارة أو فى عمل كان يريده فإذا حدث ذلك يترك ناقة أو بعيراً بين بعيره لأحد آلهتهم وتكون حرة فى أن ترعى ولا يجوز لأحد أن

---

(١) الآزارقى ، أخبار مكة ، ٢١ (ص ٦٠) ط فوستن فيلد ، ليزج (١٣٥٨) .

يستعملها والوصيلة هى الناقة التى تلد أمها توءمين فى كل حمل ويترك صاحبها للآلهة الإناث ويحتفظ هو بالذكور وهى التى تكون أمها قد ولدتها مع ذكر فى حمل واحد وهذا ما أخبرنى به يونس وآخرون يختلف ما قاله أحدهما عن ما قاله الآخر [1] .

وقد أدان القرآن هذه العادات فى قوله تعالى :

١ - ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب** ﴾ (المائدة آية ١٠٣) .

٢ - ﴿ **وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم** ﴾ (الأنعام آية ١٣٩) .

٣ - ﴿ **قل أرءيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آالله أذن لكم أم على الله تفترون** ﴾ (سورة يونس آية ٥٩) .

وكان هناك أيضاً عادتان فى هذا الصدد وهما الإغلاق والتفقية فعندما يصل عدد الإبل إلى مائة يكون البعير المائة متروكاً لا يحمل عليه ويسمى الإغلاق أما حين يصل العدد آلفاً فإنه يفقئون عين فحل البعير ويسمى تفقيه أو تعمية [2] .

أنواع الأضحية

بخلاف الماشية والماعز والإبل والبقر كان العرب قبل الإسلام يقدمون أضحية من البشر إلى دوما فى زمن يورفيدوبوس وفى كل عام كانوا يذبحون رجلاً ويدفنونه تحت المذبح وكان الملك المنذر ملك الحيرة قد ذبح ابن الملك وأربعمائة من المتدينات اللائى أسرهن وقدمهم إلى العزى كما كان العربى ينذر أن يذبح ولده أن يحقق هذا أو ذاك مما يريد، وأوضح مثال على هذا النوع من النذر هو نذر عبد المطلب ابن هاشم جد النبى محمد حين نذر أن يذبح لهبل أحد أولاده إن بلغوا عشراً ولما بلغ أبناء عبد المطلب عشرة واستطاعوا أن يمنعوه . قرر أن يذبح أحد أولاده حسبما تخرج القرعة فخرجت القرعة على عبد الله الذى أصبح والد النبى ولكن أهل مكة رجوا عبد المطلب أن يستشير عرافة لعلها تجد له مخرجاً آخر وقد أشارت عليه هذه العرافة أن يذبح مائة من الإبل بدل عبد الله[3] .

---

(١) ابن هشام (ص ٥٧ ، ٥٨) .
(٢) انظر ابن الأثير جـ١ ، (٤٦٠) وانظر أيضاً لسان العرب لابن منظور
(٣) انظر القصة بالتفصيل عند ابن هشام من (ص ٩٧ إلى ١)

وبالطبع فإن الإسلام حرم كل تضحية بشرية وتنحصر الأضحية تحديداً فى الحيوانات الآتية الإبل والبقر والغنم والماعز والحد الأدنى هو أن تكون الشاة لها عشرة أشهر وأن يكون البعير أو البقر له سنة على الأقل وتكون الأضحية فى عيد الأضحى فى منى وفى الأماكن الأخرى فى مكة هذا فيما يتعلق بالحجيج أما بالنسبة للمسلمين فى بقية أنحاء العالم فإن الأضحية - وهى عادة من الغنم - تذبح فى اليوم العاشر من ذى الحجة أى أول أيام عيد الأضحى .

ويجب أن تكون الأضحية خالية من كل العيوب . فلا يجوز أن تكون هزيلة ولا عمياء ولا عوراء ولا جرباء ولا عرجاء (١) وهذه قاعدة عامة فى كل الأديان ولا تختلف الأديان فى هذه النقطة إلا فى بعض التفاصيل ، ففى اليهودية مثلاً يعد من عيوب الحيوان الذى يضحى به أن يكون أعمى أو كسيح أو مشوه أو مصاب بالتثآلل أو بالجرب أو بالرطوبة » أو عنده عضو طويل جداً أو قصير جداً أو عنده الخصيتان مقرونتين أو مسحوقتين أو مقطوعتين (٢) .

وكما قلنا منذ قليل فإنه يمكن أن يضحى بالجمل وهذا أفضل ما يضحى به الحاج وذلك على عكس الديانة اليهودية حيث لا يجوز أكل الجمل ولا التضحية به .

أما الغزلان فهى وإن كان اليهود يأكلونها إلا أنها لا يجوز التضحية بها (٣) .

وفى الإسلام يمكن أن يستفيد المضحى وأسرته من لحم الذبيحة ويعطى منها جزءاً للفقراء وتشهد بذلك الآيات التالية من سورة الحج

﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ (سورة الحج آيتى ٢٧ ، ٢٨) .

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها

---

(١) انظر ابن رشد . بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، جـ١ (ص ٢٥٥) ، القاهرة (١٣٣٥ هجرية)

(٢) انظر سفر اللاويين إصحاح ، من ٢٢ إلى ٢٤ .

(٣) سفر التثنية ١٢ : ١٥

صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ (سورة الحج آية ٣٦) .

وفى اليهودية يجب « أن تستهلك الذبيحة فى نفس اليوم الذى ذبحت فيه ولا يجوز أن يتركوا منها شيئاً لليوم التالى » [١] والحبر الأعظم هو الذى يستفيد منها.

الفرق بين الأضاحى فى الإسلام وفى اليهودية

وهذا يقودنا إلى الحديث عن الفرق بين الإسلام واليهودية فيما يخص الأضحية فى الحج الإسلامى وفى أعياد اليهود الكبيرة :

(أ) يمكن أن نلخص نظام الأضاحى كما هو مبين فى سفر اللاويين هكذا

يمكن أن تقسم الأضاحى إلى تضحية بأشياء لا دم لها وأشياء لها دم أما عن الباعث على الأضحية فيمكن تقسيم الأضاحى إلى أربعة طوائف .

١ - قرابين تحرق .

٢ - قرابين اعتراف وحمد .

٣ - قرابين مكفرة للذنوب .

٤ - قرابين مطهرة .

وفى الطائفة الثانية يدخل الحمل الفوصحى وقربان المولود الأول ويدخل فى الطائفة الثالثة قرابين الغيرة والقاعدة العامة هى أن القرابين فى الطوائف الثلاثة الأولى هى التضحية بحيوانات أما فى قرابين الاعتراف والحمد فإن الأضحية يمكن أن تكون من الحيوانات أو من الخضروات .

أما فى الإسلام فإن الأضاحى تعتمد فقط على الحيوانات وتكون أثناء الحج

١ - وتكون إحياءاً لذكرى فداء إسماعيل (حيث ذكر البعض ومنهم ابن إسحاق) أن الله افتداه بكبش عندما هم إبراهيم أن يذبحه تنفيذاً لأمر الله

٢ - أو للتكفير عن بعض الذنوب التى ارتكبها الحاج مثل قص شعره قبل التحلل .

---

(١) سفر اللاويين ٢٢ ٣

(ب) وأما القرابين الحيوانية عند اليهود [1] فإنها تحرق كلها أو يحرق جزء منها أما فى الإسلام فإنها تذبح فقط ويأكلها المضحى وعائلته والفقراء .

(جـ) يراق دم الضحية المذبوحة عند اليهود حول المذبح (اللاويين ١ : ٥ ، ١١ ، ٣ : ٢ ، ٨ ، ١٣) أما فى الإسلام فإن دم الأضاحى يزال تماماً .

(د) عند اليهود يجمع الكاهن الأعظم دم أضحيته أو أضحية الطائفة له ليوزع جزء منها على شراع المذبح والجزء الثانى على قرنيه (سفر اللاويين ٤ : ٥ - ٧ ، ١٦ - ١٨) وفى يوم كيبور يأخذ دم أضحيته ودماء أضاحى الشعب ليضعهم فى قدس الأقداس (سفر اللاويين ١٦ : ١٤ - ١٥) والأجزاء المختارة من الأحشاء والنسيج السميك حول الأحشاء والكليتين بشحمهما والمصران الأعور والكبد كل هذا يستهلك على المذبح (سفر اللاويين ٤ : ٨ - ١٠) والأجزاء التى يمكن أكلها يجب أن يأخذها الحبر الأعظم ويجب أن تؤكل داخل السور المقدس وحسب قواعد صارمة (سفر اللاويين ٦ : ٢٥ - ٣٠) أما فى الإسلام فليس هناك حبر أعظم ولا كاهن ولا قدس أقداس ولا مذبح مقدس ولا حتى مكان معين لذبح الأضحية .

(هـ) وعند بعض أبناء اليهود (عاموس ٥ : ٢٤ ،ميكاح ٦ : ٦ - ٨ إيذاك ١ : ١٦ - ١٧ ، جيرمى ٧ : ٢٣) نجد كلاماً قاسياً ضد الأضحية ولكن لا يجب أن نقره على أنه إدانة للأضحية كلها ولكنه فقط يدين الأضاحى التى لا تصحبها طهارة القلب والعدالة وسلامة السلوك الأخلاقى . ولكن فى القرآن يتضح التركيز على المعنى الروحانى للأضحية بشكل تام وهذه هى الآية القرآنية التى توضح هذا المعنى فى أبهى صورة ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم**﴾ (سورة الحج آية ٣٧) .

وهذه الآية القرآنية تلخص المعنى الروحى للأضاحى بأفضل مما تلخصه مقالة فيلون اليهودى عن الأضاحى وكلام أوزيه وعاموس وإياى وچيرمى (انظر سفر اللاوين) .

---

(١) انظر سفر التكوين (٩ : ٤) واللاويين (٣ : ١٧ ، ٧ : ٢٧ ، ١٧ : ١٠ - ١٤ التثنية ١٢ : ٣) .

(و) ويرى فلهاوزن أن النهى عن حلق الشعر أثناء الحج موجود أيضاً عند اليهود « وعندما يكون الإنسان فى أثناء تنفيذ نذره يجب أن يترك شعره ينمو وعندما ينتهى من نذره يحلق شعره » (١) .

والنذاريون فقط هم الذين يتبعون هذه القاعدة ويتبعونها فقط فى يوم نذارهم والنذارى هو الرجل الذى ينذر الزهد وهناك ثلاثة محرمات مفروضة على النذارى حسب سفر العدد فيجب ألا يشرب الخمر أو أى مشروبات من العنب ولا يحلق شعره ولا يمس ميتاً حتى ـو كان آباؤه أو أمه والعلامة المميزة للنذارى هى شعره الطويل المتدلى الذى لا يجوز له أن يقصه إلا بعد انتهاء نذره فيقصه ويقدمه قرباناً (سفر العدد ٦) والباعث على هذا النذر أشياء إما أن يكون محزوناً أصابته مصيبة أو يريد أن تتحقق له رغبة مثل ميلاد طفل مثلاً .

وهكذا نرى بوضوح أن النذر ليس له علاقة بالحج أو الأعياد الدينية ولذلك لم يكن لفلهاوزن أى حق أن يقارن بين شعيرة عدم قص الشعر فى الحج الإسلامى والإلزام بعدم قص الشعر عند النذاريين اليهود .

وعلاوة على ذلك فإن الشعر الذى يقصه الحاج المسلم لا يقدم قرباناً إلى أحد بينما فى الأديان الأخرى يقدمون شعورهم قرباناً للألهة لأنهم يعتقدون أن الشعر يحتل أهمية كبيرة فى حياة الرجل ولذلك فعندما يقدم الرجل شعره إلى إلهه يكون كمن قدم دمه (٢) .

فى الواقع إن شعيرة عدم قص الشعر أثناء الحج عند المسلمين هى علامة على الزهد كما هو الحال فى عدم مقاربة النساء أو لبس الملابس غير المخيطة فى أثناء الإحرام .

د – الزكاة

١ – هل كان محمد اشتراكياً ؟

اقتبس هذا العنوان من الدراسة النقدية التى قام بها ستوك هورج رونخ» على كتاب « هيربرت جريم » (محمد من حياته إلى موته)، فونستر ، آشيندورف ، ١٨٩٢

---

(١) انظر فلهوزن (ص ١٣٣)

(٢) انظر روبرت سون كميث ، دين الساميين (ص ٤٦٤)

وهذه الدراسة ظهرت أولا فى مجلة تاريخ الأديان السنة الخامسة عشر المجلد ٣٠ باريس ١٨٩٤ (ص ٣ إلى ٧٠ ، ١٤٩ - ١٧٨) وقد صدر فيما بعد فى المجلد الأول من كتاباته المتعددة وقد قسمت الدراسة إلى أربعة أقسام .

١ - السير القديمة (ص ٣٢١ إلى ٣٢٩) .

٢ - هل دعا محمد إلى دين جديد ؟ علاقاته مع اليهودية والمسيحية (ص ٣٢٩- ٣٣٨) .

٣ - المحرك الأساسى للرسالة النبوية لمحمد (ص ٣٣٩ - ٣٤٦) .

٤ - هل كان محمد شيوعياً ؟ (ص ٣٤٦ - ٣٦٢) .

وهذا القسم الأخير هو الذى يهمنا هنا .

وقد بدأ ستوك « هورجرونخ » هذا القسم بذكر بعض الجمل التى تحدد ملامح القضية الأساسية عند جرين وهذه هى الجمل .

« لم يكن الإسلام فى شكله الأول بحاجة إلى الرجوع إلى أى دين سابق ليستمد منه شرح مذاهبه لأننا إذا نظرنا إلى الإسلام من قريب فإننا لن نراه باعتباره نظاماً دينياً ناشئاً ولكن باعتباره محاولة إصلاح شيوعية تمنع بعض المساوىء من أن تنتشر فى المجتمع » ويواصل الكاتب حديثه قائلاً إن الظروف التى أدت إلى ظهور الحركات الشيوعية كانت موجودة فى مكة ومنها على وجه الخصوص الهوة السحيقة بين الأغنياء والبخلاء والربويين من جهة والفقراء المضطهدين من جهة أخرى .

« وحتى يضع نهاية لمثل هذا التناقض مستلهماً عدالة التوزيع فإن محمداً وهو الذى عرف فى شبابه مصير الفقير اليتيم ، وكان قريباً فيما بعد من الطبقة الكادحة أعلن بإصرار أن كل واحد لا بد أن يدفع ضريبة محددة لحماية الفقراء ولكن لأنه كان من الصعب أن يطبق مثل هذا المشروع فى مكة فإن محمداً تخيل عوضاً عن القلق الروحى أن يؤيده بمذهب الحكم العالمى » (ص ١٤ - ١٥ من كتاب جرين) .

وقد قام سنوك هورجورونخ ضد هذه الاستشهادات الغنية على حد قوله وحمل عليها ويضيف قائلاً (ماذا !؟ ألم يكن الإسلام الأول ديناً ولكنه كان

ببساطة شيوعية ناتجة عن ألوان البؤس فى ذلك العصر ؟ إن مذهب اليوم الآخر الذى نجد الإعلان عنه فى أقدم ما نزل من القرآن يخلق فى داخلنا انطباعاً قصيراً يجعل هذا المذهب الذى ينبع من دراسة الإسلام باعتباره محور دعوة محمد والذى لا يمكن أبداً أن نقارنه بنظام الضرائب الشيوعى » (سنوك ، ١ ، ص ٣٤٦).

ويسوق ستوك بدايةً اعتراضين على قضية جرين :

(أ) إذا كانت الزكاة هى الشىء الجوهرى فى الدين الإسلامى الذى أعلنه محمد فلماذا لم يكن اعتراض أهل مكة منصباً على الزكاة وإنما اعترضوا فى المقام الأول على مبدأ البعث واليوم الآخر ؟

وحتى يرد هذا الاعتراض فإن جرين يجيب قائلاً إن هذه حيلة محامى حيث يقول : « فى صراع الآراء المتعارضة يكون اعتراض الخصوم منصباً بداية على أوهن الحجج أى مبدأ اليوم الآخر فى الإسلام الأول حتى يهرب القرشيون من أن يعلنوا اعتراضهم على الزكاة فقد هاجموا مبدأ البعث » (جرين ص ٢٩) .

ويضحد ستوك هذه الإجابة قائلاً : إن أهل مكة اعترضوا على مبدأ اليوم الآخر ليس « من أجل أسباب فلسفية أو تعمقاً فى معرفة الطبيعة ولكن فقط بسبب أنه كان جديداً وغريباً عما يعتقدون » (ستوك ص ٣٤٧) .

(ب) واعتراض آخر « فى أقدم ما نزل من الوحى على النبى نجد أن فريضة الزكاة قد ذكرت مع الفرائض الأخرى ولكن دون أن يكون لها أفضلية على بقية الفروض وقد تحدث عنها القرآن على أنه يجب أداؤها مثل بقية الفرائض ودون أن يدخل القرآن فى تفصيلات دقيقه كما فى حديثه عن الصلاة مثلاً ولا يدل أى من ذلك على أن أهم شىء بالنسبة لمحمد هو التأكيد على تأثيث إصلاح شيوعى وكانت أعظم الأعمال التى أمر بها بسم الله كانت هى نفس الأشياء التى ذكرت فى الشرائع القديمة واستلهمت منها وهى أشياء مألوفة لدى مستمعيه حتى أولئك الذين ليس لهم إلا معرفة سطحية باليهودية والمسيحية ويكفى أن يذكروا بها ليفهموا ماذا يراد منهم » (ستوك ص ٣٤٩) .

وحتى يعضد جريم قضيته فإنه يفصل الزكاة عن الصدقات ويقول ستوك « إن جريم يرى (١) أن بعض فقرات من القرآن (البقرة ١٢٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥) تعلن بجانب الزكاة أن هناك ضريبة أخرى سيكون مصيرها النسخ بعد ذلك » (ستوك

ص ٣٥٠) وحسب رأيه فإن الزكاة تتلاقى فى الآيات القرآنية التى نزلت فى جميع فترات حياة النبى بينما الصدقات لا توجد إلا فى الآيات التى نزلت فى العهد المدنى وعلى هذا يجيب ستوك قائلاً : « هذا حق ولكن هذا الأمر يشرح بسهولة إذا افترضنا أن هذا المصطلح الأخير (صدقات) كان مألوفا فى اللغة الدينية عند اليهود الذين كانوا يسكنون فى المدينة » (ستوك ، ص ٣٥٢) .

إن ستوك يلفت نظرنا أن الزكاة التى فرضها محمد على أصحابه الأوائل كفريضة كانت ضريبة تطهير أو ضريبة للفقراء كما يوضح مصطلح زكاة والكلمات التى من نفس العائلة (الأفعال زكا ، زكىّ ، تزكى ، والصفة زكى) وهى كلمات لها دائماً حضور دينى فى القرآن والسنة القديمة ويحتمل أن محمداً قد أعطاها هذا المفهوم ففعل زكا معناه كان خالصاً تقياً فاضلاً ، وذكى معناها التقى الفاضل وبهذا المعنى نجد كلمة الزكاة أيضاً مع المعنى العام وهو التقوى فى القرآن (ستوك ، ص ٣٥٢) .

ويخلص إلى أن [١] هذا نقل لأفكار معاصرة من الماضى أكثر منه اشتقاق مبادىء شيوعية أو حتى ببساطة شعور عميق باحتياجات المجتمع ، وهذه الدعوة إلى الزكاة والتى تأخذ شكل الحسم أحياناً والتى تسود أيضاً فى الشرق كما تسود أحياناً فى أوربا إن الفقر والأمراض المنفرة وجميع ألوان البؤس قديمة قدم العالم والقديم أيضاً هو الشعور الطبيعى بالشفقة والذى يتولد عند من يتأملون تلك الظروف » (ستوك ص ٣٥٣) .

إذن فالزكاة عند ستوك قد فرضها محمد فى مكة وهى تعنى ليس فقط ضريبة مفروضة على الأغنياء ولكنها منحة تطوعية يدفعها الغنى للفقراء بدافع الشفقة ، ويذكر فى هذا الصدد التواريخ التى ذكرتها الكتب حول الفقه فى مقدمة فصله عن الزكاة وقد فرض محمد الزكاة كضريبة فى العام الثانى للهجرة فى قول أو فى العام التاسع للهجرة فى أقوال أخرى ولكن الجميع متفقون على أنها كانت فى المدينة بعد الهجرة » (ستوك ص ٣٥٦) .

ولم تكن الظروف فى مكة مواتية لفرض مثل تلك الضريبة، فلم يكن فى مكة

---

(١) جريم جـ١ (ص ٥٧) .

مؤامرات شيوعية ولا حوادث فوضوية من هذا النوع الذى كان يمكن لمحمد أن يقدم الأغنياء شيوعيته المخففه باعتبارها طوق النجاة . وعلاوة على ذلك . فمنذ البداية كانت أمة الإسلام تتشكل فى معظمها من الفقراء وكان القليل منهم فقط من يعيش فى بحبوحة من العيش ولم يكن من المفضل محاولة فرض ضريبة لصالح الفقراء لأنه ما كان من الممكن تطبيقها ولم تكن الحاجة تدعو إليها فبما أن أغلب الصحابة كانوا فقراء فإنه لم يكن من الممكن أن يدفعوا شيئاً وأما الصحابة ذوو الثروات فقد كانوا مستعدين للتضحية بأموالهم وحياتهم من أجل قضيتهم الكبرى حتى دون أن يفرض ذلك عليهم بقانون ، فقد كانوا مؤهلين لمعالجة ألوان البؤس التى يعانيها إخو نهم فى الدين أما كالذين لم يكونوا ضمن صحابة النبى فلم يكن محمد يستطيع أن يفرض عليهم آية بالطرق التى تخدمه » (ستوك ص ٣٥٩) .

باختصار فإن ستوك يرى : « أن الزكاة كفعل من أفعال البر كانت فضيلة تطوعيه قبل الهجرة وقد كانت فضيله أساسية بلا شك ولكنها لم تكن على أى حال ضريبة وكان محمد واعياً في البداية وداعية مخلصا لقضية البعث » (ستوك ص ٣٦٠). وبعد الهجرة إلي المدينة أصبحت الزكاة فريضة ولكن ما هو تاريخها بالتحديد ؟ من المستحيل تحديده وكانت الأسباب الدافعة إلى تشريع الزكاة هى :

١ - كان المهاجرون فى المدينة ليس لهم مصادر رزق لأنهم تركوا أموالهم والحرف التى يشتغلون بها فى مكة وحتى يغطى احتياجاتهم فكان لا بد من وجود موارد .

٢ - وفى المدينة بدأ محمد يقود الحروب ضد أعدائه وهذه المشاريع الحربية كانت تتطلب نفقات كثيرة لتجهيز الجيش وللتجهيزات الأخرى لا سيما حين يكون مجبراً على محاصرة الحصون والقلاع لعدة أيام أو أسابيع وقد حددت الآية ٦ من سورة التوبة مصارف الزكاة .

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾

ويقول ستوك : « إن هذه الآية من القرآن هى المحور الذى تدور عليه كل المصارف الشرعية للزكاة وهناك مذهب يتمسك حرفياً بتحديد المصارف الثمانية

للزكاة زاعما أيضاً أن أى موارد للزكاة يجب أن يعاد تقسيمها فيما بينهم ، بينما هناك مذهب آخر يرى على العكس من ذلك أنه يجب أن تتصرف ويجتهد فى مبدأ التوزيع وكلهم يعترفون أن هذه الآية تتناول تشريع الزكاة فى شكله النهائى والذى حاول محمد أن ينظمها فى السنوات الأولى بعد الهجرة » . (ستوك ص ٣٦٠ - ٣٦١) .

- رأينا -

هذا ملخص تام وجامع لحجج ستوك هورجرونخ التى ساقها ضد « هربرت جريم » وهى أن محمداً قد فرض الزكاة لعقيدة أساسية فى دينه وهى الشيوعية وأن المعتقدات الأخرى لا سيما اليوم الآخر كان يستخدمها محمد كغول يخيف به الأغنياء .

ونحن نوافق تماماً على حجج ستوك لأن .

١ - منذ أن اضطلع محمد برسالته كانت عنده النية فى إقامة دين بالمعنى الكامل للكلمة أى نظام معتقدات وسلوك تحدد الإيمان بالله خالق الكون وسيده والعلاقة بين الإنسان والله ومصير الإنسان حسب أفعاله وما يجب على الإنسان تجاه الله وبقية البشر وحتى بقية المخلوقات .

٢ - لم يشعر محمد أبداً أنه مجرد مصلح اجتماعى ولكن وجهة النظر التى كانت لديه منذ أول ساعة من نبوته وحتى ساعة موته هى إقامة منظومة عقائدية وأخلاقية وشريعة قائمة على المبادئ التى أوحى الله بها وعبادة تسبح بحمد الله .

٣ - الزكاة [١] التى فرضت فى العهد المكى لحياة محمد لم تكن ضريبة ولكنها كانت صدقة وتبرع ومجرد فضيلة أخلاقية دون فرض ودون عقوبة .

أما فى العهد المدنى فإن الزكاة التى كانت تسمى أحياناً صدقة [٢] أو صدقات[٣] أصبحت ضريبة مفروضة على الدخل وتوجه إلى مصارف ثمانية فى

---

(١) هذه الكلمة ذكرت فى ، ٣ آية ١٠ ايات مكيه و٢٢ مدنية .

(٢) فى آيات ١٩٢ ، ٢٦٥ من سورة البقرة ، ١١٤ من سورة النساء ، ١٠٤ سورة التوبة ، ١٣ المجادلة وكل هذه الآيات مدنية .

(٣) فى الآيات ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ من سورة البقرة والآيات ٥٨ ، ٦ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، من سورة التوبة ١٤ من سورة المائدة وكل هذه الآيات مدنية ولكن القول بأن صدقة أو صدقات لم توجد إلا فى الآيات المدنية لا يعنى اقتباسها ألفاظ الأمة التى تعود إلى العهد القديم والجديد أى من اليهود والنصارى كما زعم ستوك ومن قبله س . فرانكل لأنها كانت موجودة أيضاً فى اللغة العربية قبل الإسلام .

الآية ٦٠ من سورة التوبة ولكن حتى بعد أن أصبحت ضريبة ، لا تعنى الزكاة أبداً أى توجه شيوعى .

٢ - الفرق بين الإسلام والاشتراكية

لأنها فى شكلها المعروف ولأنها ترتدى أشكالاً متعددة فإن الاشتراكية قائمة على مبادئ تختلف كل الاختلاف عن مبادئ الإسلام التى وضعها محمد وذكرها القرآن وذكرتها السنن الصحيحة عن النبى .

١ - تؤكد الاشتراكية السيادة المطلقة للمجتمع على الفرد كما تلغى ليس فقط حقوق الفرد ولكن أيضاً حقوق الجماعات الصغيرة مثل العائلة والمؤسسة فالمجتمع يعد كل شئ ويعد غاية وما الفرد إلا وسيلة والأفراد جميعاً متساوون مثل حبات الرمل فى الكثيب .

وفى الإسلام لا يوجد شيء من ذلك فهو يؤكد المسئولية لكل فرد تجاه الجماعة التى يعد عضواً فيها والمجتمع الذى هو عضو فيه كما يلغى الروابط بين الفرد وقبيلته .

ويؤكد القرآن على الطبقية بين الناس .

﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ (سورة الأنعام آية ١٦٥) .

﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق** ﴾ (سورة النحل آية ٧١)

﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** ﴾ (النساء آية ٣٢) .

« إن أى شيوعية تعد عدواً للملكية الخاصة وهذا ليس فقط من أجل أسباب نفعية (عدم المساواة فى التوزيع) ولكن لأسباب مذهبية وهى أن الملكية تجعل من الأفراد متشابهين اقتصادياً بينما تزرع الفردية الاقتصادية الفروق بين الناس . والشيوعية الاقتصادية لا تحب أن تشجع إلا المساواة بين الأفراد وجعلهم نسخ مكررة »[١] .

ولذلك فإن الاشتراكية تفرض إلغاء ملكية كل أدوات الإنتاج .

---

(١) آلن بارير ، تاريخ الفكر الاقتصادى والتحرير المعاصر (ص ٣٧٢) ، محاضرات القانون ، باريس (١٧٣) .

والنتيجة الطبيعية أنها تلغى الميراث وتستلزم الشمولية الكاملة لأدوات الإنتاج .

كل هذه الأفكار من إلغاء الملكية الخاصة وإلغاء الميراث وشمولية أدوات الإنتاج تتعارض تماماً مع مبادىء الإسلام لأن .

(أ) النبى أكد فى الخطبة التى ألقاها فى حجة الوداع على احترام الملكية الخاصه وأكد عليها فى الخطبة مرتين حيث قال .

« لا يحل مال امرء مسلم إلا عن طيب نفس منه » .

« أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم » (١) .

أما عن حق الميراث فلقد أكده القرآن بقوة وبإصرار خاصة فى سورة النساء فى الآيات ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧٦ وقد حددت هذه الآيات بشكل دقيق نصيب كل مستحق للميراث وقد قال الله عن قواعد تقسيم الميراث ﴿ **تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب**

التي تخلق حياة جديدة وهي التي تصنع التاريخ » (١) فالحزب هو مصدر كل سلطة وكل حقيقة والحزب باعتباره مستودع الحقيقة فإنه يظن أنه يجوز له أن يتملص من تبعاتها وهذه علامة على الخطأ وهي ألا يتبع الحزب المبادىء التي يدعو إليها ولذلك فإنه لا يسمح بأى معارضة لأن المعارضة لن تكون « إلا نتيجة لخطأ أو غطاءاً لنية عدائية تجاه الشعب العامل والمعارضه تصنف باعتبارها خارجة عن القانون (٢) كما يزعم النظام أنه يمثل الشعب ولكن الحقيقة « أن الانتخابات ليس فيها اختيار بين قوائم متعددة ولكنها قائمة وحيدة وهي قائمتهم وحدهم فقط قائمة الشيوعية » (المرجع السابق ص ٥٢١) كما أن مجلس السوفيت الأعلى هو العنصر الأعلى في سلطة الدولة في الاتحاد السوفيتي .

« وهو وحده الذي يمارس السلطة التشريعية وهو الذي يحتكر المبادرة وهو الذي يصدق على الميزانية في الاتحاد ويعتمد الخطط التي تقرها لجنة الخطط والمعتمدة من مجلس الوزراء كما أن مجلس السوفيت الأعلى حسب القانون هو الذي يحدد أعضاء مجلس الوزراء ويقر إعادة ترشيحه » (المرجع السابق ص ٥٣١) كما أن مجلس السوفيت الأعلى ينتخب في جلسه عامة بحجرتيه ومجلس رئاسته وهذا المجلس يشتمل على رئيس وستة عشر نائب رئيس (واحد من كل جمهورية من جمهوريات الاتحاد) وسكرتيراً وعشرين عضواً كما أن رئاسة المجلس تتقلد سلطات مجلس السوفيت « وبهذا يمكنه مراقبة الوزراء وتعيينهم وإعفائهم من مناصبهم وإعلان حالة الحرب واعتماد المعاهدات الدولية وسن القوانين العسكرية وأخيراً تفسير القوانين وسن اللوائح » (المرجع السابق ص ٥٣٣) .

بعد هذه اللمحة السريعة عن النظام السياسي في الدولة الشيوعية الماركسية يتضح أن ليس ثمة أى تشابه بين الدولة الاشتراكية والدولة الإسلامية .

(د) مصدر القانون في الدولة الإسلامية هو القرآن والسنة والقياس والإجماع ليس إلا عوامل مساعدة ثانوية تستعمل في نطاق ضيق وبلا تحديد .

أما في الدولة الاشتراكية فإن مصدر القانون هو الحزب الاشتراكي الوحيد والقادر

---

(١) تقرير عن اللجنة المركزية للمؤتمر العشرين للحزب ٢٤ مارس ١٩٥٦ (ص ٤٠) .
(٢) جـ بوردو مقاله في العلم السياسي مجلد ٩ (ص ٥١٨) ، باريس (١٩٧٦) .

على كل شيء » وما أشبه الليلة بالبارحة فما زالت الدولة السوفيتية يحكمها الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى وهو الذى يسن القانون لكنه ليس محدوداً بهذا القانون فهو خالق القانون والمسيطر عليه وهو الذى يقترح مشاريع القوانين والتى تعتمد أحياناً بعض التعديلات من جانب مجلس السوفيت الأعلى خاصة إذا تطلب الأمر سن لوائح ومراسيم من جانب الحكومة أثناء دورات انعقاد مجلس السوفيت الأعلى (١) والتى سرعان ما تطبق وتعتمد فى الدورة التالية » .

وتأسيساً على ذلك فإن سلطة التشريع فى أى دولة شيوعية ليست محدودة أو مشروطة بأى نص بينما فى الدولة الإسلامية لا يبتعد كل تشريع عن نص مقدس وهو القرآن ونص شبه مقدس وهو السنه .

الخاتمة

وختاماً يمكننا أن نرد على السؤال المطروح فى أول هذا الفصل وهو هل كان محمد شيوعياً ؟ والرد بلا الحاسمة والمطلقة ، فالإسلام كما وضعه مؤسسه يتناقض تماماً مع الاشتراكية أيا كان شكلها وإذا استعرضنا الاشتراكية خاصة فى شكلها العملى وهو أعظم الأشكال توصيفاً وأكثرها حقيقة فسنجد أن الأشكال الأخرى للأشتركية ليست إلا اسماً مستعاراً للأشتراكية .

وإذا كنا توسعنا قليلاً فى هذا الموضوع فذلك من أجل أن نحارب هذه الموجة من التعمية التى رانت على العالم العربى وخصوصاً منذ ١٩٥٥ والعالم الإسلامى بصفة عامة ولم يستطع زعماء هذه الموجة رغم نباحهم الطويل أن يقنعوا أى إنسان جاد .

* * *

---

(١) هـ شامبر (Chambre) ، تحول الماركسية السوفيتية (ص ٤٦٢، باريس ، ١٩٧٤م).

الفصل السادس
نقد الصحة التاريخية لرسائل وخطب الرسول وأحاديثه



رجعنا الآن إلى مشكلة نقد المصادر ، فى الواقع لقد نسب إلى النبى محمد عدد من الرسائل وعدد قليل من الخطب وعدد كبير من الأحاديث أى الأقوال والأفعال .

ونستعرض كل من هذه الأقسام الثلاثة على حده .

أ - الرسائل

تنقسم الرسائل إلى قسمين :

١ - الرسائل إلى مختلف القبائل أو زعماء القبائل .

٢ - الرسائل إلى ملوك البلاد المتاخمة لجزيرة العربية .

١ - رسائل الرسول إلى القبائل .

النوع الأول من الرسائل هو الأقل أهمية لأن كتب السيرة والتاريخ لم ترو إلا عدداً قليلاً من هذه الرسائل وأغلبها كان تحذيرات ونصائح مثل تلك النصائح التى أسداها النبى لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن [١] ومن بين رسائل النبى إلى القبائل والتى وصلتنا بشكلها الكامل الرسالة التى حملها عمرو بن حزم إلى بنى الحارث بن كعب بنجران سنة ١٠ هجرية ٦٣١م وفى نفس المناسبة أرسل النبى كتاباً إلى خالد بن الوليد الذى نجح فى أن يدخل بنى الحارث فى الإسلام دون حرب وقد أورد ابن هشام نص الرسالة التى حملها عمرو بن حزم (ص ٩٦١) وتلك المبعوثة إلى خالد ذكرها (ص ٩٥٩ إلى ٩٦٠)

ويمكن أن نذكر هنا كتاب مسيلمة بن حاطب المعروف بمسيلمة الكذاب ورد النبى على هذا الكتاب وكان هذا سنة ١ هجرية ٦٣١م .

وهذا نص كتاب مسيلمة .

« من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون »

---

(١) انظر هذه النصائح عند ابن هشام (ص ٩٥٧)

فرد عليه النبى بهذا الكتاب :

« من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » [1] .

وفى هذه الرسائل نجد أنه ليس هناك ما يبرر الشك فى صحتها فليس هناك أى دافع خاص يمكن أن يجعلنا نفترض أنها موضوعة من أجل تبرير أو مساندة قضية أو شخص معين .

٢ - والأكثر أهمية هى رسائل النبى إلى الملوك والتى أولاها المستشرقون أهمية خاصة ، فمنهم من يرفض كلية صحتها وهو فرانتس بول ومنهم من يتردد ويعلن حكمه مثل جود فروا ديمومبين وآخرون كثيرون .

نستعرض أولا ما تقوله لنا مصادرنا .

كان هناك وفود ورسل بعثهم النبى محمد إلى الملوك يحملون رسائل يدعوهم النبى فيها إلى اعتناق الإسلام هم ورعاياهم .

وهذه هى أسماء السفراء كما أوردها ابن هشام (ص ٩٧١) :

١ - دحية بن خليفة الكلبى وقد بعثه إلى هرقل امبراطور بيزنطة .

٢ - عبد الله بن حذافة السهمى وقد بعثه إلى كسرى ملك الفرس .

٣ - عمرو بن أمية الضمرى وقد بعثه إلى النجاشى ملك الحبشة .

٤ - حاطب بن أبى بلتعة وقد أرسله إلى المقوقس ملك الإسكندرية .

٥ - عمرو بن العاص السهمى وقد بعثه إلى جعفر وعباد بنى الجلندى ملكى عمان .

٦ - سليط بن عمرو وأحد بنى عامر بن لؤى فقد بعثهما إلى ثمامة بن أثال وهوزة بن على الحنفيين ملكى اليمامة .

٧ - العلاء بن الحضرمى وبعثه إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين .

٨ - شجاع بن وهب الأسدى وبعثه إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام .

---

(١) ابن هشام (ص ٩٦٥) .

ولم يورد ابن هشام نص الرسائل التى كان يحملها هؤلاء السفراء ولكنه أورد[1] نص كتاب النبى إلى ملوك حمير والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان ذو الريان وحمدان عندما اعتنق هؤلاء الأمراء الإسلام فى رجب من السنة التاسعة للهجرة ولكن بعض المصادر تروى نصوص أغلب هذه الكتب فقد جمع محمد حميد الله ونشر كل هذه النصوص وترجمها إلى الفرنسية فى الجزء الثانى من رسالته للدكتوراه بعنوان (وثائق عن الدبلوماسية الإسلامية فى عهد النبى والخلفاء الراشدين [2] ص من ١ ، ١٢٩) وقد نشر حميد الله النص العربى لهذه الرسائل فى القاهرة [3] .

وقد أخذ حميد الله نص هذه الرسائل عن :

١ - عمرو بن حزم الذى أخذها عن أبى جعفر الديعولى (القرن الثالث الهجرى والتي ذيل بها كتابه عن ابن طولون (توفى ٩٥٣ هجرية) « إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين » ، من مخطوطات المجمع العلمى العربى بدمشق ويحتوى على اثنتين وعشرين رسالة من رسائل النبى .

٢ - ابن حديدة : المصباح المضفى فى كتب النبى الأمى ورسله إلى ملوك الأرض من عربى وعجمى ، من مخطوطات مكتبة داماد إبراهيم باشا ، اسطنبول، رقم ٤٠٧ ، فى ٨ ، ٤٠٠ ، كتب فى ٧٢٩ هجرية .

٣ - ابن سعد فى الطبقات .

٤ - الطبرى : تاريخ .

٥ - ابن هشام : سيرة النبى .

٦ - المقريزى : الخطط .

ومصادر أخرى على قدر أقل من الأهمية وصحف فى ثبت المراجع من (ص ١٣١ ، ١٣٤) .

---

(١) ابن هشام (ص ٦٥٦ ، ٦٥٧) .

(٢) باريس المكتبة الشرقية والأمريكية (١٩٣٥م) .

(٣) القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولم يناقش حميد الله قضية صحة هذه النصوص إلا بشكل عارض وباختصار فى الجزء الأول من عمله (والتى وضع لها تقييماً خاصاً من ص ٩ إلى ١٠٢).

وكذلك فإننا يجب علينا أن نذكر هنا بالتفصيل آراء المستشرقين الذين تعرضوا بالتفصيل لقضية صحة هذه الروايات وسوف نتبع كل رأى على حده .

رأى بول

يرى فرانتس بول فى مقاله عن محمد فى موسوعة الإسلام الطبعة الأولى جـ٣ (ص ٦٩٨ ، ٦٩) أن هذه الرسائل « من المقوقس حاكم الإسكندرية وإلى أمير الحبشة وإلى امبراطور بيزنطة إلخ والتى يدعوهم فيها إلى الإسلام هى رسائل ملفقة » ويواصل حديثه قائلا : « على أى حال فقد اتضح أن الادعاء بأن المخطوط الأصلى لكتاب النبى إلى المقوقس حاكم الإسكندرية ليس صحيحاً (٢٥ الجريدة الأسيوية ، ١٨٥٤ ، ص ٤٦٢ وقد اتبعه جورجى زيدان فى مجلة الهلال ١٩٠٤ ص ١٠٣ وأيضاً يسكر ، الأوراق وراين هرت ، ١ ، ٣) ، ولكن ما روى فى موضوع هذه الرسائل لا يستحق بداية تلك الأهمية التى أولاها له معظم من كتبوا عن النبى فهى مجرد أوهام صنعتها تلفيقات خاصة حينما نراها يجب أن تعتبر أنه من غير الواقعى أن سياسياً محنكاً مثل محمد كان قد انتهى لتوه من تحقيق هدف حقيقى وهو فتح مكة يمكن أن يغرق فى خيالات وهمية من قبيل تحول هرقل أو ملك الفرس إلى الإسلام الذين يعتبرون أن القرآن العربى الواضح بالنسبة لهم غامضاً مثله مثل التوراة بالنسبة لمحمد ومواطنيه الذين لم يستطع أن يخدعهم بالقوة ولا أن يستثير حفيظتهم وبشكل عام فإنه من المثير للشك أن يكون محمد قد فكر أن دينه يمكن أن يصبح ديناً عالمياً كما يعتقد مثلاً نولدكه وجولد تسهير وأرنولد فى كتابه « دعوة الإسلام » ولامون فى كتابه « دراسات حول حكم الخليفة معاوية » جـ١ ، ١١ ، ٤ ومقطوعات السور المكية التى يمكن أن نسوقها فى هذا الصدد (الأنعام ٩٠ ، يوسف ١٠٤ ، الأنبياء ١٥٧ ، والفرقان آية ١ ، وسبأ ٢٧ ، ويس آية ٧٠ ، ص آية ٨٧ ، والنبأ آية ٥٢ والتكوير آية ٢٧، آل عمران آية ٩٠ ، والحج ٢٥ وقد وجدوا تحديده فى السياق وفى المقارنات التى ليست مفهومة مثل (سورة الأنعام ٩٢ والشورى آية ٧ حيث

فسروا أم القرى بمعنى مكة) (وفى العهد المدنى حل محل مبدأ ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ البقرة ٢٥٧ حل محله بداية نشر الإسلام بقوة السلاح والتى جعلت من ضمن شروطه سيادته على كل الأديان آل عمران ٧٩ ، التوبة ٣٣ الصف آية ٩) ولكن هذا المبدأ استمر فى نطاق المناطق التى يسكنها العرب وإذا كان محمد قد أعلن بعد فتح مكة الحرب أيضاً على أهل الكتاب فإن الغزوات الحربية التى قام بها محمد توضح أنه لم يفكر إلا فى العرب الخاضعين لحكم الرومان أو الفرس ولا يمكن أن تشير إلى أن محمداً ذهب أبعد من ذلك فى مشاريعه . ولكن من المؤكد أن محمداً برغم قوته لم يكن يريد أن يتحول النصارى إلى الإسلام واكتفى بإخضاعهم السياسى لمنطقه ودفعهم الجزية . وصحيح تماماً فى هذا الصدد أن نتغاضى عن كل هذه الروايات ونبحث عن العمق التاريخى الحقيقى فى المفاوضات ذات الطبيعة السياسية من مثل التى حدثت مع المقوقس الذى كانت تربطه بمحمد صداقة (انظر عن هذه الشخصية كتاب باتلر الفتح العربى لمصر ١٩٠٢) ولا يمكن - تأسيساً على تأثير التقاليد المسيحية - أن نقبل بوجود فكرة ناشئة عن مشروع بعثات تبشيرية إسلامية ضمن مشروع كبير .

وفى المقابل فإن صيغة الرسائل الموجهة من النبى إلى القبائل العربية تعدلت فى تلك الفترة فلم يعد النبى مقتنعاً بمجرد مكسب سياسى بسيط ولكنه كان يطلب من العرب اعتماداً على قوته أن يدخلوا فى دينه ووصل الأمر به أن فرض عليهم أداء الصلاة ودفع الزكاة » وقد أعطى أيضاً يحوزام على حدود الشام آماناً لمدة شهرين ثم بعد ذلك تصرف معه (انظر شيرير : كتب محمد إلى الأمراء العرب، ١٩ ص ١٤ وما بعدها)

النقد

من السهل أن تدحض الحجج التى يسوقها بول .

كون الادعاء بأن المخطوط الأصلى لكتاب النبى إلى المقوقس حاكم الاسكندرية ليس صحيحاً فإن هذا لا يعنى شيئاً بالنسبة لصحة النص نفسه . فكلامه هذا مثل أن تثبت أن هذا المخطوط ليس إلا صورة طبق الأصل .

فى الحقيقة وكما قال محمد حميد الله « فإن نص الكتب المتبادلة بين النبى

والمقوقس موجود عند مؤرخ مصرى أقدم من ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٢٧ هجرية » (١) .

٢ - يتحدث بول عن الخصوصيات المتعددة الملفقة والتى نجدها فى كتابات النبى إلى الملوك ولكنه لم يعطينا أى مثال عن هذه التلفيقات وأى عربى متعلم بشكل جيد ومتخصص فى اللغة العربية فى فترة النبى سيجد أنه ليس فى هذه الرسائل أى مخصصات تدل على التلفيق .

٣ - والحجة الثالثة لبول وهى أنه لا يمكن أن يكون محمد قد فكر أن يبعث برسائل إلى الملوك العظام فى اللحظة التى لم تكن جهوده مركزة إلا على هدف واحد وهو فتح مكة .

ولكن هذه الحجة قائمة على افتراض خاطىء وهو أن هذه الرسائل قد بعث بها النبى قبل فتح مكة بينما لم يذكر أى مصدر هذا الافتراض. كما أن أى مصدر لم يحدد تاريخ محدد لهذه الرسائل إذاً فليس من حق بول أن يسوق هذه الحجة.

٤ - يقع بول فى خطأ واضح حين يزعم أنه يشك كثيراً فى أن محمد يمكن أن يكون قد فكر أن يصبح دينه عالمياً لأن آيات السور المكية التى ذكرها بنفسه هى براهين واضحة تهدم قضيته المعاندة للحقيقة وقد قمنا فى مرات عديدة بفحص منطق بول ومن على شاكلته من الذين ادعوا أن محمداً كان يعد دينه ديناً خاصاً بالجزيرة العربية فلم يكن لدى محمد فى أى لحظة من اللحظات هذا المفهوم المحدود عن الإسلام بل على العكس فقد اعتبر الإسلام ديناً لكل البشر ديناً يجب أن يحل محل جميع الأديان وفى أى مكان كان .

٥ - وقد شرع محمد أثناء حياته أن يضع هذا المفهوم موضع التطبيق فبعد أن أخضع الجزيرة العربية بأكملها قام بإرسال حملات عسكرية إلى« الحدود البيزنطية فأرسل أولا حملة إلى تبوك وكان هو على رأس جيش عظيم من رجب إلى رمضان من السنة التاسعة للهجرة (أكتوبر وديسمبر سنة ٦٣٠م) ثم من رمضان إلى صفر من سنة ١١ هجرية (إبريل - مايو ٦٣٢م) جهز جيشاً كبيراً وجهه إلى الشام فى منطقة البلقاء والدارم فى فلسطين بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة (ابن هشام ، ٩٩ ، الطبرى جـ١ ١٩٩٤) ، وهذا يؤكد أن النبى كان ينوى أن يفتح بالإسلام البلاد المتاخمة للجزيرة العربية مثل بيزنطة والامبراطورية الفارسية . .الخ

وقد قام خليفته أبو بكر بمواصلة هذا التوسع فور تولية للخلافة وخرجت الجيوش المسلمة لفتح الشام بعد شهر رجب من سنة ١٢ هجرية وتوجه عمرو بن العاص إلى فلسطين مروراً بإيلياء وتوجه يزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وتوجهوا إلى البلقاء فى الشام على طريق تبوك وهذه الغزوات التى كانت فى حياة النبى وبعد موته بعام واحد تثبت بما لا يمكن ضحده أن الإسلام فى فكر مؤسسه محمد دين عالمى يخاطب العالم أجمع وفى كل مكان كانت فتوح وغزوات النبى هدفها إدخال شعوب أخرى من الأرض فى الإسلام وكان قواد هذه الغزوات يعرضون على هذه الشعوب الدخول فى الإسلام قبل كل شىء .

٦ - من أجل هذا يجب أن نصف رأى بول بالغباء الشديد وهو أن فكرة القيام بمشروع تبشير إسلامى عظيم نشأت من تأثير التقاليد المسيحية خاصة معجزة عيد الحصاد .

وختاماً فإن كل الحجج التى يسوقها فرانتس بول ليثبت أن كتب النبى إلى امبراطور بيزنطة هرقل وامبراطور فارس كسرى والمقوقس حاكم الاسكندرية والنجاشى حاكم الحبشة مزيفة وملفقة لا تساوى شيئاً وتنم عن غباء نادر عند بول» .

رأى جاستون وايت (٢)

يهتم جاستون وايت على وجه الخصوص بمسألة صحة كتاب النبى إلى المقوقس(٣)

لقد رأى أن كل المكاتبات بين البى والمقوقس ملفقة ليدعم رأيه فإنه يسوق حجتين :

١ - لم يكن طريق الإسكندرية مخولاً أن يستقبل الوفود الأجنبية ولا أن يرسل وفوداً للخارج .

---

(١) محمد حميد الله ، وثائق عن الدبلوماسية (ص ٦٦) .

(٢) فى طبعته للخطط المقريزية (ص ١١٩) ملحوظة ٢ القاهرة ١٩١١ .

(٣) كل المحاولات لتعديل ما ذكر فى المصادر العربية باءت بالفشل انظر مقال جروهمن فى موسوعة الإسلام الطبعة الأولى .

وهذه الحجة لا تستند على أى وثيقة ولا يمكن تبريرها لأننا فى المصادر العربية نقرأ صراحة أن « المقوقس ملك الإسكندرية » (ابن هشام ص ٩٧١ ، ١٣٠ - ١٤٠) إذاً فكيف يكون ملكاً ولا يسمح له باستقبال الوفود الأجنبية ولا بإرسال الوفود إلى الخارج ؟ أى نوع من الملك أو المليك يمكن أن يكون هذا الرجل !.

٢ - القول بأن الكتب المرسلة إلى المقوقس وإلى امبراطور بيزنطة وإلى النجاشى كتبت بألفاظ متشابهة يؤكد حسب قول جاستون وايت أنها ملفقة .

وعن هذه الحجة أجاب محمد حميد الله وكان على حق تماماً حين قال : إن هذه الكتب الثلاثة كتبت وأرسلت فى نفس اليوم ولنفس الهدف إلى ثلاثة أمراء مسيحيين وكان الكتاب قد استفادوا من نفس الصيغة عند تحرير النصوص الثلاثة»[1] .

والأهم من هذه الحجة هو الحدث الذى لا يمكن الشك فيه من أن المقوقس حاكم مصر أرسل هدية إلى النبى هى مارية القبطية التى تسرى بها وولدت له ابنه إبراهيم ولا يشك أحد فى هذه القصة وبالتالى فإنه لا يمكن الشك فى أنه كانت هناك مكاتبات بين النبى والمقوقس حاكم مصر . كما أن نص خطاب النبى إلى المقوقس لا يشتمل على أى شيء يمكن أن يثير الشك فهو مجرد دعوة للدخول فى الإسلام فما الغريب فى ذلك ؟

ألا يتملكنا العجب أيضاً حين نرى أن جود فروا ديمومبين [2] يؤكد بشكل قاطع « أن الكتاب الذى ترويه السنة هو ملفق تماماً ولا نعلم من هى الشخصية التى يمكن أن يكون الخطاب قد أرسل إليها » . ولكن هذا دائماً هو دأب المنطق المتعجرف الذى لا يقوم على شيء والذى يميز كتابات أغلب المستشرقين فى مجال الدراسات المتعلقة بمحمد والقرآن والإسلام .

عدم صحة الردود

ولكن إذا كنت أحكم بصحة الكتب التى أرسلها محمد إلى الملوك الذين

---

(١) محمد حميد الله ، وثائق حول الدبلوماسية الإسلامية ، (ص ٦٧) وقد ترجمت الرسائل الثلاثة إلى الفرنسية بأرقام ١٠ ، ١٤ ، ٣٧ فى الجزء الثانى من هذا العمل .

(٢) جود فرواه ديمومبين ، محمد (ص ١٦٨) .

ذكرناهم آنفاً فليس الأمر كذلك فيما يخص الردود على هذه الرسائل خاصة الرد المنسوب إلى هرقل لأنه من المستحيل أن يكون هرقل قد كتب هذا الرد المنسوب إليه وإلا لاعتنق الإسلام وهذه هى الإجابة المزعومة :

إلى أحمد الذى بشر به عيسى من قيصر ملك الروم .

وصلنى خطابك مع رسولك وأشهد أنك رسول الله وإننا نجدك عندنا فى الإنجيل وقد بشرنا بك عيسى ابن مريم وقد دعوت البيزنطيين للإيمان بك ولكنهم رفضوا ولو اتبعونى لكان خيراً لهم ولكم تمنيت أن أكون عندك لأخدمك وأغسل قدميك [1] » فى الواقع إن كل جملة وكل تعبير يصرخ شاهداً على كذب وزيف هذا الخطاب . ومن ناحية أخرى فإن هذا الخطاب لم يورده إلا اليعقوبى (الجزء الثانى ص ٨٤) وهو مرجع ملئ بالأساطير .

كما أنها أيضاً مزيفة ولكن بدرجة أقل من تلك الردود المنسوبة إلى النجاشى ملك الحبشة [2] لأنه لا يمكن أن يكتب النجاشى هذه الجمل .

« أشهد أنك رسول الله الحق والصدق (وفى مصدر آخر : « حقاً ومصدقاً أى بشرت بك التوراة والإنجيل ») .

« لا إله إلا الذى هدانى للإسلام » فى الحقيقة ليس هناك أى مصدر إسلامى أو أى مصدر آخر آكد أن النجاشى اعتنق الإسلام بينما تعنى هاتان الجملتان أنه اعتنق الإسلام . إذاً فهاتان الجملتان على الأقل محرفتان وبقية الرد يمكن قبوله أو ربما كان صحيحاً لأنه يتعلق بشئون عملية فى العلاقات بين النجاشى ومحمد وهى شئون موجودة ومؤكدة حسب مصادرنا وحتى جود فروا ديموميين (السابق ص ١٦٧) يعترف بذلك ويؤكد « أن كتاب النبى إلى نجاشى الحبشة كان امتداداً طبيعياً للعلاقات الطيبة التى كانت تربط محمد بالنجاشى وختاماً نرى أن الرسائل التى بعثها النبى محمد إلى الملوك صحيحة بينما الردود على هذه الرسائل موضوعة إما كلها (رد هرقل) أو فى جزء منها (ردود النجاشى والمقوقس) .

أما عن الرسائل إلى مختلف زعماء القبائل العربية فلم يتعرض أحد تقريباً لمناقشة صحتها .

---

(١) ترجمة محمد حميد الله المرجع السابق (ص ٢١) من الجزء الثانى .

(٢) مذكور فى الترجمة الفرنسية لحميد الله المرجع السابق (ص ١٩ - ٢٠) .

ب - الخطب

الخطب المنقولة عن النبى قليلة إلى حد ما وأهمها خطبتان .

١ - خطبته فى يوم فتح مكة .

٢ - خطبة الوداع أو خطبة حجة الوداع التى ألقاها فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٠ هجرية وهاتان الخطبتان روتهما كل مصادر سيرة الرسول القديمة (ابن إسحاق - ابن هشام - ابن سعد)، وكذلك المؤرخون الكبار (الطبرى - ابن الأثير - الخ)، كما أن الاختلافات فى النصوص المنقولة اختلافات بسيطة ومحتوى هاتين الخطبتين معظمه مذكور فى القرآن الكريم . كما لم يشك أى عالم مسلم أو مستشرق فى صحة هاتين الخطبتين. وقد خصص لويس ماسينيون فصلاً دراسياً بالمدرسة العلمية للدراسات العليا وكلية فرنسا لمدة عام لدراسة خطبة حجة الوداع ولكنه لم ينشر شيئاً عن هذا الموضوع ولا هذه المحاضرات والتى حضرتها فى آخر أجزاءها وكانت تدرس ببساطة ولم تتعرض لقضية صحة هذه الخطبة .

نقد الأحاديث

الوضع مختلف تماماً فيما يتعلق بنقد السنة أى الأقوال والأفعال المنسوبة إلى النبى والتى اعتبرها المسلمون بعد موت النبى أساساً لكل تشريع بجانب القرآن .

والمشكله أكبر من أن نناقشها فى عملنا هذا .

فقد خضع الحديث منذ وقت مبكر للنقد الصارم والمتعمق من جانب العلماء المسلمين ولذلك فإن الكتب الست الأولى (الكتب الصحاح الستة) للأحاديث والمعترف بها عند أهل السنة - على الأقل - أنها صحيحة قد استلزمت نقداً للحديث لأنها اختارت أحاديثها من بين مئات الألاف من الأحاديث المنسوبة إلى النبى وقد اختيرت حسب معايير خاصة لكل من أصحابها وهى معايير متعلقة بالرواة وقد عاش الذين وضعوا هذه الكتب فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فأبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى توفى سنة ٢٥٦ هجرية ومسلم بن الحجاج النيسابورى توفى سنة ٢٦١ هجرية وأبو داود السجستانى توفى

سنة ٢٧٥ هجرية وأبى إسحاق محمد الترمذى توفى سنة ٢٧٩ هجرية وأبو عبدالرحمن النسائى توفى سنة ٣٠٣ هجرية وأبو عبد الله محمد بن ماجه القزوينى توفى سنة ٢٨٣ هجرية حتى هذه الكتب التى تعد صحاحاً خضعت للنقد من جانب العلماء المسلمين منذ القرن التالى أى بدءاً من القرن الرابع الهجرى حسب قول جولد تسيهر [١] « هناك قليل من النقد وجه إلى الصحاح فقد ألف أبو الحسن على الدارقطنى (توفى فى ٣٨٥ هجرية) كتاباً سماه « الاستدراكات والتطابق » وفيه يوضح الكاتب ضعف مآتى حديث فى الصحاح ونجد فى أحيان كثيرة التعبير الحر بشكوك فى قضية متعلقة ببعض فقرات الكتب التشريعية للأحاديث فالأشعرى الباقلانى ومعه إمام الحرمين الجوينى والغزالى يرفضون حديثاً[٢] رواه البخارى ويعتبرونه موضوعاً » كما يذكر كلاماً للنووى (فى كتابه التقريب) حيث يعلن النووى أن ما فى الصحيحين البخارى ومسلم « لا يعنى إلا معرفة ظنيه بينما لا يعضدها إلا التواتر » [٣] .

ولكن المستشرقين ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير وكان أشهرهم فى هذا المجال بول وإجناتس جولد تسيهر فى كتابه « دراسات فى السنة المحمدية » جـ٢ (ص١-٧٤) وفى بعض دراساته عن السنة والإسلام .

٢ - يوسف شاخت فى مقال بعنوان ثورة فى السنن الإسلامية .

دراسات إجناتس جولد تسيهر :

يعنى جولد تسيهر فى المقالين ١ ، ٣ المذكورين بعاليه بتوضيح أن عدداً من الأحاديث مقتبس من الأناجيل ويعطى مثالاً على ذلك الأحاديث التالية :

١ - « أدوا إليهم (أى الأمراء) حقهم واسألوا الله حقكم » وقد قال أنه مقتبس من إنجيل متى إصحاح ٢٢ آية ٢١ « دع مال قيصر لقيصر وما لله لله »

٢ - كلمات الإنجيل التى تؤكد أفضلية الفقراء على الأغنياء وقد كان لها صدى فى أحاديث كثيرة (على سبيل المثال باب الرقاق رقم ٥١، باب الفتن، رقم ٦).

---

(١) إجناتس جولد تسيهر دراسة الدين المحمدى جـ٢ (ص ٢٥٧) الترجمة الفرنسية ليون برشيه (ص ٣٥١) باريس (١٩٥٢) .

(٢) البخارى كتاب التفسير رقم (١١٥) سورة التوبة : ٨١ .

(٣) ذكره جولد تسيهر المرجع السابق الترجمة الفرنسية (ص ٣٢٢) .

٣ - « يشكل البلهاء الجزء الأكبر من أحاديث الجنة وهى مقتبسة من إنجيل متى إصحاح ٥ آية ٣ » سعداءهم الذين لهم عقول ضحلة لأن ملكوت السماوات لهم» .

٤ - « كونوا بلهاً كالحمام » وهذا مقتبس من إنجيل متى إصحاح ١٠ آية ١٦ «تحلوا بالحذر مثل الثعابين وكونوا بسطاء كالحمام » .

٥ - حديث رواه أبو داود (جـ١ ص ١٠١ القاهرة ، ٢٨٠ هجرية) ويشتمل على القداس الأبوى المسيحى (متى ٦:٩ - ١٣ لوقا ١١ : ٢ - ٤ ، مرقص ١١ : ٢٥).

كما أنه يكشف فى نفس المقال (٣) عن بعض الكلمات والتعبيرات التى يزعم أنها مقتبسة من الأناجيل من شهيد والتحمس والراقدة والملح والأصداف الملقاه تحت أرجل الخنازير ونجيب هكذا على ملاحظات جولد تسيهر .

(أ) الأحاديث محل الطعن غير موجودة فى الكتب الست الصحاح ولكنها موجودة فى واحد أو اثنين منها .

(ب) كما أنها تدعو إلى مبادىء عامة يمكن أن تدخل فى باب حكمة الأمم وليس بالضرورة مقتبساً من أصل مسيحى .

(جـ) الحديث الذى يشتمل على جمل من القداس الأبوى لا توجد إلا عند أبى داود ومسنده أقل تقديراً من الباقين .

(د) أما عن الكلمات والتعبيرات المذكورة فإنها لا تثبت وجود اقتباسات لأنها تعبيرات حرفية شائعة وكلمة شهيد لها معنى فى الإسلام مختلف تماماً عن معناها فى العهد الجديد فى الواقع إن المعنى الفقهى لكمة شهيد (متى ١٨ : ١٦، ٢٠) وأيضاً خلال القرون الثلاثة كان يسمى شهيد ومعناه من شهد أو شاهد يسوع المسيح ولكن لم يمت أى منهم من أجل العقيدة المسيحية .

باختصار إن ملاحظات جولد تسيهر سطحية وقليلة القيمة من الناحية النقدية وأصبحت مثيرة للسخرية حينما زعم فى نفس المقال أن سير محمد كتبت على نموذج الأناجيل .

أما عن دراساته فى السنة الإسلامية فإنها دراسات قوية وجديرة بالاهتمام وهى موجودة فى الجزء الثانى من دراساته عن عقيدة الإسلام (هال ، ماكس نفير ، ۱۸۹۰ ، من ص ۱ إلى ص ۲۷٤) .

ولكن الدراسة المتعمقة لهذه الآراء فى دراساته للسنة تتجاوز اتساعاً نطاق عملنا هذا وسوف نرجئها إذاً إلى عمل آخر مخصص كليةً لسنة النبى ونتمنى أن نؤلفه إذا أطال الله فى عمرنا .

* * *

الفهرس

رقم الإيداع 99/9131

* * *